

جامعة الملك سعود - كلية التربية والعلوم الإنسانية

دكتور

الدكتور

م. عصام الحبيب

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا

٢٠٠٥ - ٦٤٧

أسلوب القسم في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعداد

الطالب / علي بن محمد بن عبدالمحسن الحارثي

إشراف

الأستاذ الدكتور / فتحي عبدالقادر فريد

المجلد الثاني

١٤١١ - ١٩٩١ م

ثانياً - القسم بـ (تالله) في سياق سورة يوسف :

اشتملت سورة يوسف عليه السلام على أربعة مواضع من مواضع القسم باسم الجلالة مع التاء (تالله) ، وقد أشرت إلى هذه الموضع في صدر الحديث عن القسم باسم الجلالة ، ولكن ماسيأتي من الحديث عن عناصر القسم فيها يقتضي إعادة ذكرها : وقد جاءت - وفق ترتيبها في السورة - على النحو التالي :

١ - قوله تعالى : « قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » ^(١) .

٢ - قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهاكين » ^(٢) .

٣ - قوله تعالى : « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » ^(٣) .

٤ - قوله تعالى : « قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم » ^(٤) .

وهذه الموضع الأربعة تتفق - بالإضافة إلى صورة القسم - في مصدر القسم : فهي محكية عن إخوة يوسف عليه السلام . أما المقسم له المخاطب بالقسم : فقد تنوع في هذه الموضع ، ففي الموضع الأول وجه الإخوة القسم إلى القائمين على خزائن مصر ، وفي الموضعين الثاني والرابع وجهوا القسم إلى أبيهم يعقوب عليه السلام ، وفي الموضع الثالث وجهوه إلى أخيهم يوسف عليه السلام .

وقد تنوع القسم عليه - أيضاً - في هذه الموضع ، فالموضع الأول - كما يقول الكرمانى - « يمين منهم أنهم ليسوا سارقين ، وأن أهل مصر بذلك عاملون . والثاني

(١) سورة يوسف ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٩١ .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٩٥ .

يَيْنِ مِنْهُمْ أَنْكُ لَوْ وَاظْبَتْ عَلَى الْحَزْنِ تَصِيرْ حَرْضًا ، أَوْ تَكُونْ مِنَ الْهَالَكِينَ . وَالثَّالِثُ
يَيْنِ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَضَلَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا خَاطِئِينَ . وَالرَّابِعُ . . . يَيْنِ مِنْ أَوْلَادِهِ
عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَزِلْ عَلَى مَحْبَةِ يُوسُفَ »^(١) .

وَسَنَتَنَاؤلُ - فِيمَا يَأْتِي - هَذِهِ الْمَوَاضِعُ الْأَرْبَعَةُ مَوْضِعًا : لِنَتَأْمِلُ فِي كُلِّ
مِنْهَا وَجْهَ اخْتِيَارِ صُورَةِ الْقَسْمِ ، وَعَلَاقَتِهَا بِالْمَقْسُمِ عَلَيْهِ ، وَالْمَقْسُمِ لَهُ ، وَالْمَقْامِ ،
وَالسِّيَاقِ الْخَاصِ وَالْعَامِ ، وَسَائِرِ أَحْوَالِ التَّرْكِيبِ ذَاتِ الْعَلَاقَةِ بِبَنَاءِ الْقَسْمِ وَدَلَالَتِهِ .

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ١٠٢

الموضع الأول :

قوله تعالى : « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » (١) .

هذا أول قسم يرد محكيًا عن إخوة يوسف عليه السلام في السورة التي ضمت أقسامهم الأربع التي سبقت الإشارة إليها ، وهي سورة يوسف . ويصدر هذا القسم منها في سياق حكاية المكيدة التي دبرها يوسف - بتوفيق من الله تعالى - لاستبقاء أخيه بنiamin عنده ، في الرحلة الثانية التي قام بها الإخوة إلى مصر ، بعد أن استدرجهم يوسف إلى إحضار أخيه ، « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخيه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا ن فقد صواع الملك ولم جاء به حمل بعير وأنابه زعيم * قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخيه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم علیم » (٢) .

و واضح من الآيات أن إخوة يوسف يوجهون هذا القسم إلى المؤذن ومن معه من القائمين على خزائن مصر ، بعد أن اتهموهم بالسرقة ؛ فالقسم وارد في مواجهة اتهام لم يكن يتوقع الإخوة أن يوجه إليهم ، وهم من هم في التقوى والصلاح ، ولم يصدر هذا القسم منهم إلا بعد أن تأكد لهم أن أولئك الفتى يقصدونهم هم لا غيرهم بما جاء

(١) سورة يوسف ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات ٦٩ - ٧٥ .

على لسان المؤذن في قوله : (أيتها العير إنكم لسارقون) .

ولما كان هذا هو موقف الإخوة من المؤذن وأصحابه ؛ ظهر في سلوكهم وكلامهم منذ اللحظة الأولى ماينبئ عن الثقة في سلامتهم من تلك التهمة ، والحرص على دفعها ، والاحتفاء بذلك والاهتمام به ، مع إظهار الدهشة والاستغراب ؛ فأول ذلك أنهم حين اتهموا بالسرقة صراحة : (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) ؟ ففي ورود السؤال عن المفقود ، وهم مقبلون على الفتيا ، تعبير عن ثقتهم في أنفسهم ؛ لأن السارق قد يتتردد في موقف كهذا ، بل قد يصبح تردداته استدبار لطالب المسروق ليواري ماقد يكشف من أمره . كما أن في الإقبال على الفتيا التفات يدل على الاهتمام بالأمر .

وما يزيد تأكيد ثقة هؤلاء الإخوة في أنفسهم أنهم لا يبادرون إلى نفي السرقة ب مجرد اتهامهم بها ، بل يبادرون إلى السؤال عن المفقود ؛ كأنهم لا يستبعدون أن يكون قد فقد شيء ، ولكنهم على يقين من أن آخذه ليس منهم ، وهذا مخالف لسلوك من يسرق فإنه يحرص - غالباً - على ألا يثبت مفقوداً ، ليبعد التهمة من أصلها . وفي السؤال عن ذلك بلفظ فقد في قوله : ماذا تفقدون ؟ تأكيد - من جهة أخرى - لبراءتهم من الاتهام ؛ وذلك - كما يقول أبو السعود - أنهم قد عدلوا « عما يقتضيه الظاهر من قولهم : ماذا سرق منكم ؟ لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شيء فضلاً عن أن يكونوا هم السارقين له ، وإنما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم أنه ماذا » (١) .

وقد هيأت هذه الثقة - مع ما يقابلها من ثقة المؤذن في كون السارق منهم - هيأت لصدور القسم منهم احتفاءً واهتمامًا بالأمر ، وإظهاراً لقوة الرغبة في نفي مانسب إليهم ، ووطأ ذلك أيضاً للقسم على علم أولئك الفتيا بأنهم لم يأتوا للإفساد

(١) تفسير أبي السعود ٤/٢٩٥ ، وانظر : روح المعاني ١٣/٢٥ .

في الأرض وما كانوا سارقين ، ولهذا قالوا مقسمين باسم الحالة مقروراً بالباء :
 (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) .

وتفسير ذلك أن في قسمهم على علم المخاطبين بذلك إشارة إلى أن عندهم من الدلائل الواضحة ما يجعلهم واثقين من نزاهتهم وبراءتهم مما أضيف إليهم ، وذلك - كما يقول المفسرون (١) - أنهم قد أظهروا من صلاحهم ودينهم في كرتى مجئهم إلى مصر ما يعلم منه أنهم ماجاءوا ليفسدو في الأرض وما كانوا سارقين .

ويرى بعض المفسرين أن « الحلف في الحقيقة على الأمرين اللذين في حيز العلم لا على علم المخاطبين بذلك ، إلا أنهم ذكروه للاستشهاد وتأكيد الكلام ولذا أجرت العرب العلم مجرى القسم » (٢) .

وهذا الرأي ينافي ما يتضمنه موقف الإخوة ؛ لأنهم يحرصون هنا على إثبات علم المخاطبين بانتفاء الأمرين الداخلين في حيزه (الإفساد في الأرض ، والسرقة) لا على مجرد نفيهما ؛ وذلك أن وقوع القسم على العلم بنفي مافي حيزه يشير - كما ذكرت قبل قليل - إلى رغبة الإخوة في لفت المخاطبين إلى أن الحكم بانتفائهما متيقن لديهم بما عندهم من دلائله الواضحة التي تقتضي أن يكونوا عالمين به .

وقد رجح الدكتور أحمد اللهيب كون القسم واقعاً على قوله : (لقد علمتم ما جئنا ...) ؛ لأن ذلك مما تحيشه الصناعة النحوية ، ويقره المعنى ، فأما من جهة الصناعة ؛ فهي تقتضي أن تدخل (لقد) على الجواب إذا كان فعلاً ماضياً مثبتاً متصرفاً ، « وأما من حيث المعنى فإن القسم على أن المخاطبين عالمون بنزاهة المقسمين من الفساد والسرقة ، أبلغ في البراءة مما نسب إليهم ، وألزم للمخاطبين بالقناعة

(١) انظر على سبيل المثال : معاني القرآن للفراء ٥١/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٢١/٣ ، وتفسir الطبرى (ط المعرف) ١٨١/١٦ ، ١٨٢ ، وتفسir البغوى ٤٣٩/٢ ، والكشاف ٣٣٤/٢ ، وزاد المسير ٤/٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) روح المعانى ٢٧/١٣ ، وانظر : الكشاف ٣٣٤/٢ ، وتفسir أبي السعود ٤/٢٩٥ .

والقبول ، لأنهم ذكروهم بما يعلمونه عنهم من الأمانة وحسن المعاملة معهم قبل ادعاء حدوث السرقة » (١) .

ومعنى هذا أن في التعبير بفعل العلم في جواب هذا القسم تأكيداً للأمرتين المذكورين في حيزه ، وعليه يكون ذكره مؤكداً للجملة المقسم عليها كلها ؛ لأنه المعتمد الأول فيما يراد إثباته في هذه الجملة .

وما زاد من قوة تأكيد المقسم عليه أن العلم مؤكداً بلام التوكيد الدالة على (قد) التي تفيد التوكيد - كذلك - بما تؤذن به من أن هذا العلم من الأمور المحققة الواقع لدى المخاطبين ؛ لأنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت تحقق وقوعه .

ولما كان موقف الإخوة - الذي تقدم بيانه - يقتضي المبالغة في نفي مانسب إليهم ، جاء في المقسم عليه نفي المجيء للإفساد « وإن لم يكن مستلزمأً لما هو مقتضى المقام من نفي الإفساد مطلقاً ، لكنهم جعلوا المجيء الذي يترتب عليه ذلك ، ولو بطريق الاتفاق ، مجيئاً لغرض الإفساد مفعولاً لأجله ادعاء وإظهاراً لكمال قبده عندهم وتربيه لاستحالة صدوره عنهم ، ... فكأنهم قالوا : إن صدر عنا إفساد كان مجيئنا لذلك ، مریدين به تقبیح حاله وإظهار كمال نزاهتهم عنه » (٢) .

ونفيهم المجيء للإفساد يتضمن نفيهم المجيء للسرقة ، ولكنهم مع ذلك خصوا السرقة بجملة منافية مستقلة إظهاراً لكمال الاعتناء بهذا الأمر على وجه الخصوص ؛ لكونه الأمر الذي أقسموا من أجله ، وعليه فإنهم قد نفوه عن أنفسهم مرتين : مرة ببني الإفساد كله ، ومنه السرقة ، ومرة ببني السرقة نفسها .

وفي قولهم : (وما كنا سارقين) وجوه من التوكيد ؛ وذلك أنهم قد عبروا عن المنفي بفعل الكون ؛ ليدلوا على نفي كونهم متصفين بالسرقة اتصاف سجية ؛ فالمعنى

(١) أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم (رسالة دكتوراه) ص ٤٩٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢٩٥/٤ ، وروح المعاني ٢٢/١٧ ، ٢٣ .

- كما يقول ابن كثير - « ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة » (١) ، وهذا أبلغ في نفي السرقة عنهم ، لأنه ينفي مطلق الصفة لا مجرد وقوعها منهم في وقت معين ، ولهذا احترز الإخوة عن التعبير بالفعل أو بالجملة الفعلية في هذا السياق : لما فيهما من الدلالة على الزمن ، فلم يقولوا : وما كنا لنسرق ، أو : وما سرقنا ، ولكنهم عبروا عن ذلك بالجملة الاسمية لما فيها من إطلاق معنى النفي ، وزبادة توكيده .

ومن جميع ما تقدم يعلم أن كلام هؤلاء الإخوة في هذا الموقف قد اشتمل - بالإضافة إلى القسم - على كثير من أساليب التوكيد ، واشتمل على مثل ذلك من خصوصيات التراكيب الدالة على المبالغة في تحقيق المقسم عليه وتأكيده . وقد تقدم أن هذا الموقف الذي أقسم فيه إخوة يوسف يدعوه إلى الاحتفاء بالأمر ، والحرص على نفي التهمة الموجهة إليهم ، وإظهار قوة ثقتهم في براءتهم مما أضيف إليهم ، وهو ما عبرت عنه جميع المؤكّدات التي اجتمعت في الجملة القسمية التي جرت على لسانهم ، على نحو يلفت الانتباه .

وقد يكون لمجيء هذه المؤكّدات في هذا القسم ارتباط بما جاء على لسان المؤذن من الإيلام وقوة الاتهام (٢) في قوله : (أيتها العير إنكم لسارقون) ، فكان في هذه المؤكّدات ردًّا على ما اشتملت عليه هذه الجملة التي أطلقها المؤذن من المبالغة في الاتهام ، ومجابهة لما فيها من قوة الجرأة على التصرّح به ، وفيها أيضاً دلالة « على ثقة هؤلاء الإخوة في صحة سلوکهم جميعاً ، وأن باطن كل واحد منهم كظاهره ، لا يشكون في كل ذلك مثقال ذرة » (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٥/٢ .

(٢) يرى أستاذنا الدكتور حسن باجوردة (في كتابه : الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، ص ٢١٩) أننا « حينما نتأمل ماجاء على لسان المؤذن فإننا نجده بليناً موجزاً مؤلماً ، فيه صراحة واضحة ، وفيه قوة . إنه يخاطبهم وجهاً لوجه مضمّناً كلامه إن واللام المفيدتين للتوكيد . ولا يخفى أن خبر إن جاء فيه صيغة جمع المذكر السالم ، فكان صفة السرقة لاصقة بكل أفراد القافلة .. » .

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، ص ٢٢٩ .

ولعل من أغراض تلك المؤكّدات التي تعاضدت في كلام الإخوة على النحو الذي سبق بسطه - الإيماء إلى غرابة ذلك الاتهام ، وإلى أنه من الأمور التي تستأهل أن يؤكّد دليلاً نفيها ويلفت إليه في صورة قوية ؛ لأنّ ما ظهر من حال المخاطبين قد دل على أنّهم بمنزلة من ينكر أنّ ما يعلمونه من سلوك المتكلّمين قبل الاتهام يدل على براءتهم وبعدهم عن أن يكونوا كما قيل لهم .

ويمكن أن يكون من أغراض اجتماع تلك العناصر المؤكّدة التعبير عن قوة التعجب الذي أنبأ عنه التاء الداخلة على اسم الحالـة المقسم به ؛ فقد ذكر أكثر اللغويين وأنّ في هذا القسم معنى التعجب ^(١) ، وفسره بعضهم بأنّهم تعجبوا من إضافة الفتياـن السرقة إليـهم مع مـا عـلـمـوا مـن أـمـانـتـهـم وـدـيـنـهـم ^(٢)؛ فـلـسـانـ حـالـهـمـ فيـ هـذـاـ المـقـامـ يـقـولـ : كـيـفـ تـرـمـونـنـاـ بـالـسـرـقـةـ ، وـقـدـ عـلـمـتـمـ مـنـ أـمـانـتـنـاـ وـدـيـنـنـاـ يـدـفعـ هـذـاـ الـاتـهـامـ ؟ـ وـعـلـىـ هـذـاـ فـإـنـ مـاـ أـضـافـتـهـ تـلـكـ المؤـكـدـاتـ إـلـىـ كـلـامـهـمـ مـنـ القـوـةـ يـعـبـرـ -ـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ المعـانـيـ السـابـقـةـ -ـ عـنـ إـظـهـارـ الـمـبـالـغـةـ فـيـ تـعـجـبـهـمـ مـنـ هـذـاـ الـأـمـرـ .

ولعل لاختيار التاء في صورة هذا القسم صلة بما صحب التعجب في هذا السياق من انفعالات أخرى ؛ فلا يخفى ما في الموقف الذي أقسم فيه الإخوة من الشعور بالدهشة والاستغراب ، وشدة الغضب ، فكان التاء التي وردت في القسم المسند إليـهم تعبـرـ عنـ تـلـكـ الانـفـعـالـاتـ الـمـاصـاحـبـةـ لـلـقـسـمـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ لـاـيـكـونـ التـعـبـيرـ بـ(ـ تـالـلـهـ)ـ فـيـ أـسـلـوبـ الـقـسـمـ مـشـيـراـ إـلـىـ تـعـجـبـ الـقـسـمـ مـنـ مـوـقـفـ الـمـخـاطـبـ مـنـ الـقـسـمـ عـلـيـهـ فـحـسبـ ، بل يمكن أن يكون بالإضافة إلى ذلك إظهاراً بجملة من انفعالات المقسم تجاه الموقف القسمـيـ كـلـهـ .ـ وـمـعـنـىـ هـذـاـ أـنـ لـلـقـسـمـ باـسـمـ الـحـالـةـ مـعـ التـاءـ صـلـةـ بـالـمـوـاقـفـ الـقـسـمـيـ ذاتـ العلاقةـ بـكـثـرـةـ الـانـفـعـالـاتـ وـتـعـدـدـهاـ وـقـوـتهاـ .

(١) انظر على سبيل المثال : الكتاب : ٤٩٧/٣ ، وال Kashaf : ٣٣٤/٢ ، و Tafsir al-Biضاوي ، ص ٣٢٠ ، و Tafsir al-Nasafi (ضمن مجمع التفاسير ٤٣٦/٣) ، وال بحر المحيط : ٣٣٠/٥ ، وال سراج المنير : ١٠٣/٢ ، و Tafsir Abu al-Sa'ud : ٢٩٥/٤ ، و روح المعاني : ٢٦/١٣ .

(٢) انظر : Kashaf : ٣٣٤/٢ ، وال بحر : ٣٣٠/٥ ، و روح المعاني : ٢٦/١٣ .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن للأساليب المؤكدة في هذا السياق غرضاً آخر ، وهو إظهار مافي موقف الإخوة من شدة التوتر والانفعال الذي أتاح تكاثر تلك المؤكدات على النحو الذي تم تفصيله .

ولما كان القسم في سياق إثباتات بعد عما نسب إليهم ، وكان جواب هذا القسم مشتملاً على كثير من العناصر المؤكدة لذلك ؛ جاء القسم هنا باسم الجلالة متناسباً مع هذا الغرض ؛ لأنه أكثر تأكيداً وتحقيقاً للمقسم عليه ، فليس ثمة في الوجود حقيقة أكد من وجود الله تعالى ووحدانيته ، فكأن قسم الإخوة بهذا الاسم من أسمائه سبحانه يشير إلى أن علم المخاطبين بكونهم لم يأتوا للإفساد أو السرقة - متيقن لاشك فيه ، كأن المعنى : إنكم لتعلمون ذلك حقاً كما أن الله حق ، وعلى هذا يكون المقسم به مؤكداً للمقسم عليه من جهة دلالته على اليقين .

وثمة معنى آخر يمكن أن تفسر به العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في هذا الموضع ، وذلك أن القسم باسم الجلالة ب خاصة - بما فيه من الدلالة على الوحدانية والتفرد - قد يشير إلى أنهم يريدون أن يؤكدوا أن القوم قد علموا أن مقدمهم إلى مصر إنما كان لغرض واحد ، وهو التزود من خيرات مصر في سنوات الجدب ، ولم يكن لأغراض أخرى كالإفساد في الأرض أو السرقة أو غير ذلك مما يمكن أن يخرج عن ذلك الغرض المعلوم لدى المخاطبين ؛ فأختيار اسم الجلالة في هذا القسم يشير إلى الوجه الذي بنوا عليه تأكيدهم لعلم المخاطبين ، وهو كونهم لم يأتوا إلى مصر إلا لذلك الغرض الواحد ، كأن معنى ذلك : نقسم بالله لقد علمتم أن غرض مجبيتنا لواحد لا ثاني له ، كما أن الله الذي نقسم به واحد لشريك له ، وتقوم العلاقة بين عنصري القسم - وفق هذا المعنى - على ما في المقسم به من دلالة مماثلة لما يراد إثباته في المقسم عليه .

ومن جميع ماسبق اتضحت خصوصيات اختيار العناصر اللغوية المعبر بها في القسم الذي جرى على لسان إخوة يوسف في هذا الموقف ، واتضح أن هذه

الخصوصيات ذات علاقة بالمقسمين ، والمخاطبين ، والمقسم عليه ، والمقام المقسم فيه ،
والسياق الذي ورد فيه القسم .

الموضع الثاني :

قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهاكين » (١) .

هذا قسم آخر صادر من إخوة يوسف عليه السلام (٢) ، يوجهونه إلى أبيهم يعقوب عليه السلام بعد أن أخبروه ب بصير ابنه الأصغر بنiamin شقيق يوسف وما آل إليه أمره ، « وتولى عنهم وقال يا أسفًا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » (٣) ، فعند ذلك (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ...) الآية . وقيل إن الذين قالوا ذلك هم بعض أتباع يعقوب عليه السلام من كانوا عنده في ذلك الوقت (٤) . والأول أقرب إلى سياق القصة : لأن أبناءه هم الذين أخبروه بما صار إليه حال بنiamin ، فتولى عنهم وتأسف على يوسف واشتد حزنه ، فلما رأوا منه ذلك وجهوا إليه هذا القسم .

والمقسم به هنا هو اسم الجلالة مع التاء (تالله) . أما المقسم عليه فهو قولهم : (.. تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهاكين) . أي : لاتزال تذكر يوسف ؛ فحذفت (لا) من جواب القسم وهي مراده - كما يقول المفسرون - لأن خلو الفعل من التأكيد باللام يدل على أن الجواب منفي ؛ لأنه لو كان مثبتاً لدخلته اللام كقولك : والله لآتينك ، فلا يجوز أن يقال : والله آتيك ، والمراد غير النفي ، لأن ترك اللام قرينة إرادة النفي ، إذ المعنى : والله لا آتيك ؛ فلما كان النفي معلوماً في الآية بغير (لا) حذفت اختصاراً ، ونظيره قول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أُبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبرى (ط المعارف) ٢١٩/١٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٤ .

(٤) انظر : روح المعانى ٤٣/١٣ .

وقول بعضهم :

فلا وأبي دهماء زالت عزيزة على قومها مافتَل الزند قادر
والمعنى : لا أُبرح قاعداً ، ولا زالت عزيزة^(١) .

والمرض : الفساد في الجسم والعقل من شدة الحزن أو العشق^(٢) ، وقال الراغب : « المرض : ما لا يعتد به ولا خير فيه . ولذلك يقال لمن أشرف على الهاك : حرض ، قال عز وجل : (.. حتى تكون حرضاً)^(٣) . ومعنى المقسم عليه على هذا التأويل : تالله لاتزال تذكر يوسف حتى يفسد جسمك وعقلك فتصير إلى حال قريبة من الهاك ، أو تكون من الهالكين .

وعلى هذا فهم لا يقسمون لأبيهم على أنه لا يزال يذكر يوسف فحسب ، بل يقسمون على ذلك « باعتبار ما بعده من الغاية ، لأن المقصود من هذا اليمين الإشراق عليه بأنه صائر إلى الهاك بسبب عدم تناصيه مصيبة يوسف - عليه السلام - وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف »^(٤) . ويجوز أن يتعلق بإثبات كونه

(١) انظر على سبيل المثال : معاني القرآن للفراء ٥٤/٢ ، وتأويل مشكل القرآن ص ٢٢٥ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٢٦/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣٤٢/٢ ، ٣٤٣ ، وتفسير الطبرى (ط المعرف) ٢٢١ ، والمزهر في علوم اللغة ١٣١/١ .

وترى الدكتورة بنت الشاطئ ، (في كتابها : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩) أن « تفتأ » تدل في اللغة على معنى الاستمرار بغير « لا » : فهي ليست كال فعل « زال » الذي لا يدل على الاستمرار إلا إذا سبقته « لا » ، وإلا كان فعلاً تماماً بمعنى الزوال نقىض البقاء ، وعلى هذا فهي لا ترى وجهاً لتقدير الحرف قبل « تفتأ » كما ذهب إليه المفسرون في الآية : لأنها تؤدي معنى الاستمرار دون حاجة إلى تقدير محذوف . وليس لها على ما ذهبت إليه دليل أو شاهد من كلام العرب .

(٢) معاني القرآن للفراء ٥٤/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٢٦/٣ ، وتفسير الطبرى (ط المعرف) ٢٢١/٦ .

(٣) مفردات القرآن ، ص ١٦٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٤/١٣ . وانظر في معنى الإشراق : تفسير ابن كثير ٤٨٨/٢ .

لا يزال يذكر يوسف - في معزل عما هو غايته - أغراض ذات صلة بسياق القسم ، وسيأتي بيان ذلك .

وإذا كان قسمهم هنا على أنه لا يزال يذكر يوسف باعتبار ماسينهول إليه حاله لو دام ذكره له ؛ فإن هذه الحقيقة ليست مما يجهله يعقوب عليه السلام أو ينكره ؛ وعليه فإنه لا يحتاج إلى إخباره بها فضلاً عن تأكيدها بالقسم ، وإنما أقسموا على ذلك على خلاف مقتضى الظاهر ، منزلين له ، وهو عالم بهذا الحكم ومقره ، متزلة الجاهل به أو المنكر له ؛ لسر بلاغي ، وهو أنه الاستمرار على ما هو فيه من ذكر يوسف والحزن عليه صار كمن يجهل أو ينكر أن ذلك سيهللkeh ، فأكدوا له ذلك الأمر بالقسم موافقةً لما يلوح بكونه جاهلاً بالقسم عليه أو منكراً له .

والصورة المختارة للقسم هنا هي (تالله) ، وهي صورة يقرن فيها بين اسم الجلاله وتاء القسم ، وسنقف - فيما يلي - على وجه اختيار اسم الجلاله مقسماً به في هذا الموضع ، ثم نقف على دلالة التاء في هذا السياق .

فأما اختيار اسم الجلاله في هذا الموضع لتأكيد المقسم عليه ؛ فهو وارد على سبيل التحقيق ؛ كأن المعنى : تالله الحق الذي لاشك فيه إنك مستمر على تذكر يوسف وحبه حتى يفضي بك ذلك إلى الهلاك ، أي أن ذلك المصير حق كما أن الله الذي نقسم به حق لاشك فيه .

ويمكن أن يكون لاختيار اسم الجلاله في هذا القسم صلة بما أقسم عليه الإخوة من جهة مافيه من دلالة التفرد والوحدانية ، وذلك أن له - من هذه الجهة - علاقة بما ألم به الإخوة من تفرد يوسف واحتضانه من بين إخوته بحب خاص جعل أباهم يعقوب يستمر على ذكره مع ما علم من مصيره ، فالمقسم به يشير إلى معنى مماثل لما في القسم عليه من إشارة الإخوة إلى ذلك الحب الذي انفرد به يوسف ، ولما فيه من الإشارة إلى أن ذلك الحب المبالغ فيه - كما يرون - لا يفضي إلا إلى شيء واحد هو الهلاك .

أما مجيء التاء مع المقسم به فذو صلة بما تقدمت الإشارة إليه من اختصاص هذه الصورة في القسم بزيادة معنى ، وأكثر ما تدل عليه مع القسم التعجب ، ولهذا قل استعمالها في القسم - كما يرى الطيبى - لأن « المقسم عليه بالباء يكون نادر الوقع ، لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه ، ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة ، لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم » (١) . وهذا تعليل لقلة استعمال التاء في أسلوب القسم ، ولا اختصاصها باسم الجلالة في هذا الأسلوب ، نقله ابن عاشور عن الطيبى .

ويلاحظ في نص الطيبى تصريحة بأن اسم الجلالة هو أقوى القسم ، ولعل ذلك يرجع إلى اشتتماله على جميع معاني الأسماء والصفات ، كما يلاحظ فيه ربطه بين قوة القسم بلفظ الجلالة واقتراض التاء به في القسم على الأمور النادرة المتعجب منها ، وهو ربط يؤيده ما يعلم من شأن المعانى النادرة وحاجتها إلى التأكيد أكثر من غيرها ؛ لأن المعنى الشائع المعروف لا يحتاج إلى تقرير أو تثبيت ، كما يحتاج إلى ذلك ماندر وقوعه من المعانى ، أو ما كان مستبعداً غرباً .

وهذا الارتباط بين مجيء القسم باسم الجلالة - بما فيه من قوة التوكيد - والمعانى النادرة ، يفسر بجلاء سر اختصاص التاء - وهي تفيد فيما تفيد التعجب - بدخولها على اسم الجلالة ؛ فهي لا تدخل على غيره ، ولم تأت في القرآن الكريم كله إلا مع اسم الجلالة .

ومجيء التاء في هذا القسم متتسق مع المقسم عليه ، وذلك أنه أمر عجيب وغريب من جهات ؛ فأول ذلك وأظهره في هذا السياق أنهم يتعجبون من ذكر أبيهم يعقوب عليه السلام ليوسف ، على طول العهد بما أخبروه به من مصيره ، فهو في نظر يعقوب عليه السلام - اعتماداً على هذا الإخبار - قد هلك ، فكيف يظل يذكره على هذا النحو مع ماعلم من شأنه ؟ !

(١) انظر : التحرير والتنوير ٤٣/١٣ .

ثم إن هؤلاء الإخوة يعنون في هذا التعجب بناءً على ما في أنفسهم من اليقين بأنه هالك لا محالة ؛ إذ كيف ينجو طفل صغير من ذلك الجب الذي ألقوه فيه ، فالمعنى المقصود عليه غريب أيضاً لدى المسمى من جهة ترتب الحكم بغرابة استمراره على ذكر يوسف - على ما وقر في نفوسهم من تحقق هلاك من هو في مثل ظروف أخيهم يوسف .

وفي استعمال التاء أيضاً دلالة تعجب واستبعاد من سياق ذكر يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - وذلك أن هذا القسم قد وجده من الإخوة إلى أبيهم بعد أن أخبروه بما آلت إليه حال بنيامين وأخيهم الأكبر فذكره ليوسف في قوله : (يا أسفًا على يوسف) لم يكن متوقعاً في هذا السياق ؛ فهم - كما يقول أستاذنا الدكتور حسن باجودة - « ... يتتعجبون من ذكر يعقوب العقيم ليوسف ، وانتقاله المفاجئ إليه وهو الذي مضى على غيابه سنوات وسنوات .

وكان من الجائز في اعتقادهم أن يذكر بنيامين والأخ الأكبر حديثي عهد بالفارق ، وأن يستتبعه حزن معقول عليهم أو على أحدهما ، وليس هذا الحزن الذي لا يعرف له نظير » (١) .

والباء في هذا السياق تنقل أيضاً موقف المتكلمين من هذا التذكر العجيب الغريب ، وحيرتهم وشدة دهشتهم لما يرونـه من حال أبيهم ، مما يزيدـه طول العهد إلا تقادياً فيما هو فيه من محبة يوسف والحزن عليه ، وفي هذا الموقف من الإخوة تمثل مجموعة من الانفعالات النفسية التي يمكن أن تتحول في خواطـرهم وهم يـنظـقـونـ بهاـذاـ القـسـمـ : (تـالـلـهـ تـفـتـأـ تـذـكـرـ يـوسـفـ حـتـىـ تـكـوـنـ حـرـضاـ أـوـ تـكـوـنـ مـنـ الـهـالـكـينـ) ، فـفيـ هـذـاـ الـخـطـابـ اـسـغـرـابـ ، وـاسـبـعـادـ ، وـدـهـشـةـ ، وـإـشـفـاقـ ، وـتـحـسـرـ عـلـىـ اـسـتـمـارـ هـذـاـ الـحـبـ ، وـلـاـيـسـتـبـعـدـ مـطـلـقاـ أـنـ يـكـوـنـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ هـنـاكـ شـعـورـ بـالـنـقـمةـ عـلـىـ هـذـاـ

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ، ص ٣٠٨ .

الشخص [يوسف] ، السبب الأول لكل هذه المنففات » (١) .

وهذا يعني أن تاء القسم تأتي للتعبير عن كثير من المعاني الانفعالية ، وأنها - كما ذكر النحويون - تفيد زيادة معنى على القسم ، فهي - وإن كانت تأتي غالباً مع الأمر المتعجب منه - إلا أن هذا الأمر المتعجب منه يشير في النفس ردود فعل متعددة تفهم من السياق ، ولهذا نرى أن التاء يعبر بها في القسم الذي يجريه قائله على سبيل التعبير عن مواقف خاصة ، وانفعالات معينة ، تجاه الأمر المقصوم عليه .

ولما كان القسم هنا على أمر غريب - من الجهات التي بينت - جاءت العناصر اللغوية في هذا القسم معبرة عن هذه الغرابة التي تضمنها السياق القسمي ، وانتلت الألفاظ المختارة في جملتي القسم والجواب مع المعنى المعتبر عنه : فقد جيء من كل باب بأغرب صيغه التي يتضمنها السياق ؛ وذلك واضح فيما لحظه ابن أبي الإصبع من أنه « سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم إلى أخواتها ، فإن والله وبالله أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من تالله ، لما كان الفعل الذيجاور القسم أغرب الصيغ التي في بابه ، فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من تفتأ ، وأعرف عند الكافة ، ولذلك أتى بعدهما بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة ، وهي لفظة (حرض) ، ولما أراد غير ذلك قال في غير هذا الموضوع : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) (٢) ، لما كانت جميع الألفاظ مستعملة وعلى هذا فقس » (٣) أي « لما كانت جميع ألفاظ هذا الكلام

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام (٣٠٨) .

(٢) هذا جزء من آيات متعددة وردت في الموضع التالية : سورة الأنعام ، الآية ١٠٩ ، وسورة النحل ، الآية ٣٨ ، وسورة النور ، الآية ٣٥ ، وسورة فاطر ، الآية ٤٢ . ولعل المصنف قد أشار بهذا الجزء إلى جميع هذه الموضع لأن جميع ألفاظها مستعملة مشهورة ، لا كما ظنه محقق كتابي ابن أبي الإصبع ، إذ لم يشر إلا إلى آية فاطر . (انظر : المصدرین اللاحقین) .

(٣) تحرير التعبير ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، وبدیع القرآن ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، وانظر : إعجاز القرآن البیانی ، د/ حفني شرف ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

المجاورة لهذا القسم كلها مستعملة متداولة ؛ لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة ما يشاكلها في الغرابة ويلاثمها ^(١) كما هو الحال في قسم إخوة يوسف .

ومعنى هذا أن حسن الوضع في النظم قد اقتضى « أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيًا لحسن الجوار ، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم » ^(٢) .

ومن هذا يتضح التناوب التام بين عناصر الأسلوب وتعاضدها في أداء المعنى المشاكل لها ؛ فقد تراشت هذه الألفاظ الغريبة في سياق إثبات غرابة صنيع يعقوب عليه السلام ، وتعجب أبنائه منه ، وهو المقسم عليه هنا ، ويتبين من هذا أيضًا وجه من وجوه التناوب بين القسم والجواب .

وقد أشار بعض الباحثين المحدثين ، وهو الأستاذ عبدالكريم الخطيب إلى قيمة النظم في المؤاخاة بين هذه الألفاظ الثلاثة : (تالله ، تفتأ ، حرضاً) ، وذكر أنها ألفاظ ثقيلة خارج النظم : « ولو أن كلمة واحدة منها دخلت بين أرق الكلام وأسلسه لذهبت برونقه ، وخرجت به عن سلاسته ورقته إلى غرابة غريبة وخشونة موحشة . ولكن القرآن جاء بها في هذا الإطار المحدود من النظم ومع ذلك فهي ماهي خفة سلاسة واتساقاً » ^(٣) .

ثم ذكر الأستاذ الخطيب أن المتكلم لو أراد أن يتخير صورة من الكلام ليؤدي بها هذا المعنى ، ل كانت هذه الكلمات أبعد من أن يتخيرها ؛ لأن له في حروف القسم غنىً عن التاء ، وفي أفعال الاستمرار منئًا عن (تفتأ) ، وفي ألفاظ الهلاك مخرجاً عن (حرضاً) ، ولكان له من كل باب ما يرده عن غرابة هذه الألفاظ ^(٤) ، « ولأن القرآن

(١) بديع القرآن ، ص ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) إعجاز القرآن ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

قد تخير عن عمد هذه الكلمات الثلاث وجاء بها من أجل ثقلها ليقيم منها شاهداً من شواهد إعجازه ، وليؤذن في آذان الثقلين أنه يقيم من المستحيلات مكنات ، ويجعل من أبناء العلات أشقاء . . . »^(١) .

وذهب الأستاذ الخطيب إلى مثل ذلك في تتابع التاءات الثلاث في أوائل الكلمات : (تالله ، تفتأ ، تذكر) وعلق عليه بقوله : « لو وقعت هكذا متتابعة في أرق الكلام وأملحه لشلل وسمج ولخرج من باب البلاغة جملة . . . ولكنها - هكذا - في نظم القرآن . . . سرب حسان . . . استمع إلى هذه الموسيقى المتداقة منها تدفق السيل الهادر في لجة البحر العميق »^(٢) .

وكما كانت غرابة تلك الألفاظ المختارة في القسم مشاكلاً للمعنى الغريب الذي عبرت عنه ؛ كان هذا الجرس الصوتي الخاص الذي يمثله تكرار هذه التاءات فيها دالاً على الموقف الخاص الذي ورد فيه القسم ؛ وذلك - كما شرحه الأستاذ الخطيب - أن التاء « من المحرف المتفجرة ، وإذا كانت مفتوحة اتسعت رقعة انفجارها . . . فإذا وقع بعدها سكون كان هو القرار الذي يمسك هذا الدوي الحادث من التفجير (تل . . . تف . . . تذ) ولا تجد في الكلام أوضح وأصدق من هذه الصورة التي التقظتها هذه الكلمات الثلاث للموقف المتأزم بين يعقوب وأبنائه . بعد أن فعلوا فعلتهم بيوسف ! »^(٣) .

والجرس الصوتي في هذه الآية يصور أيضاً تلك المحاولات المتكررة التي يقوم بها هؤلاء الأبناء لثنى أبيهم عن ذكر يوسف ؛ فإنك ترى هذه الصورة في تتابع صوت التاء وتكراره في هذه الآية سبع مرات ، وبخاصة في تكراره في الكلمات الثلاث الأولى أربع مرات : (تالله تفتأ تذكر) ؛ لأن تجدد الانتقال من التاء وإليها في هذا الحيز القليل من الجملة يصور تجدد تلك المحاولات منهم وتكرارها ، وكذلك الحال في

(١) إعجاز القرآن، ص ٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٣ .

تكرار الحرف في الآية كلها سبع مرات ، كما يصور هذا التتابع ما عبر عنه أبناء يعقوب من تجدد تذكر أبيهم ليوسف واستمراره عليه ، ومعاودته له مرة بعد مرة ؛ ألا ترى كيف بدأوا في الجملة المعبرة عن ذلك بكلمة مفتتحة بالباء : (تالله) ثم رجعوا إلى مخرج الباء في أول (تفتأ) ثم لم يلبثوا أن عادوا إليه في آخرها بعد الفاء الساكنة ، ثم كرروا ذلك في (تذكر) وفي الكلمات : (حتى - تكون - أو تكون) ؛ فهذه الصورة الصوتية تنقل المعنى الذي أريد في هذا السياق من جهة المتكلم والمخاطب معاً .

وثمة معنى آخر ينبع عنه هذا التكرار المتتابع لصوت واحد ، وذلك أن فيه تعبيراً عن تضجر إخوة يوسف من دوام ذكر أبيهم ليوسف ، وهو ما يحاولون إخفاؤه منذ زمن ، وتضجرهم كذلك من عدم تحقق ما يريدونه من إخفاء يوسف وإبعاده ، إذ لا يزال أبوهم يعقوب عليه السلام على حبه ، بل ازداد تعلقه به ، وهذه الحركة النفسية تتوارى في المدرس الذي تمثله هذه الأصوات في تتابعها وتكرارها الذي وردت عليه ، في نغم يكاد ينطلق بتأففهم وضيقهم مما هو فيه من الإقامة على تذكر يوسف ، كما يصور شدة خوفهم من بقاء هذا التذكر ورغبتهم في أن ينتهيوا عنه ، ولا يخفى مافي تكرار صوت واحد - على النحو الذي جرى على لسانهم - من الإيحاء بالملل والتضجر المناسب لحال المقسمين .

وبهذا ندرك بعضاً مما أفاده هذا المدرس الصوتي الخاص في سياق هذا القسم ، وقيمه في تصوير بعض المعاني المتصلة به ، وعلى هذا فقد روعي في اختيار هذه الألفاظ المناسبة بين أصواتها ومعانيها ، بالإضافة إلى مناسبتها من جهة غرائبها في بابها للمعنى المراد إثباته في هذا القسم .

ومن جميع ما سبق اتضح وجه مجيء التأكيد القسمي في هذا الموضع ، ومناسبته حال المخاطب والمتكلم ، ومناسبة صورته التي تجمع بين اسم الحالة وباء القسم للمقسم ، والمقسم له ، ومقام القسم ، وتلاؤم العناصر اللغوية المعبر بها فيه مع

الدلالات المراده في هذا السياق ، من جهة اختيار الكلمات والأصوات المناسبة لها ،
ولايزال في الآية مواضع نظر لم تتأمل ولكن فيما ذكر ما يشير إلى نهج يتبع وطريقة
تحتذى لتحصيل مالم يذكر .

الموضع الثالث :

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَالِلَّهِ لَقَدْ أَثْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَا لَخَاطِئِينَ﴾ (١) .

هذا قسم محكي أيضاً عن إخوة يوسف عليه السلام ، ويأتي في سياق الجزء الأخير من قصة يوسف ، وهو ذلك الجزء الذي يبدأ بكيد يوسف لإخوته ليأخذ أخيه بنiamin عنده . ويرد القسم هنا من إخوة يوسف بعد أن انكشف أمر العزيز وعرفوا أنه يوسف عليه السلام ، وذلك حين ﴿قَالُوا أَعْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهُدْ أَخِيْ قَدْ مَنَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَقَبَّلُ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَالِلَّهِ لَقَدْ أَثْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تُشْرِبُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢) .

و واضح من الآيات أنهم وجهوا هذا الخطاب إلى أخيهم يوسف يقسمون له فيه على أن الله تعالى قد فضلهم عليهم ، وقد قال المفسرون إنهم أرادوا مفضله الله به عليهم من العلم والتقوى والملك والحلم والصبر والصفح وسيرة المحسنين ، وغير ذلك مما آثره الله به عليهم ، وقيل إن من ذلك النبوة، وهذا عند من لا يرى أنهم أنبياء أيضاً ، وفي نبوتهم خلاف (٣) . ويقسمون - بالإضافة إلى ذلك - على أنهم كانوا مذنبين في حقه .

وقد ورد في هذا الموضع بالإضافة إلى القسم باسم الجلالة - وهو أعظم القسم - التأكيد باللام وقد في قولهم : (لَقَدْ أَثْرَكَ ...)، وبيان المخفة من الثقلة واسمية الجملة، ودخول اللام في خبرها في قولهم : (وَإِنْ كُنَا لَخَاطِئِينَ) ، والمؤكدات لاتتعاضد على هذا النحو إلا إذا كان الكلام في سياق إثبات قضية ينكرها المخاطب ، أو يلوح

(١) سورة يوسف ، الآية ٩١ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات ٩٠ - ٩٢ .

(٣) انظر : تفسير الطبرى (ط المعارف) ٢٤٥/١٦ ، وتفسير البغوى ٤٤٧/٢ ، والكساف ٣٤٢/٢ ،

وزاد المسير ٢٨٢/٤ ، والتفسير الكبير ٢٠٤/١٨ ، ٢٠٥ .

من حاله ما يدعوه إلى التأكيد وإن لم يكن منكراً لها ، والقضية التي يراد إثباتها هنا ليست مما يحتاج إلى تأكيده عند المخاطب ، لأن يوسف عليه السلام أعلم بما آتاه الله من فضل ، ثم هو أكثر علماً بالحكم بكونهم خاطئين ؛ فهو الذي تحمل تبعات ماصنعوا ، فما الغرض إذاً من هذا القسم ومن تلك المؤكّدات التي احتشدت في هذا الخطاب ؟

إن التأمل يهدي إلى أن المؤكّدات في هذا المقام لم ترد لتأكيد المقسم عليه للمخاطب ، بل لتأكيد ماتضمنه المقسم عليه من الاعتراف بالذنب ، والندم عليه ، والتوبة منه ، والاعتذار عنه ، والاستغفار وطلب الصفح والإحسان ، وقد ذكر المفسرون ^(١) أن هذه المعاني مستفادة من قولهم : (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا خاطئين) ، وهي معانٍ تحرّكت في نفوس هؤلاء المقسمين في تلك اللحظة التي تجلّى لهم فيها كثير ما آثر الله به يوسف عليهم ، وتجلّى لهم فيها مقدار ما ارتكبوه من ذنوب ؛ فجاءت هذه المؤكّدات معربة عن هذه المعاني ، ومبينة عن عمقها في تلك النفوس .

وعلى هذا فإن لهذه المؤكّدات قيمة في إيجاز الانفعالات النفسية ، والمشاعر المتوارية في صدور المتكلمين ؛ فهذه العناصر المؤكّدة قائمة مقام التصريح بجمل متعددة تعبّر كل منها عن واحد من تلك المعاني المضمرة في نفوسهم . كما أن لهذه المؤكّدات قيمة في تصوير تلك المعاني كما هي في نفوس المتكلمين ؛ وذلك أنهم في هذا المقام قد أدركوا من إيشار الله تعالى ليوسف مالم يدركونه من قبل ، واستيقنته أنفسهم ؛ فجرى في كلامهم الإفصاح عنه في أقوى صور التأكيد ، كما أتيقنته نفوسهم ثم أقرّوا بكونهم مذنبين في صورة مؤكّدة أيضاً ؛ لأنهم لم يشعروا ب بشاعة جرمهم من قبل كما شعروا بها في تلك اللحظة ، ولم يستيقنوا خطأهم كما استيقنوه في ذلك الموقف ؛ فجاء الإفصاح عنه مصرياً به في أقوى مظاهر التأكيد .

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢٥٧/٩ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ص ١٢٧ ، وتفسير أبي السعود ٤/٣٠٤ .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن هذه المؤكّدات المعدودة قد حققت في السياق صفة الإيجاز ، ولا تزال تحمل من المعاني ما هو جدير بالبحث والتأمل ، لما فيها من غنى تظل معه الكلمات والأدوات ذات تجدد مستمر ، يجعل البلاغة حية لا تفتأً تنطق من استنطاقها .

ونذكر على سبيل المثال معنى من تلك المعاني التي لا تزال ترد على المتأمل وتشغل عقله وقلبه ، وهو يتبع تكاثر أساليب التوكيد في هذه الآية ، وذلك أن التأكيد هنا يشمل أمرين هما : إيثار الله تعالى ليوسف عليهم ، وكونهم خاطئين فيما سلف ؛ فتأكيد الأمر الأول فيه إظهار مقدار الوضوح الذي كانت عليه قضية التفضيل ، ابتداء من اختصاص يوسف بزيادة محبة أبيه ، وانتهاء بما يشاهدونه مما أنعم الله به عليه من السلطان والعزة وكريم الخصال ، فهم يؤكّدون لأنفسهم أن ذلك كان أمراً واضحاً يوجب على من تأمله أن يرعى حق صاحبه وأن يفعل غير مافعلوا ، ويؤكّدون أيضاً أن هذا الأمر قد أصبح حقيقة ثابتة لا يفيد الاعتراض عليها .

و « يمتد هذا الاعتراف ليشمل في شيء كبير من لوم الإخوة لأنفسهم وتأنيب ضمائرهم لهم ، الماضي بعيد جداً . وإن لسان حالهم ليقول : لقد كان الأولى بنا ونحن عصبة من الرجال ، يجب أن يعدل بعضاً ، أن نفهم في اقتناع ، بأن محبة يعقوب والدنا الفائقة ليوسف بالذات ، قدر من الله تعالى عليه ، لا يلي له فيه ولا قدرة له على دفعه ، خاصة وأن أباًنا ، فيما له قدرة عليه ، الغاية في العدل بيننا جميعاً . »

إنها لزلة الأبد ، أن نتورط ، ونحن عصبة من الرجال ، في جعل غلام صغير في غيابة الجب ، إنه عمل مخز » (١) .

أما الأمر الثاني وهو اعترافهم الصريح بالخطأ في قولهم : (وإن كنا خاطئين)

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ، لأستاذنا الدكتور حسن باجودة ، ص ٣٣٤ .

فإنهم أظهروه في صورة مؤكدة وجعلوه - بالإضافة إلى ذلك - جزءاً من المقسم عليه ، لبيان أن مافعلوه قد كان خطأً محضاليس فيه أدنى صواب ، وأنهم كان ينبغي أن يفطنوا إلى ذلك لأن الحكم بكونه ذنباً في غاية الظهور والوضوح بحيث يتيسر لكل أحد ، فكيف خفي ذلك عليهم ، وهم من هم في التحرز من مجرد الشبهة ؟ وكيف خفي عليهم جميعاً ولم يتتبه إليه منهم أحد ؟ بل كيف فعلوه على سبيل القصد والعمد ؟ وتناسباً مع هذا المعنى عبروا عن وقوعهم في هذا الأمر بكلمة (خاطئين) وهي من خطيء يخطأ إذا تعمد الخطأ وقصده ، ولم يقولوا (مخطئين) : لأنها من خطأ يخطئ إذا لم يتعمد الخطأ بمعنى أنه قصد الصواب ولم يتيسر له (۱) . كل ذلك، وغيره مما يطول تأمله ، مستفاد من تعاضد تلك المؤكdas في السياق ، واتحادها مع دلالة التوكيد القسمي .

ولا يخفى ما في الموقف القسمي في هذا الموضع من بواعث التعجب التي اتضحت

(۱) فرق بين خطيء وأخطأ كثير من اللغويين والمفسرين على النحو الذي بيته هنا : انظر على سبيل المثال : (إعراب القرآن للنحاس ٣٤٤ / ٢ ، وتفسیر البغوي ٤٤٧ / ٢ ، ومفردات القرآن ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، والتفسير الكبير ١٨ / ٢٠٥ ، وتفسیر القرطبي ٩ / ٢٥٧) . غير أن أبي عبيدة قد ذكر أنهما بمعنى واحد ، ولم أقف على ذلك عند غيره . (انظر : مجاز القرآن ١ / ٣١٨) .

وما هو جدير بالتنبيه هنا أن بعض العلماء قد ذهب إلى أن مجيء (خاطئين) إنما كان لموافقة رأس الآية لما قبلها . (انظر : زاد المسير ٤ / ٢٨٢) .

وليس الأمر كما ذكر : لأن ورود هذه الصيغة لم يكن مجرد موافقة رؤوس الآيات ، بل لما فيها من معنى القصد والعمد ، وهو معنى يطلبه السياق ، فمجيء الكلمة على هذا النحو إنما كان مقتضى اقتضاه حرص المتكلمين على إظهار العمد في سياق التوراة والندم على ما صنعوا .

أما موافقة رؤوس الآي فأمر برأي كثير من القدماء والمحدثين لتفسير بعض وجوه التركيب التي تقتضي ورود الفاصلة على نسق خاص ، والأولى منه أن تتجه الجهد أولًا إلى تفسير بلاغة تلك التراكيب ذات الصلة بموضع الفاصلة ، ثم يشار إلى التوافق بين الوفاء بمتطلبات السياق والوفاء بوحدة الفاصلة ، بوصفه خاصية بارزة من خصائص هذا الكتاب العزيز .

لنا بعض منها في تفسير تواتر المؤكّدات في هذا السياق ، ويسبب من ذلك جاءت التاء مع لفظ الجملة في القسم ؛ فازرت تلك الدلالات التي حركتها في السياق وسائل التأكيد المتعددة ، والتاء - كما سبق بيانه - يكون معها زيادة معنى بخلاف غيرها من أدوات القسم ، غالباً ما يكون هذا المعنى هو التعجب ؛ « قال الرمانى : لأنها لما كانت نادرة في أدوات القسم جعلت للنادر من المعاني ، والنادر من المعاني يتعجب منه »^(١) ، وكلما كانت المعاني المعبّر عنها أبعد وأغرب كانت إلى التأكيد أخرج ، ولهذا يحسن في سياقها التأكيد القسمى الذي يفيد التعجب .

ويمكن أن نقف من السياق على كثير من المعاني النادرة التي ورد لأجلها القسم في صياغة تعجبية مؤكدة غاية التأكيد ؛ فبالإضافة إلى ما عرف من ذلك في بيان سر التأكيد القسمى وأغراض التأكيد المصاحب له ، فإننا نرى أن قول إخوة يوسف : (تالله لقد آثرك الله علينا) يشير - مع كونه اعترافاً له بالفضل - إلى قدر غير يسير من التعجب والاستغراب والاستبعاد في آن ؛ ففيه تعجب واستغراب من نجاته من ذلك الكيد الذي لا يكاد ينجو منه أحد ، وقد كانوا يستبعدون ذلك كل البعد .

وفي ذلك أيضاً تعجب واستغراب من الفرق الكبير بين ما كان متوقعاً في مثله وما صار إليه حاله ؛ وإنه لأمر عجيب وبعيد كل البعد أن ينجو من كان في عداد الهالكين ، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى أن يكون عزيز مصر ، ثم ماذا ؟ ثم يكونون فيمن يسألونه ويذلّلون بين يديه ، ثم ماذا ؟ ثم يهيمون عليهم بكيده المحكم ليأخذ أخاه في دين الملك ، ثم ماذا ؟ ثم يعودون إليه يستعطفونه ويستجدون عونه وعطيته ، أليس ذلك عجيباً في مثل قصتهم مع أخيهم يوسف ؟ ! .

وفيه أيضاً تعجب من عدم تنبّههم إلى ما اختص الله به أخاهم يوسف ، وكأنهم يقولون : إن من العجيب والبعيد أننا - ونحن أبناء يعقوب نبي الله - لم نتنبه لما يختص الله به بعض عباده ؛ فنعتد به ، فلا نفعل ما فعلنا ! .

(١) نظم الدرر ١٧٠/١٠ . نقله عن الرمانى ولم أجده في مظانه .

ومن ناحية أخرى فإن في المقسم عليه في قولهم : (وإن كنا لخاطئين) وجوهاً من التعجب والاستنكار لما صدر عنهم زمن جهلهم وطيشهم ، وكأنهم يقولون : إنه لأمر عجيب حقاً أن يوجد مثل هذا الصنيع المخزي ، أليس من الغريب والبعيد أن يترك إخوة أخاهم - وهو طفل صغير - في ذلك الجب معرضاً للهلاك والموت ؟! ألا يستغرب ذلك الخطأ الواضح لكل أحد ؟! فكيف به وقد وقع منا نحن أبناء يعقوب عليه السلام ، وكأنه لم يكن واضحاً جلياً ؟! وهذا معنى غير مسبق لإثباته في تفسير تأكيد هذا الجزء من المقسم عليه ، وهو كمن يفعل سوءاً بجهالة ثم يندم عليه ويتب منه ؛ فيظهر بعد ذلك تعجبه من حاله قبل أن يثوب إلى رشده ، ويدل على أنهم رجعوا إلى رشدهم بعد أن كانوا جاهلين قول الله تعالى حكاية عن يوسف قبل هذا القسم : « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » (١) .

وتأمل صلة مجيء القسم بالثناء في سياق الإيماء إلى نجاته من كيدهم ونجاده في كيده إياهم ؛ فلهذا النسق من التعبير صلة بما في الكيد من الاحتياج إلى الحيل العجيبة والفكر النادر ، وتتجذر في سياق هذا القسم الإشارة اللافتة إلى ذلك الكيد الذي نجا منه يوسف ، وإلى ذلك الكيد الذي استعمله يوسف في استبقاء أخيه عنده ، وانتصاره عليهم بذلك ، إذ قابل الكيد بكيد مثله . وقد مهدت الآيات في هذه السورة لجيء كيد الإخوة لأخيهم في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : « قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين » (٢) ، وصرحت الآيات في هذه السورة أيضاً بأن فعل يوسف في أخذ أخيه إنما كان بضرب من الكيد ، قال تعالى : « فبدأ بأوعيتم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخيه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » (٣) .

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٧٦ .

وواضح في الآية الثانية خاصة - آية وصف كيد يوسف - الربط بين هذا الكيد ومشيئة الله تعالى، وإيشاره لبعض خلقه ورفعه لمن يشاء درجات ، وذلك بعض ما أشار إليه الإخوة في قولهم : (تالله لقد آثرك الله علينا) ، فلما كان هذا الكيد مما تضمنه القسم بوصفه إيثاراً من الله تعالى ليوسف ، وكان مضمداً فيه أيضاً كونه ردأ على الكيد السابق الحاصل من إخوته، وكان السياق كله متضمناً التصریح بالكیدین ، ثم التلمیح بهما في صورة تفضیل أحدهما على الآخر ، ونسبة هذا التفضیل إلى الله تعالى ، وكان في كل منهما ما هو حقيقة بأن يتعجب منه ، وفي سياق القسم مثل ذلك من المعانی النادرة ، لما كان جميع ذلك جاء القسم على النسق الذي هو عليه من استعمال تاء القسم ، والتعبير باسم الجلالۃ ، وبناء المقسم عليه على صورة التفضیل والاستعلاء : (تالله لقد آثرك الله علينا) ، وهذا وجه من وجوه النظر في بناء الأسالیب حقيقة بالتأمل .

وнтوجه الآن إلى المقسم به الذي اختير في هذا القسم، وهو اسم الجلالۃ سبحانہ ، لنقف على بعض خصوصيات القسم به في هذا السياق ، ومعلوم أن المؤمن لا يقسم إلا بالله عز وجل ، ولكننا نبحث هنا عن خصوصية اختيار هذا الاسم الكريم من بين أسمائه تعالى التي كان يمكن أن يقسموا بواحد منها دون أن يقعوا في المحظور .

وبالتأمل في هذا الموضوع نجد أن اسم الجلالۃ أنساب شيء للقسم عليه ؛ وذلك أنهم أقسموا على أن الله تعالى قد فضل يوسف عليهم ، ونسبوا هذا الفضل إلى الله عز وجل ، فلما أقسموا على أمر هو مما اختص الله به ، وأثبتوا فضلاً لأخيهم لا يليبه إلا الله تعالى، ناسب أن يقسموا بالاسم الذي يختص به سبحانه ولا يطلق على غيره ؛ اعتناء بإخلاص نسبة المقسم عليه إليه سبحانه ، ولهذا تكرر ذكر هذا الاسم الكريم في سياق هذا القسم مرتين ، وهو مما زاد الصلة بين عنصري القسم .

ومن ناحية أخرى فإن هذا الاسم الكريم يتضمن الدلالة على التوحيد والتفرد في الصفات ، فباء القسم به مشيراً إلى تفرد يوسف عليه السلام واحتصاصه من بينهم

بها الفضل ، فلا يشاركه فيه أحد ، وكأنهم يقولون : لقد تفردت بهذا الأمر كما أن الله واحد متفرد بالألوهية وصفات الكمال ، فأنت في هذا الفضل واحد بلا منازع . ونضيف إلى ما سبق أن إخوة يوسف لم يكن يتهموا لهم أن يقسموا في هذا المقام ، وقد رأوا برهان ذلك التفضيل والإيثار ، إلا بالاسم المختص به تعالى .

فذكر اسم الجلالة في هذا السياق إذاً يوطئ لما في المقسم عليه من أمور ذات علاقة بمعاني هذا الاسم العظيم ، على اختلاف وجوه العلاقة بين هذه الأمور وتلك المعاني المتحققة بذكر هذا الاسم من اسمائه سبحانه .

وبهذا نكون قد وقفنا فيما سبق على الغرض من ورود القسم واشتعمال المقسم عليه على قدر كبير من المؤكdas ، وقيمة هذه المؤكdas في تصوير المعاني التي تضمنها الكلام ، وفي الإفصاح عن الانفعالات النفسية والمشاعر المتواربة في السياق ، ودقة اختيار عناصر القسم : ابتداء بالأداة المختاراة وهي التاء ، والمقسم به ، ومناسبة ذلك كله لموضوع القسم المراد إثباته وتأكيده به ، وانتهاءً بالنسق الخاص الذي ورد عليه المقسم عليه المؤكـد بهذا القسم .

الموضع الرابع :

قوله تعالى : « قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم » (١) .

الذين قالوا هذا القول هم « الذين قال لهم يعقوب من ولده : ... إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » (٢) . وقيل : إن الذين قالوا له هذا القول هم بنو بنيه؛ لأن بنيه كانوا بمصر (٤) . والأقرب كونه من مقول إخوة يوسف عليه السلام؛ فهم مهئون مثل هذا القول كما هو واضح من سياق القصة وترتب أحداثها بعضها على بعض ، ثم إن أحفاد يعقوب عليه السلام - بالإضافة إلى كونهم بعيدين كل البعد عن أن يصدر عنهم مثل هذا القول - لم يرد ذكرهم في القصة كلها ، ولم يتعلّق شيء من أحداثها بهم .

وهم يقسمون هنا لأبيهم على أنه في زلله وخطئه القديم وذهابه عن الصواب في محبته ليوسف وذكره له لا ينساه ولا يتسلى عنه (٥) : (إنك لفي ضلالك القديم) . « وفي معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال : أحدها : أنه يعني الخطأ ... والثاني : أنه الجنون ... والثالث : أنه الشقاء والعناء » (٦) .

وهذه حقيقة عندهم ؛ فهم يرون أن هذا الضرب من الحب والذكر الذي يبلغ مبلغاً يجعله يقول : (... إني لأجد ريح يوسف) - في ضوء ما يعلموه من مصير

(١) سورة يوسف ، الآية ٩٥ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٩٤ .

(٣) تفسير الطبرى (ط المعرف) ٢٥٦/١٦ . وانظر : تفسير ابن كثير ٤٩٠/٢ ، والبحر المحيط ٣٤٥/٥ .

(٤) انظر : زاد المسير ٤/٢٨٥ .

(٥) انظر : تفسير الطبرى (ط المعرف) ٢٥٦/١٦ ، ٢٥٧ ، وتفسير البغوى ٤٤٨/٢ ، وال Kashaf ٣٤٣/٢ ، وتفسير ابن كثير ٤٩٠/٢ ، والبحر المحيط ٣٤٥/٥ .

(٦) زاد المسير ٤/٢٨٦ ، ٢٨٥ .

يوسف - (١) ماهو إلا ضلال من جنس ذلك الضلال الذي كان فيه منذ القدم ، أي منذ أن (مات يوسف) - كما هو في ظنهم - إلى أن قال لهم هذا القول .

ولقد بلغ هذا الأمر من نفوسهم حداً وطأ لمجيء هذا الخطاب على لسانهم مشتملاً على كثير من ضروب التأكيد والتوثيق والبالغة في إثباته ، وقد تمثل ذلك في كونهم يقسمون عليه أولاً ، ثم في إظهارهم المقسم عليه في صورة مؤكدة بإن وفي خبرها اللام ، ثم في جعل الضلال متلبساً به فهو (فيه) : (إنك لفي ضلالك) على سبيل الاستعارة التبعية ، ثم في إضافة هذا الضلال إليه في قولهم : (ضلالك) تعبيراً عن كونه ضلالاً خاصاً به ، لا نظير له ، ولا مزيد عليه ، فهو له وحده لا ينافسه فيه منافس ، وبالغة في الصاق هذا الحكم به ، ثم ذكروا ما يشير إلى كونه عريقاً في هذا الأمر فهو فيه راسخ منذ زمن بعيد ، وذلك وصفهم للضلال بالقدم .

فهذه المؤكّدات تصوّر ما وقر في نفوس هؤلاء الإخوة منذ زمن طويل ، وما استشعرته أنفسهم من اليقين بما أصبح عندهم حقيقة راسخة لاتقبل الشك ، بعد أن سمعوا مقالة أبيهم الأخيرة ؛ وكأنهم يقولون : لقد كنا نعد حبك ليوسف وتفضيلك إياه وأخاك علينا ضلالاً مبيناً يوم أن قلنا : «... ليوسف وأخوه أحب إلى أبيينا منا ونحن عصبة إن أباينا لفي ضلال مبين» (٢) ثم رأينا مثل ذلك عند تذكرك ليوسف واستمرار ذلك منك بعد فقده ، وذلك يوم أن قلنا : «تالله تفتاً تذكر يوسف...» (٣) ، ولكننا اليوم قد تأكدنا - بعد أن سمعنا مقالتك - بما لا يدع مجالاً للشك أنك لاتزال في ضلالك القديم .

ومن هذا يتضح أنهم لم يؤكّدوا هذا الخبر لكونه مما يحتاج إلى ذلك عند المخاطب

(١) قال البغوي (في تفسيره ٤٤٨/٢) : «فإن عندهم أن يوسف قد مات ويررون بعcorp قد لهج بذكرة» .
ومثله في الكشاف ٣٤٣/٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٨ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

بل أكدواه احتفالاً به، وتبیاناً لکانه من نفوسهم، وإظهاراً لمقدار رسوخه عندهم؛ فجريان هذا الأمر على لسانهم مؤكداً بكل تلك المؤكّدات يحكي ما وقع في أنفسهم من اليقين المطلق بضلاله وذهابه عن الصواب.

ويأتي هذا التأكيد -في الوقت نفسه- مقابلاً للتأكيد الذي جاء في كلام يعقوب عليه السلام لهم؛ فقد ذكر لهم أنه يجد ريح يوسف -في صورة مؤكدة : (.. إنني لأجد ريح يوسف) ، فما كان منهم - لما يعلمونه من أمر يوسف - إلا أن أكدوا أنه لا يزال في ضلاله القديم ، وأن هذا الأمر قد أصبح - بما جرى على لسانه من تأكيد كونه يجد ريح يوسف - من الظهور بحيث يستأهل أن يصرح به في صورة مؤكدة بما هو الغاية في التأكيد.

ولهذه المؤكّدات معنى آخر يعتمد فهمه على المواقف السابقة التي كانت للمتكلمين مع أبيهم، والتي كانوا يلومونه فيها على ذهابه في الحزن كل مذهب ، فمجيء هذه المؤكّدات بعد الموقف الأخير يؤكّد إصرار يعقوب عليه السلام على موقفه من فقد يوسف ، وشدة قمسكه بالأمل في لقائه ، وهو ما يسمونه ضلالاً.

ولمجيء هذه التأكيدات في السياق - بالإضافة إلى ما سبق - ضرورة اقتضاؤها مافي الأمر المتحدث عنه من وجوه الغرابة ؛ فإن هذا الموقف من يعقوب عليه السلام ، باعتبار ما عند المتكلمين من العلم بمصير يوسف ، إن هذا الموقف غريب وعجب ، وقلما يقع على هذا النحو الذي وقع من أبيهم ، ولما كان الأمر كذلك احتاج إلى مزيد من عناصر التوكيد والتحقيق لإثبات أنه ليس إلا ضلالاً من جنس ما كان منه قد يمأ . وتلاؤماً مع مافي الأمر المقسم عليه وما تخته من وجوه الغرابة والندرة جاءت التاء في عناصر هذا القسم .

وأول ما يلتفت إليه من ذلك هو أن كون يعقوب عليه السلام يجد ريح يوسف من بعد - غريب عند كل أحد ، باعتبار أن الذي يتبع أحداث هذه القصة قد علم من سياقها السابق أن يوسف على قيد الحياة ؛ والوجه المستغرب عند من يعلم ذلك هو

وجد أنه ريح قميص يوسف على الرغم من عدم علمه بحياته ، وعلى الرغم من المسافة الكبيرة التي تفصله عنه .

وإذا كان هذا الأمر غريباً مستبعداً عند من علم بحياة يوسف ومكانه ، فهو عند من تيقن موته - وهم إخوة يوسف - أغرب وأبعد وأعجب ، وذلك أن الحواجز بين يعقوب وابنه يوسف عند هؤلاء ليست حواجز مكانية أو زمانية فحسب ، بل ثمة حاجز آخر أكبر وأعظم من أن يصدر منه مثل ذلك القول : إنه الفرق بين عالم الأحياء وعالم الأموات .

ويكشف السياق لمن تأمله عن عنصر المفاجأة في موقف يعقوب عليه السلام ، وذلك أنهم يتوقعون في مثل حاله أن ينتهي عما هو عليه من ذكر يوسف وإهلاك نفسه من الحزن عليه، أو أن يخفف من ذلك على أقل تقدير ؛ فإذا هم يفاجأون بقوله : (.. إني لأجد ريح يوسف ..) ، وهو عكس ما توقعوه منه ، وهو مناقض لما يريدونه منه أيضاً ؛ فإنهم يتمنون ألا يرد اسم يوسف على لسانه ، فإذا هو يصرح به في جملة واثقة بأنه حي يرزق بل إنه متوجه إليهم ^(١) . فلما كان هذا الموقف مفاجئاً لهم ، وكانت الأمور المفاجئة مستغرية نادرة الحدوث عند من ينتظر خلافها ؛ لما كان ذلك كذلك جاءت في قسمهم التاء لما لها من اختصاص بالمعاني النادرة الغريبة .

ولا يخفى ما في استعمال التاء في القسم الذي جرى على لسانهم من التعبير عن ذلك الموقف الذي خرج بأبيهم من القدر العقول والمألوف من المحبة والتذكر للأحباب ، إلى ضرب من الهيام غريب ، قد بلغ حدّاً وصفوه معه بالضلال والبعد عن الصواب ، فليس له فيما يعرف الناس نظير ، فهو حب نادر خارج عن المألوف والمعروف .

ومن خصوصيات تاء القسم هنا وقوعها في صدر الكلام الذي عبر به الأبناء عن

(١) أشار إلى هذا المعنى أستاذنا الدكتور حسن باجودة في تعليقه على هذا الموقف ، انظر : الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ص ٣٣٩ ، ٣٤١ .

تضجرهم من هذا الموقف من أبيهم ^(١) ، وغضبهم من استمراره على ضلاله القديم ، وغيظهم مما تضمنه هذا الموقف من إظهار شدة تمسكه بحبه القديم ليوسف ، وقوة أمله في رجوعه ؛ فصدور ذلك القول من أبيهم قد أثار في نفوسهم انفعالات متعددة ، وكانت الجملة المعبرة عن هذه الانفعالات هي قولهم : (تالله إنك لفي ضلالك القديم) . وهذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن للتاو موقعاً في الموقف المعبرة عن حركة النفوس واضطرابها ، وأن دلالتها في القسم غير مقصورة على معنى التعجب . وبالمبالغة من هؤلاء المقسمين في تأكيد المقسم عليه - بما تضمنه من التعبير عن المعاني الغريبة المستبعدة والانفعالات النفسية المصاحبة له - أقسموا بأقوى ما يقسم به ؛ فجاء القسم باسم الجلالة سبحانه .

وبالإضافة إلى كون هذا المقسم به يلائم الأمر المقسم عليه لما فيه من قوة التأكيد؛ فإنه يلائم السياق الذي عبر فيه عن معانٍ متفردة في خصائصها ؛ فليعقوب عليه السلام ضلال خاص لا يشاركه فيه أحد ، وهو الحكم الناشيء عن ذلك الحب النادر الذي لا يعرف له نظير ، فجاء القسم باسم الله تعالى الذي يختص سبحانه ولا يطلق على غيره ملائمة لهذا المعنى الذي أشار إليه المقسم عليه .

وللمقسم عليه علاقة بالقسم باسم الجلالة من جهة أنهم يقسمون على ما عرفوه من يعقوب من ذكر يوسف وهو ما وصفوه بالضلال القديم ، فكان ذلك قد استقر في نفوسهم بوصفه دأبه وطريقته منذ زمن طويل ، وفي هذا تأنيب على الإقامة على حال واحدة ، وذلك يتضمن الدعوة إلى ترك هذا الأمر الذي دأب عليه زمناً طويلاً ، وكان في قسمهم باسم الجلالة الدال على الوحدانية إماحاً إلى ذلك النهج الواحد الذي لم يتغير منه تجاه يوسف .

(١) ذكر بعض المفسرين أنهم بصدور هذا القول عنهم قد قالوا لوالدهم كلمة غليظة ما كان ينبغي أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي من أنبياء الله تعالى ، وفيها من الجفاء ما لا يسوغ لهم مخاطبته به .
انظر : تفسير الطبرى (ط المعارف) ٢٥٧/١٦ ، والبحر المحيط ٣٤٥/٥ ، وتفسير ابن كثير ٤٩٠/٢

وفي القسم بهذا الاسم الكريم أيضاً - بما فيه من معنى التفرد - تعریض بما كان من يعقوب عليه السلام في الزمن الماضي والحاضر من تفضيل لیوسف في المحبة ، وكيف أنه خصه وأخاه - وهم عصبة متعددون - بذلك الحب النادر ، وكيف أن هذا هو دأبه الذي لا يمكن أن يتبدل .

ويهذا يعلم أن لاختيار كل عنصر من عناصر التركيب في هذا القسم خصوصية جيء به من أجلها ؛ فتلك المؤكّدات التي اشتمل عليها التركيب ابتداءً من القسم ، وانتهاءً بما في جملة المقسم عليه من عناصر التوكيد ، وما في الجملة من الأساليب المعبّرة عن المبالغة في إثبات الأمر المقسم عليه ، كل ذلك جاء معبّراً عن عدد من المعاني وملائماً للسياق والمقام . واختيرت عناصر القسم كذلك لتفادي بمقتضيات الأحوال في هذا السياق ، فالناء في جملة المقسم معبّرة عن كثير من وجوه الغرابة والاستبعاد ، ودالة على كثير من الانفعالات المتوازية في جملة القسم . واختير المقسم به ليلاائم المقسم عليه ويؤكده بما يربط بينهما من علاقات متعددة ، وليناسب كثيراً من المعاني التي سرت في السياق القسمي .

التناسب بين الموضع الأربعه السابقة وعلاقتها بسياق سورة يوسف :

اجتمعت في سورة يوسف عليه السلام أربعة مواضع من مواضع القسم في القرآن الكريم ، وقد جاء القسم في كل منها باسم الجلالة مع التاء : (تالله) ؛ فاتحدت صورة المقسم به في جميع هذه المواضع ، وقد سبق بيان وجه مناسبة هذه الصورة المقسم بها للمواضع التي وردت فيها ، سواء كان ذلك في علاقتها بالقسم عليه، أو السياق، أو المقام ، أو المخاطب بالقسم ، أو جميع ذلك ، ووقفنا من ذلك على دقة اختيار عناصر القسم في كل موضع ومناسبتها لمقتضيات الأحوال فيه .

وورود عدة أقسام ذات نسق واحد واجتماعها في سورة واحدة يلفت التأمل إلى ضرورة تتبع ما لهذه المواضع من علاقة بالسورة التي وردت فيها ، وإلى محاولة الوقوف على بعض خصوصيات هذا الاتفاق .

وأول ما هدى إليه التأمل من ذلك هو أن هذه السورة قد أخلصت جل آياتها لحكاية قصة يوسف عليه السلام ، وهي من القصص العجيبة التي اشتغلت على كثير من الأحداث النادرة ، وامتلأت بكثير من المواقف الغريبة ، وشاع فيها الانفعال النفسي من كثير من شخصها في مواقف متعددة ؛ وقد تتبع السورة ووقفت على أكثر ذلك ، ويمكن إيجازه فيما يلي :

- الرؤيا العجيبة التي يراها يوسف في أول السورة [الآية ٤].
- تخوف أبيه من كيد إخوته له . [الآية ٥].
- غيرة إخوة يوسف من أخيهم يوسف وينيامين [٨].
- وصف محبة أبيهم لهما بالضلال المبين . [٨].
- التامر على الكيد لأخيهم يوسف وتبين مواقفهم في ذلك [١٠ ، ٨].
- الاتفاق على إلقائه في غيابة الجب ، وتوقعهم لالتقاط السيارة له [١٠].
- احتيالهم في أخذ أخيهم معهم . [١٢ ، ١١].

- إظهار يعقوب لحزنه على أخذهم يوسف ، وتعليقه ذلك بخوفه من أن يأكله الذئب ، وهو ما كان بعد ذلك [١٣] .
- إظهارهم لما يدفع خوفه ، وهو كونهم عصبة ، مع تبييت خلاف ذلك [١٤] .
- إقدامهم على ترك أخيهم - وهو غلام صغير - في غيابة الجب [١٥] .
- إيحاء الله تعالى ليوسف وقت أن كادوا له بأنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون وهو الذي كان بعد ذلك [١٥] .
- ادعاء إخوة يوسف بأن الذئب قد أكله ، وهو ادعاء غريب في ضوء تخوف أبيهم منه قبل ذلك [١٦ ، ١٧] .
- احتيالهم في وضع دم كذب على قميص يوسف [١٨] .
- التقاط السيارة ليوسف وطمعهم في بيته وزهدهم فيه ، وهو من هو في حاضره ، ومن سيتولى أمر مصر في مستقبله [٢٠] .
- دخوله إلى بيت العزيز وما ذلك من علاقة بتمكن الله تعالى ليوسف في الأرض [٢١] .
- قصة يوسف مع امرأة العزيز وما فيها من صبره العجيب على هذا الابتلاء ، وما فيها من كيدها وكيد نسوة المدينة [٢٣ - ٣٤] .
- دخول يوسف السجن ، وما فيه من رؤيا صاحبيه ، وتأويل يوسف العجيب لذلك [٤١ - ٣٥] .
- نسيان الذي نجا منهما لوصية يوسف ، وتمهيد ذلك لتفسير رؤيا الملك [٤٢] .
- رؤيا الملك العجيبة ، وتأويل يوسف لها ، وارتباط ذلك ببراءته وتمكنه في مصر [٤٣ - ٥٧] .
- مجيء إخوة يوسف إلى مصر ومعرفته لهم وهم له منكرون [٥٨] .
- احتيال يوسف لجلب أخيه إلى مصر [٥٩ ، ٦٢] .

- طلب الإخوة من أبيهم أن يرسل بنiamين [٦٣] .
- خوف يعقوب من ذلك وتذكره لما كان من أمر يوسف [٦٤] .
- دهشة الإخوة ووقعهم في إغراء يوسف بجلب أخيهم معهم [٦٥] .
- شدة تخوف يعقوب من إرسال بنiamين معهم واحتياطه بأخذ المشياق منهم [٦٦] .
- خوف يعقوب على أبنائه من الحسد [٦٧] .
- كيد يوسف لاستبقاء أخيه عنده، وما صاحبه من وقوع الإخوة في المحظور ودهشتهم واستغرابهم طيلة هذا الموقف [٦٩ - ٧٩] .
- اضطراب الأخ الأكبر، وحرجه من أبيه، وامتناعه عن العودة مع أخيه [٨٠] .
- رجوع الأبناء إلى يعقوب، وإبلاغه بما آل إليه أمر بنiamين ، وحزنه الشديد على ذلك [٨١ - ٨٣] .
- إظهار يعقوب لحزنه على يوسف في وقت كانوا يتوقعون فيه أن يحزن على بنiamين أو على الأخ الأكبر [٨٤] .
- تعجبهم من ذلك، وقسمهم على غرابته [٨٥] .
- تفويض يعقوب أمره إلى الله، وصبره النادر على اجتماع المصائب عليه [٨٦] .
- أمله العجيب في عودة يوسف، وأمره لبنيه بالبحث عنه وعن أخيه [٨٧] .
- امتحان الإخوة لأمر أبيهم، وعودتهم إلى مصر ، وما كان ينتظرون من المفاجآت فيها وأهم ذلك معرفتهم أن العزيز هو يوسف [٨٨ - ٩٠] .
- استجاباتهم للمفاجأة بالاعتراف بالذنب، والتعریض بطلب الصفح، وقسمهم المتضمن وجهاً من التعجب [٩١] .
- سرعة صفح يوسف عنهم ، واستغفاره لهم ، وغرابة ذلك بالنسبة إلى ما بدر منهم [٩٢] .

- إخبار يعقوب لأبنائه بأنه يجد ريح يوسف واستغرابهم وتعجبهم من ذلك [٩٤ ، ٩٥].
- معجزة القميص الذي أرسله يوسف ، وارتداد يعقوب به بصيراً [٩٦ ، ٩٣].
- استغفار يعقوب لبنيه على الرغم مما كان منهم [٩٧].
- تحقق رؤيا يوسف التي رأها في أول القصة [٩٨ - ١٠٠].
- تعجب الرسول ﷺ لما يوحيه الله تعالى من أنباء الغيب [١٠٢].
- التعجب من عدم إيمان أكثر الناس مع ما عندهم من الدلائل والآيات ، ومن وقوعهم في الشرك ، وعدم اعتبارهم بعاقبة الأمم السابقة ، ومن نصر الله تعالى لرسله ، وكون ذلك كله عبرة لهم ، وآية على صدق هذا الكتاب وكونه وحيًّا من الله تعالى [١٠٣ - ١١١].

ومن أبرز ما يوضح اشتتمال هذه السورة على ما يبعث على التعجب والاستغراب والدهشة والانفعال النفسي ، ويُعرب عن اشتتمالها على المعاني النادرة - مجيء قصص الكيد والمكر في مواضع متعددة منها ، ولعل أوضح مثال ظاهر على ذلك تكرر لفظ الكيد ومشتقاته في السورة تسعة مرات في سبع آيات منها ^(١) . وتكرار هذا اللفظ - على هذا النحو - يشير إلى ما لموضوع السورة ونقط الأحداث التي

(١) ورد ذلك في الآيات :

- (قال يابني لا تقتضي رؤياك على إخوتكم في كيدهم لك كيداً...) الآية ٥ .
- (... قال إنه من كيدكم إن كيدكم عظيم) الآية ٢٨ .
- (... وإلا تصرف عنك كيدهم أصب إليهم ...) الآية ٣٣ .
- (فاستجيب له ربكم فصرف عنه كيدهم ...) الآية ٣٤ .
- (... إن ربكم بكيدهم عالم) الآية ٥٠ .
- (... وأن الله لا يهدى كيد الخائبين) الآية ٥٢ .
- (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخيه ...) الآية ٧٦ .

حوتها من تأثير في اللغة والصيغة المعبر بها في السورة على وجه الإجمال ، واتساق أجزائها من هذا الوجه .

ولما كانت السورة على هذا النحو في اشتتمالها على كثير من هذه المواقف - كما ترى - لما كان ذلك كذلك جاءت هذه الموضع القسمية الأربعية مشتملة على القسم بصيغة (تالله) ، وهي الصيغة المختصة بالتعبير عن مثل تلك الأحداث والمواقف الغربية والنادرة ، وهي التي تطوي في سياقها جملة من انفعالات النفس ومشاعرها ، أي أن القصة - بما فيها من تلك المعاني والأحداث والانفعالات المبسوطة آنفاً - اقتضت تكرر هذه الصيغة القسمية فيها أربع مرات ، وهذا ضرب من التناسب الدقيق بين أجزاء السورة كلها ، وانتظامها في نسق من القول سنته الغرابة والتعجب وإثارة الانفعالات المتعددة .

ليس هذا فحسب ؛ بل إن هذه الموضع الأربعية قد وقعت في الجزء المثير من هذه القصة ، وهو ذلك الجزء الذي يبدأ باختفاء بنiamين ، والذي يشتمل على أكثر تلك المعاني والأحداث غرابة وندرة ، وأشدتها انفعالاً ، فكان هذا الموضع من سياق القصة أنساب لظهور هذه الصيغة القسمية وتكرارها ، لاسيما إذا كان هذا الجزء هو قمة التأزم في القصة ، وهو موطن الإثارة فيها ، وهو في الوقت نفسه بداية الحل .

ولاجتمع هذه الموضع القسمية في هذا الجزء الخاص من القصة واتحاد صورة المقسم به فيها - علاقة بالقسم الذي صدر منه القسم ، فهذه الموضع الأربعية - على الرأى الراجح - صادرة من إخوة يوسف عليه السلام ، وقد كانوا في هذا الجزء من القصة - على وجه الخصوص - في مواقف اضطررت فيها نفوسهم ، وتحركت فيها مشاعر التعجب والاستغراب والقلق والندم والتحسر ، وغير ذلك من الانفعالات ؛ فاتحدت صيغة القسم في الموضع الأربعية لاتحاد مصدرها ، واتفاق سياقاتها في الاقتران بمواصفات متشابهة في آثارها وانفعالاتها .

وهذه النفوس المضطربة المنفعلة ظهرت جلية في أساليب خطاب أصحابها ؛ فجاء

القسم الذي صدر منهم في الموضع الأربعة باسم الجلالة مع التاء (تالله) ، بوصفه صورة حية لحركة تلك النفوس .

أما مجيء القسم باسم الجلالة في الموضع الأربعة ؛ فیناسب ما عرضت له السورة من إثبات عقيدة التوحيد ، في موقع متفرقة منها ؛ فقد ورد ذلك فيما جاء حكاية عن يوسف وهو في السجن ^(١) ، وما ورد كذلك بوصفه تعقيباً على قصة يوسف عليه السلام، متضمناً دعوة كفار مكة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ^(٢) . فالقسم باسم الجلالة الذي يختص بإطلاقه على الحق سبحانه ، وشيوعه في السورة ، ملائم لما جاء من إثبات الوحدانية فيها ، وهو تلاؤم سبقت الإشارة إلى نظائره في هذا النوع من القسم في القرآن الكريم .

ولا يقف الأمر هنا عند هذا الحد ؛ بل يأتي القسم باسم الجلالة مقترباً بالتاء ؛ ليناسن أيضاً الأسلوب الخاص الذي عرضت به قضية التوحيد في هذه السورة ؛ فإن المتتبع للآيات التي اختصت ببسط تلك القضية - يجدها قد اشتغلت على كثير من الأساليب الدالة على التعجب، ومن ذلك ما جاء حكاية عن يوسف - وهو في السجن - من إثبات هذه القضية لصاحبيه ؛ فقد جاء فيه قوله : (يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ^(٣) ؟! وهو قول يظهر فيه ما بني عليه خطابه لهما من عرض القضية في إطار تعجبه ؛ فقد عرض قضية التوحيد في إطار التعجب من اتخاذ الشركاء . ثم انظر إلى ما جاء من ذلك في نهاية السورة تعقيباً على القصة ، وما شاع فيه من أساليب التعجب والاستغراب التي ظهر أكثرها في صورة الاستفهام ^(٤) .

(١) انظر الآيات : ٤٠ - ٣٧ .

(٢) انظر الآيات : ١١١ - ١٠٣ .

(٣) الآية ٣٩ .

(٤) اقرأ الآيات : ١١١ - ١٠٣ .

فلما كانت السورة تجري على هذا النحو التعجبي في عرضها لقضية التوحيد ؛ جاء المقسم به مشتملاً على ما يناسب إثبات هذه القضية من جهة ، وهو اسم الجلالة ، وما يناسب الأسلوب الذي عرضت فيه من جهة أخرى ، وهو ماتفيده التاء من معنى التعجب ؛ فجاءت صورة المقسم به متفقة - من جميع جوانبها - مع أخص خصائص السورة في عرضها لما اشتغلت عليه من هذه القضية .

وقد ظهر لنا مما سبق وجوه متعددة تفسر اجتماع أربعة مواضع من القسم باسم الجلالة مع التاء - في سورة يوسف عليه السلام .

وتبيان لنا من جميع ما تقدم في هذا البحث - على وجه الإجمال - التناسب الدقيق لعناصر القسم في تلك الموضع مع سياقاتها ، ومواعقها ، ومقتضيات أحوالها ، ثم التناسب مع السياق الخاص الذي وردت فيه من قصة يوسف ، ثم التناسب الدقيق مع موضوعات السورة ومعانيها النادرة والغريبة التي تشيع فيها ، واتساقها مع التراكيب والأساليب اللغوية التي تغلب على السياق العام للسورة .

ومن نافلة القول أن نقرر أن الوفاء بجميع هذه الوجوه والعلاقات في عناصر القسم أمر لا يمكن أن يتحقق إلا في كتاب الله الواحد الحكيم ، وأن هذا البحث - وإن فسر كثيراً من تلك العلاقات والوجوه التي تؤلف بين المعاني والأساليب - يترك مما يجول في الخاطر أكثر مما تم إثباته هنا ، وذلك - دون شك - دلالة صادقة على أن هذا الكتاب الحكيم لا تنقضي عجائبه .

ثالثاً- القسم بـ(تالله) في سياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

الموضع الأول : قسم إبراهيم عليه السلام لقومه في سياق دعوته إلى التوحيد : قوله تعالى : « وَتَالَّهُ لَأَكِيدُنْ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ »^(١) ، جاء هذا القسم حكاية عن إبراهيم عليه السلام ، في سياق دعوته لقومه إلى عبادة الله وحده وترك ما هم عليه من الشرك ، وذلك فيما ورد من قصته مع قومه في سورة الأنبياء « إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمَهُ مَا هَذِهِ الْتَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجْئَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ الْلَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَالَّهُ لَأَكِيدُنْ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ »^(٢).

وقد ذكر المفسرون^(٣) أن إبراهيم عليه السلام أقسم بهذا القسم في سرٍ من قومه ولم يسمعه منهم إلا الذي أفشأه عليه ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى : « قَالُوا سَمِعْنَا فَتِي يَذْكُرُهُمْ يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ »^(٤) . وقيل إنه أقسم بذلك يوم أن « قال له أبوه : يا إبراهيم إن لنا عيداً لو قد خرجت علينا إليه قد أعجبك ديننا ، فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إني سقيم ، يقول اشتكي رجلي ... فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفى الناس : تالله لـأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فسمعوها منه »^(٥) .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ .

(٢) الآيات ٥٢ - ٥٧ ، وانظر الآيات ٥٨ - ٧٠ .

(٣) انظر : تفسير الطبرى ٢٨/١٧ ، وتفسير البغوى ٢٤٧/٣ ، والقرطبي ٢٩٧/١١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٦٠ .

(٥) انظر : تفسير الطبرى ٢٨/١٧ ، وتفسير البغوى ٢٤٨/٣ ، وزاد المسير ٣٥٧/٥ ، وتفسير ابن كثير ١٨٢/٣ .

و « الظاهر أن هذه الجملة خاطب بها أباه وقومه وأنها مندرجة تحت القول من قوله : « قال بل ربكم... » (١) (٢) وهو رأي أبي حيان، ويؤيده مجيء الواو في قوله : (وتالله ...) عاطفة هذه الجملة على القول السابق عليها : فمجيء الواو في صدر آية القسم يشير إلى كون القسم مما قاله إبراهيم لأبيه وقومه ، وهو أولى بالمقام لأنه مقام دعوة إلى الله تعالى ، ولأن القسم جزء هام من الحجة لتضمنه البرهان العملي على بطلان ما يعبدون . وهذا لا يمنع أن يكون قد قال ذلك في سر من بعضهم فلم يسمعوه فقال الذين سمعوه : (... سمعنا فتنى يذكرون...) الآية .

والقسم به هنا هو اسم الله تعالى مقترباً بالباء : (تالله) ، والمقسم عليه هو قوله : (لا يكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) .

وفي التعبير بالكيد للأصنام في المقسم عليه أسرار ذكرها بعض المفسرين ؛ فمنها أن الكيد « وهو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به لا يتأتى في الأصنام » (٣) وإنما عبر عن فعله بالكيد - كما يقول الرازى - « توسعأ ؛ لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها ، وقيل المراد لا يكيدنكم في أصنامكم ، لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم » (٤) .

ويرى بعض المفسرين أن معنى (لا يكيدن) : لأجتهدن في كسرها ، وأن « أصل الكيد الاحتيال في إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، وهو يستلزم الاجتهاد ، فتجوز به عنه ، وفيه إذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل ليحتاطوا في الحفظ ؛ فيكون الظفر بالمطلوب أتم في التبكيت » (٥) .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٦ .

(٢) البحر المحيط . ٣٢٢/٦ .

(٣) التفسير الكبير . ١٨٢/٢٢ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) روح المعاني ٦١/١٧ ، وانظر : تفسير أبي السعد . ٧٣/٦ .

وأرى أن في تعبيره عن ذلك بالكيد تعريضاً واستهزاً ب موقفهم من هذه الأصنام، وذلك اعتقادهم أنها تعقل ، فجعلها إبراهيم عليه السلام كما هي في ظنهم ؛ فأجرى عليها من الأفعال ما يجري على العقلاء ، للإشارة إلى سخف ذلك الظن .

وقد أكد إبراهيم عليه السلام هذا الأمر بالتأكيد القسمى ، وأظهره لهم في صورة مؤكدة أيضاً فقال : (لا كيدن) بلام ونون مشددة ؛ وقد قال البقاعي : « أكد لأنه مما ينكر لشدة عسره » (١) ، وقد يصح هذا الغرض باعتبار ظن قومه . وقد يكون من داعي التأكيد في هذا المقام إظهار الجد في حديثه معهم ؛ لأنهم ظنوا دعوته لهم إلى التوحيد ونبذ هذه الأصنام ووصفه لما هم عليه بالضلال ضرراً من المزاح (٢) وذلك في قولهم : « ... أجهتنا بالحق ألم أنت من اللاعبين » (٣) .

ولكن الأقرب إلى السياق أن يكون مجيء هذا التأكيد القسمى والعناصر المؤكدة الواردة في جوابه - في هذا السياق - لإظهار المبالغة في تأكيد الكيد للأصنام ، على سبيل التعرض بيسراً هذا الأمر ، والإيماء إلى أن النيل من هذه الأصنام لا يحتاج فيه إلى مجرد الكيد فضلاً عن تأكيده ، وفيه تحcir وتهوين لها ، وتفسيفه لأحلام عابديها . وتفسير الغرض من عناصر التوكيد على هذا النحو قريب مما ذكر قبل قليل من سر التعبير بلغة الكيد في جواب القسم ، وعلى هذا تتتسق دلالات التراكيب في القسم وجوابه وتعاضد من هذا الوجه .

وقد جاء القسم في هذا الموضع باسم الجلالة سبحانه ؛ لعلاقة هذا الاسم العظيم (الله) بالتوحيد ، ودلالة الخاصة عليه ، وهو ماتضمنه القسم عليه ؛ فالقضية التي أقسم عليها إبراهيم عليه السلام ، وهي الكيد للأصنام ، قضية واردة في سياق إثبات

(١) نظم الدرر ٤٣٧/١٧ .

(٢) يرى الزمخشري أنهم ظنوا هذا الظن لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال . انظر الكشاف ٢٧٥/٢ . ٢٧٦ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٥٥ .

الوحدانية ؛ لأن المقصود منها إبطال مذهب المشركين وعقيدتهم في تلك الأصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، وذلك بإثبات أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، فهي أولى ألا تملك ذلك لغيرها ، وهو ما صرّح به إبراهيم عليه السلام بعد ذلك في قوله تعالى : «**قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يُضُرُّكُمْ هُوَ لَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟**»^(١) .

قصة تحطيم الأصنام كانت تقصد إلى إثبات عجز هذه (الآلة) المزعومة ، والدعوة إلى وحدانية الله تعالى دعوة يجهر بها حال الأصنام بعد تحطيمها ، فلما كان الأمر المقسم عليه إثباتاً للتوحيد، وإبطالاً للشرك جاء المقسم به المؤكد له اسماءً من الأسماء المختصة بالله تعالى ، بل هو الاسم الذي لا يطلق على غيره تأكيداً لمعنى التوحيد والإخلاص الذي جاء له القسم .

وفي مجيء القسم باسم الحالة في هذا الموضوع ، في سياق قصة من قصص القرآن تتضمن تفصيل بعض الأمور ذات العلاقة بقضايا الشرك والمشركين - في ذلك ما يؤكد صلة القسم بمثل هذا السياق لما فيه من خصوصيات ذات علاقة بالقضايا المقسم عليها ، ومعانٍ تعين على تأكيدها .

ويأتي القسم باسم الحالة هنا مقترباً بالباء ، وهذا النسق اللغوي (تالله) ذو صلة بدلالة التعجب ، وبدلالات أخرى أشرنا إلى بعضها في موضع سابقة ، وقد أكد الزمخشري في تفسيره لهذا الموضع صلة التاء في القسم بمعنى التعجب ، ووضح علاقة هذه الصيغة القسمية بما أقسم عليه إبراهيم عليه السلام ؛ فقال : «**فَإِنْ قُلْتَ مَا فَرَقَ بَيْنَ الْبَاءِ وَالْتَّاءِ؟ قُلْتَ: إِنَّ الْبَاءَ هِيَ الْأَصْلُ وَالْتَّاءُ بَدْلٌ مِنْ الْوَوْ وَالْمُبَدَّلَةِ مِنْهَا.**

وَإِنَّ التَّاءَ فِيهَا زِيادةً مَعْنَى، وَهُوَ التَّعْجَبُ، كَأَنَّهُ تَعْجَبٌ مِنْ تَسْهِيلِ الْكَيْدِ عَلَيْهِ يَدَهُ وَتَأْتِيهِ: لأن ذلك كان أمراً مقوطاً منه لصعوبته وتعذرها ، ولعمري إن مثله صعب متعدد في كل زمان ، خصوصاً في زمن نمزود مع عتوه واستكباره وقوته سلطانه وتهالكه على دينه ، ولكن * إذا الله سنى

عقد شيءٍ تيسراً * »^(١) .

وواضح أن الزمخشري يريد أن هذا الأمر صعب في ذاته بالنظر إلى الظروف المحيطة به ، ولكن إبراهيم عليه السلام يراه - لما معه من الحق وتأييد الله له - سهلاً ميسوراً إلى حد جعله يتعجب من سهولته وهو ما هو صعوبة وتعذراً، وربما كان التعجب هنا من إقدامه على هذا الأمر مع مافيه من المخاطرة ، وهو ما ذكر الألوسي^(٢) .

ولا يخفى - في ضوء هذا الموقف من إبراهيم عليه السلام - ما في التعبير بـ (تالله) في هذا القسم من الإشارة إلى الفرق الكبير بين موقفه تجاه هذه الأصنام ، وهو الذي يحرقها ، وموقف أبيه وقومه ، وهم الذين يعظمونها ويرجون نفعها ويخشون ضررها ، ففي مجيء هذه الصيغة تعبر عن التعجب من المفارقة الغريبة بين موقفه وموقفهم، حتى احتاج إلى أن يثبت لهم أنه يستطيع التعرض لها بسوء بإعمال الكيد، بل احتاج إلى أن يقسم لهم على ذلك ، فدخول تاء القسم في هذا السياق، واجتماعها مع فعل الكيد المؤكد في المقسم عليه، يلفت إلى وجه الغرابة في تلك المفارقة وأن ذلك حقيق بأن يتعجب منه ، ومن دلالات ذلك أيضاً تعجب إبراهيم عليه السلام - في ضوء موقفه - من إقامتهم على عبادة هذه الأصنام، واثقين من أن أحداً لا يصيّبها بمكروه .

وقد ربط البيضاوي بين مجيء لفظ الكيد وما في التاء من التعجب ، فذهب إلى أن التعبير بهما قد جاء « لصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل »^(٣) ، وفي ربطه بين لفظ الكيد وما في التاء من معنى التعجب توثيق لصلة هذه الأداة بلفظ الكيد، لما يستصحبه ذكر هذا اللفظ من الفكر النادر، والحيل العجيبة التي يتأتى بها إلى المراد؛ فناسبت تاء القسم - من هذا الوجه - المعنى المؤكّد بالقسم ، على نحو

(١) الكشاف ٥٧٦/٢ ، وانظر : التفسير الكبير ١٨٢/٢٢ ، والبحر المحيط ٣٢١/٦ .

(٢) انظر : روح المعاني ٦١/١٧ .

(٣) تفسير البيضاوي ص ٤٣٢ .

ما سبقت الإشارة إليه في القسم في سورة يوسف عليه السلام ، وبهذا يتأكد وجود صلة وثيقة بين مجيء التاء في أسلوب القسم ، والسياقات التي يذكر فيها الكيد ، بجامع ما لكل منها من ارتباط بالأمور الغريبة والنادر المتعجب منها .

وأضاف البقاعي دلالة أخرى للتاء في هذا القسم : فقال : « وفيها أيضاً أنها تدل على رجوع التسبب باطنناً فكأنها إشارة إلى أنه بعد أن تسبب في ردهم عن عبادتها ظاهراً بما خاطبهم به ، تسبب من ذلك ثانياً باطنناً بإفسادها »^(١) ، أي أنه بعد أن أظهر لهم بطلان ما هم عليه من عبادة تلك الأصنام وفساد عقيدتهم تلك بما قاله لهم ، أضمر في نفسه ما سيفعله بعد ذلك بالأصنام ، وهو ما عبر عنه بالكيد ، فتحطيم الأصنام دليل على بطلان ذلك المعتقد ، فجمع في تلك اللحظة بين دليله الظاهر الذي صرخ لهم به ، ودليله الباطن الذي عقد العزم عليه ، فلما كان المقسم عليه ما كان يضمراه إبراهيم عليه السلام في تلك اللحظة ؛ أشبه الشيء الغريب : لشدة خفائه ودخوله في نيته ، فجاءت التاء مشيرة إلى هذا المعنى ولافتة إليه .

وثمة معنى آخر يتصل بالتعبير بالتاء ، وهو أن المقسم عليه الذي ينوي إبراهيم عليه السلام فعله أمر مبهم غير معروف ؛ لأن قوله : (لا كيدن أصنامكم) يحتمل كثيراً من الوجوه التي يمكن أن يتواتي بها الكيد لهذه الأصنام ، وفي قسم إبراهيم على ذلك بـ (تالله) ما يشير إلى أن هذا الأمر المقسم عليه أمر يثير العجب ، وذلك بلفتهم إلى أن الطريقة التي سيكيد بها لهذه الأصنام طريقة عجيبة تستأهل أن يتفكروا فيها وأن يتربعوا حدوثها وأن يتخيلاً كيفياتها ، والتعبير بهذه الصيغة هو القائم بأداء هذه الدلالات الدقيقة في سياق هذا القسم . ويضاف إلى هذا أن المقسم عليه لما كان على هذا النحو من الإبهام والخفاء ، كان أقرب إلى أن يؤكّد بالصيغة القسمية المختصة بالمعاني الغربية البعيدة .

والقسم في هذا الموضع مناسب لسياقه الخاص الذي ورد فيه ؛ فصورة المقسم به

التي تجمع بين اسم الحالة وتأء القسم تتتسق مع أدق خصوصيات هذا السياق ، فالقسم باسم الحالة يناسب السياق الذي جاء فيه من جهة ما فيه من الاهتمام بآثاث قضية التوحيد وإبطال الشرك ، ومجيء التاء مع المقسم به يتتسق مع عرض هذه القضية في قصة عجيبة غريبة، واعتماد السياق عليها في إثبات الوحدانية .

ومن وجوه اتفاق صيغة القسم مع سياقها الخاص - أيضاً - ما شاع في قصة إبراهيم عليه السلام - وهي القصة التي ورد القسم في سياقها - من مواقف التعجب والاستغراب الصادر من شخصها ، وما ورد فيها من الأحداث الغريبة النادرة ؛ فالقصة تبدأ بتعجب إبراهيم عليه السلام من حال قومه في ع Kovفهم على الأصنام، ومباغتهم في تقديسها ، وذلك قوله : ﴿... ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾^(١) ! ، ثم يأتي ردهم على ذلك عجيبة غريباً : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾^(٢) ؛ فلم يكن منه إلا أن قال لهم - متعجبًا من احتجاجهم بالتقليد، وخروجهم عن أصل السؤال : ﴿... لقد كنتم أنتم وآباءكم في ضلال مبين ﴾^(٣) ، ووجه تعجبه من ذلك أنهم بوقوعهم في مثل هذا الضلال المبين بنفسه فلا يحتاج إلى من يكشفه ويوضحه لهم : كانوا أقرب إلى الرجوع عنه ، ولكنهم - مع ذلك - لم يفطنوا إلى بطلان ما هم فيه ؛ فكيف وقد جاءهم من يلفتهم إلى بطلانه بتسمية تلك الأصنام (التماثيل) إشارة إلى كونها من صنعهم، وإلى كونها جامدة لا حياة فيها !! إن من كان في مثل ذلك يسلك مسلكًا حقيقاً بأن يُتعجب منه . وعلى هذا يكون التعجب هنا من موقفهم وحجتهم .

ثم إنهم « لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال بقوا متعجبين من تضليله إياهم

(١) الآية ٥٢ .

(٢) الآية ٥٣ .

(٣) الآية ٥٤ .

وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد » (١) - وجهوا السؤال إليه فـ « قالوا أجيتننا بالحق أم أنت من اللاعبين » (٢) .

وهذا كله واقع فيما ورد من القصة قبل مجيء القسم . وقد جاء بعد القسم من مواقف التعجب والغرابة مثل ما جاء قبله : فمن ذلك حكاية الكيفية التي تم بها تحطيم الأصنام، وما فيها من الاستدراج العجيب لهم، حين نسب التحطيم إلى كبير الأصنام، وطلب منهم سؤالها عن صحة ذلك تعرضاً بجهلهم وذلك قوله : « ... بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » (٣) ، فكأنه يريد أن يقول لهم متعجباً : كيف تعبدون مالا ينطق ولا يعقل ؟! ولهذا رجعوا إلى أنفسهم واعترفوا بكونهم ظالمين (٤) ، لكنهم مالبئروا أن نكسوا على رؤوسهم فقالوا : « ... لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » (٥) ولما كان ذلك مما يتعجب منه أشد التعجب قال لهم مظهراً تعجبه واستغرابه : « ... أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ أفي لكم وما تعبدون من دون الله أفلأ تعقلون » (٦) .

ومن عجائب موقفهم في هذه القصة أنهم بعد ذلك كله مصرون على شركهم الذي تبين لهم بطلانه ، بل اعترفوا بأنفسهم بما يوجب كونه باطلأ ، فلم يذعنوا للحق لما جاءهم بل « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » (٧) .

ومن ناحية أخرى تتناسب صيغة القسم مع ما ورد في القصة من رد على كيد المشركين الذي أرادوه بإبراهيم عليه السلام ، فهو رد غريب تتحول به طاقة النار

(١) الكشاف ٥٧٥/٢ ، وتفسير أبي السعود ٧٣/٦ .

(٢) الآية ٥٥ .

(٣) الآية ٦٣ .

(٤) انظر : الآية ٦٤ .

(٥) الآية ٦٥ .

(٦) الآية ٦٦ ، ٦٧ .

(٧) الآية ٦٨ .

المحرقة إلى برد وسلام على إبراهيم : « قلنا يانار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم » وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخرين ^(١) . وفي ورود لفظ الكيد في الآية الأخيرة تعضيد لما تقدم ذكره من اختصاص هذه الصيغة القسمية بالسياقات التي تذكر فيها المكائد العجيبة، لما في هذه الصيغة من الدلالة على معان ذات صلة بصفة تلك المكائد وكيفياتها .

وغير خافٍ ما صاحب المواقف السابقة - ما جاء منها قبل القسم وما جاء بعده - من شيوع أساليب الاستفهام الدالة على التعجب والاستبعاد ، وذلك يشير إلى وجه بناء الدلالة العامة لهذا السياق ، وهو الوجه الذي جاءت صورة القسم الصادر من إبراهيم عليه السلام متسبة معه أتم الاتساق ، فشاكلت سياقها في مضمونه وأساليبه .

ومن خصوصيات نظم هذا القسم في سياقه أنه برهان على إبطال الباطل بعد أن جاء البرهان على إحقاق الحق ^(٢) في قوله تعالى : « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فط Hern و أنا على ذلكم من الشاهدين » وتأله لا كيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ^(٣) ، ومن وجوه الترابط بين البرهانين أنه عقب على الأول بقوله : (و أنا على ذلكم من الشاهدين) وفي الشهادة معنى القسم ، ثم جاء بالقسم بعد ذلك ، فتشابهت الأساليب وائتلت الدلالات في البرهانين .

و ظاهر من جميع ماسبق وجه ارتباط هذا القسم بموقعه الخاص من سورة الأنبياء ، و علاقات عناصره بدقةن هذا الموقع .

أما صلة هذا القسم بالسياق العام في سورته فباب أوسع وأدق . و سنقف - فيما يلي - على كثير من وجوه التناوب بين صورة القسم وعناصره ، والسورة التي

(١) الآية ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) انظر : نظم الدرر ٤٣٧/١٧ .

(٣) الآية ٥٦ ، ٥٧ .

ورد فيها وهي سورة الأنبياء .

وأول ما يلحظ من ذلك أن سورة الأنبياء قد افتتحت بالتعجب من حال الناس وقد اقترب حسابهم وهم في غفلة وإعراض عن ذكر ربهم : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعنون * لاهية قلوبهم ... »^(١) ، ثم جاء عقب ذلك الحديث عن بعض المواقف الغريبة التي وقفتها المشركون من الذكر الذي جاءهم ، كوصفهم له بالسحر أو الافتراء أو الشعر ، والرد على هذه الأقاويل - مقتربنا بمقتضى الأمم السابقة - بأسلوب مشتمل على عناصر لغوية تفيد التعجب^(٢) ، وواضح أن عرض قضايا السورة يسلك مسلك التعجب منذ الآية الأولى ، وينهي على هذا النحو في الآيات التي تلتها في صدر السورة .

ثم تلتفت آيات السورة بعد ذلك إلى بسط قضية التوحيد وهي القضية الهامة التي جاء بها الذكر ، ويصاحب ذلك عرض للعقائد الغربية التي اعتنقها المشركون ؛ كالقول بـ تعدد الآلهة ، ونسبة الولد إلى الله وادعائهم بأن الملائكة بناته - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - وقد جاءت في سياق عرض هذه العقائد والرد عليها الأنساق اللغوية المتضمنة لإلزاك التعجب ، فتضمن الرد معنى يشاكل القضايا المردود عليها^(٣) .

وكثيراً ما لوحظ مجيء مثل هذه العقائد الغربية ، وبخاصة نسبة الولد إلى الله تعالى في السياقات التي يرد فيها القسم بـ (تالله) ، وذلك يلفت إلى صلة وثيقة بين هذه الصورة القسمية ومثل تلك المعتقدات الغربية ، وهي صلة لها ما يؤيدها في عناصر هذا النسق القسمي ؛ فهو نسق يجمع بين اسم الجلالة المتضمن للوحданية ، ونطاء القسم المفيدة للتعجب ، أي أنها صورة قسمية مناسبة للرد على تلك العقائد

(١) سورة الأنبياء ، الآيات ١ - ٣ .

(٢) انظر الآيات : ٣ - ١٥ .

(٣) انظر الآيات : ٢٩ - ١٦ ، ٢٩ - ٣٥ ، والآيات ٢٩ - ٣٥ .

الشركية مع الحكم بغرابتها ويعدها عن الحق ، وهذا من أدق وجوه الصلة بين
القسم وسياقه العام .

ثم نمضي مع السورة فنراها تعرض موقف كفار قريش من رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) واستهزائهم به في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلَهَتُكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ
﴾ (١١) ، وفي قولهم : (أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلَهَتُكُمْ) موقف مشابه لموقف قوم إبراهيم
عليه السلام معه ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَنِي يَذْكُرُهُمْ
يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمٌ﴾ (٢٢) ، ووجه التمايل أن مراد قوم إبراهيم من قولهم (يذكرون)
الإشارة إلى قسمه على الكيد لأصنامهم ، وهو القسم الذي أراد به إبراهيم عليه
السلام دعوتهم إلى التوحيد ، وكذلك كان مراد كفار قريش حين قالوا: (أَهْذَا الَّذِي
يَذْكُرُ آلَهَتُكُمْ) ، فذكر الآلة يعني عند الفريقين إصابتها بالأذى أو ذكرها بما
يكرهون ، فمجيء الفعل (يذكروا) بهذا المعنى في سياق الحديث عن كفار قريش
يتناجم في السورة مع ماجاء من إسناد قوم إبراهيم، الفعل نفسه إلى إبراهيم مریدین
به المعنى نفسه في قولهم (يذكرون) .

ويشير هذا التناجم إلى وجہ مجیء قصہ إبراهیم علیہ السلام فی سیاق سورۃ
الأنبیاء، علی نحو یصور حرص الكافرین علی آلهتهم، وشدة ولائهم لها ، مقابلًا
بكفرهم بالرحمن، وإعراضهم عن ذکرہ ، وهو موقف غریب عجیب ، فجاءت صورۃ
القسم الذي أربد به التعرض لتلك الأصنام والنیل منها ذات صیغة تعجبیة ، تناسباً
مع غرابة موقف الكافرین ، ثم کان قسماً صادرًا من نبی من أنبیاء الله تعالیٰ بحسب
أسمائہ سبحانہ للقضیة المثبتة فی السیاق .

ثم یعقب ذلك ذکر سخریة الكافرین بما یوعدون واستعجالهم العذاب ، والتعجب

(١) الآیة ٣٦ .

(٢) الآیة ٦٠ .

من هذا الموقف في ضوء ما يسوقون عليه أمر الساعة من السرعة والماgentة التي يطلبونها ^(١) ، وفي هذا استهزاء ضمني مشوب بلهجـة تعجبـية تهـديـدية .

ثم تعود الآيات إلى التذكير بـمواقف الأـمـمـ السابقة وـاستـهـزـائـهـمـ بـرسـلـهـمـ ، وتـلـتـفـتـ معـ ذـلـكـ إـلـىـ إـثـبـاتـ الـوـحـدـانـيـةـ ، وـتـقـرـيرـهاـ بـتـقـرـيرـ خـصـائـصـ الـرـبـوـبـيـةـ ، وـيـصـاغـ ذـلـكـ كـلـهـ فـيـ لـغـةـ يـغـلـبـ عـلـيـهـ التـعـجـبـ مـنـ حـالـ الـشـرـكـيـنـ فـيـ مـوـاقـفـ مـتـعـدـدـةـ ^(٢) ، وـيـخـاصـةـ التـعـجـبـ مـنـ أـمـرـ وـثـيقـ الـصـلـةـ بـالـقـسـمـ الـذـيـ سـتـأـتـيـ حـكـاـيـتـهـ عـنـ إـبـرـاهـيمـ ، وـذـلـكـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : «أـمـ لـهـمـ آـلـهـةـ قـنـعـهـمـ مـنـ دـوـنـنـاـ لـاـ يـسـطـعـونـ نـصـرـ أـنـفـسـهـمـ وـلـاـ هـمـ مـنـ يـصـحـجـونـ» ^(٣) ، فقد أـشـارـتـ هـذـهـ الـآـيـةـ إـلـىـ أـنـ تـلـكـ الـأـصـنـامـ لـاـ تـمـلـكـ لـهـمـ نـفـعاـ وـلـاـ ضـرـاـ ؛ لأنـ مـنـ لـاـ يـمـلـكـ ذـلـكـ لـنـفـسـهـ لـاـ يـمـلـكـ لـغـيـرـهـ ، وـإـشـارـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـحـقـيـقـةـ عـلـىـ سـبـيلـ التـعـجـبـ تـمـهـدـ لـمـاـ فـيـ قـسـمـ إـبـرـاهـيمـ : (وـتـالـلـهـ لـأـكـيـدـنـ أـصـنـامـكـمـ) مـنـ التـصـدـيقـ الـعـمـليـ لـهـذـهـ الـحـجـةـ وـالـتـطـبـيقـ الـفـعـلـيـ لـهـاـ ، وـهـوـ مـاـ أـجـرـاهـ اللـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ يـدـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ ، وـهـذـاـ وـجـهـ دـقـيقـ مـنـ وـجـوهـ عـلـاقـةـ هـذـاـ الـقـسـمـ بـالـسـيـاقـ الـعـامـ لـلـسـوـرـةـ الـتـيـ وـرـدـ فـيـهـاـ .

وـيـأـتـيـ بـعـدـ ذـلـكـ الإـخـبـارـ بـإـيـاتـ مـوـسـىـ وـهـارـونـ ﴿... الفـرقـانـ وـضـيـاءـ وـذـكـراـ لـلـمـتـقـينـ﴾ ^(٤) ، وتـلـتـفـتـ الـآـيـاتـ إـلـىـ كـفـارـ مـكـةـ : «وـهـذـاـ ذـكـرـ مـبـارـكـ أـفـأـنـتـمـ لـهـ مـنـكـرـونـ» ^(٥) ، وـيـعـقـبـ ذـلـكـ - دونـ فـصـلـ - حـكـاـيـةـ قـصـةـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ الـتـيـ جـاءـ فـيـهـاـ الـقـسـمـ ، وـفـيـ تـرـتـيـبـ السـيـاقـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ تـمـهـدـ لـمـاـ سـيـأـتـيـ مـنـ جـريـانـ الـقـسـمـ عـلـىـ لـسـانـ إـبـرـاهـيمـ ، يـتـوـعـدـ فـيـهـ بـالـكـيدـ لـلـأـصـنـامـ ، وـتـسـمـيـتـهـ ذـكـراـ فـيـ قـوـلـهـمـ : (سـمـعـناـ فـتـىـ يـذـكـرـهـمـ) ؛ وـذـلـكـ يـشـيرـ - فـيـ ضـوـءـ مـاعـرـفـ مـنـ رـبـطـ لـفـظـ (الذـكـرـ) بـيـنـ سـيـاقـاتـ

(١) انـظـرـ الـآـيـاتـ : ٣٧ - ٤٠ .

(٢) انـظـرـ الـآـيـاتـ : ٤١ - ٤٦ .

(٣) الآية ٤٣ .

(٤) الآية ٤٨ .

(٥) الآية ٥٠ .

هذه السورة - إلى أن موقف إبراهيم من الأصنام وهو الذي وصفه بالذكر ، إنما هو حجة على هؤلاء الكافرين الذين أعرضوا عن الذكر لما جاءهم ؛ فكأن السياق يومئـ إلى أن هذه الأصنام إذا كان لها حظ من الذكر فسيكون من جنس مافعله إبراهيم عليه السلام وما فعله محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو تنبـيه لأولئك الذين « ما يأتيـهم من ذكر من ربـهم محدث إلا استمعـوه وهم يلـعبون »^(١) ، أولئك الذين أعرضوا عن ذكر الله الواحد الأحد .

فانظر إلى السياق الخاص الذي ورد فيه القسم : كيف ارتبط بالسياق العام للسورة من هذا الوجه . ولعل أوضح إشارة إلى كون الذكر من الأمور الهامة التيبني عليها السياق في هذه السورة - ورود هذا اللـفـظ ومشتقاته في غير موضع منها وشيوـعـه فيها شـيـوعـاً يـلـفتـ المـتـأـملـ (٢) .

ومن جميع ماتقدم يتضح أن عناصر هذا القسم قد جاءـت متسقة مع موقعـه ، لا في نحوـه العام فحسب ، بل في دقـائقـه التي وقـفـناـ عـلـىـ كـثـيرـ منـهـاـ بـتـتـبعـ الخـصـوصـيـاتـ والـعـلـاقـاتـ الـمـتـدـاخـلـةـ فيـ السـيـاقـ كـلـهـ ، وجـاءـتـ قـبـلـ ذـلـكـ مـنـاسـبـةـ لـلـمـقـسـمـ عـلـيـهـ ، والمـقـسـمـ لـهـمـ ، وـمـقـامـ القـسـمـ ، وـمـوـافـقـةـ لـمـقـتضـيـاتـ الـأـحـوالـ الـمـتـعـلـقـةـ بـجـمـيعـ ذـلـكـ .

(١) الآية ٢ .

(٢) ورد لـفـظـ الذـكـرـ مـصـرـحاـ بـهـ أوـ مـشارـاـ إـلـيـهـ فـيـ الـآـيـاتـ : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

الموضع الثاني : قسم المشركين في النار - ومنهم قوم إبراهيم - في سياق ندمهم على الشرك :

قوله تعالى : « قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسوكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون » (١) .

جاء هذا القسم فيما ورد في سورة الشعرا من وصف أحوال يوم القيمة وما يكون فيه من اختصار المشركين في جهنم : حيث يقسمون معترفين بضلالهم المبين الذي كانوا عليه في الدنيا .

وهذا الوصف الذي جاء في سياقه القسم متصل بما جاء قبله في السورة نفسها من حكاية قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فالقصة تبدأ من قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون * قالوا نعبد أصناماً فننظر لها عاكفين » (٢) ، ثم يأتي بعد حكاية قصته مع قومه دعاؤه واستغفاره لأبيه ، وبهذا الدعاء يتصل وصف أحوال القيمة على النحو التالي : قال تعالى : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم * وأذلت الجن للمتقين * ويرزت الجحيم للغاوين * وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرنكم أو ينتصرون * فكبكروا فيها هم والغاون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسوكم برب العالمين » (٣) ؛ فالقسم كما هو واضح واقع في سياق وصف ما يكون من أحوال يوم القيمة ، وهذا الوصف ذو صلة بدعاء إبراهيم عليه السلام في نهاية قصته مع قومه .

(١) سورة الشعرا ، الآيات ٩٦ - ٩٩ .

(٢) سورة الشعرا ، الآيات ٦٩ - ٧١ . وانظر الآيات ٧٢ - ٧٧ .

(٣) سورة الشعرا ، الآيات ٨٦ - ٩٨ . وانظر السياق كاملاً في : الآيات ٦٩ - ١٠٤ .

وقيل: إن هذا الوصف المبدوء بقوله : « يوم لا ينفع مال ولا بنون »^(١) منقطع عن قول إبراهيم في آخر القصة التي سبقت : « ولا تخزني يوم يبعثون » يوم لا ينفع ...^(٢) ، وأن هذا الوصف المبين لأحوال القيامة « إخبار من الله عز وجل تعلق بصفة ذلك اليوم الذي وقف عنده إبراهيم عليه السلام في دعائه ألا يخزى فيه »^(٣) . والأظهر أنه متصل بما قبله من كلام إبراهيم عليه السلام : فهو - كما يرى بعض المفسرين - « متعلق بقول إبراهيم ، أخبر بما أعلمته الله من أحوال يوم القيمة وما يكون فيها من حال قومه »^(٤) .

وهذا يعني أن القسم وارد في سياق قصة إبراهيم عليه السلام ، ويؤيده ما سلف نسف عليه من علاقات دقيقة بين هذا القسم والقسم السابق الذي ورد في سورة الأنبياء محكيًا عن إبراهيم عليه السلام في قصته مع قومه أيضًا ، وهو قوله تعالى : « وتالله لا يكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدربين »^(٥) .

والقسم الوارد في هذا الموضع مسند إلى الغاوين - من قوم إبراهيم عليه السلام وغيرهم - الذين أشركوا وعبدوا مع الله تعالى أو من دونه الأصنام ، يقسمون بهذا يوم القيمة وهم يختصمون في نار جهنم بعد أن كثبوا وأصنامهم فيها ، وهم يوجهون الخطاب إلى ماعبدوا من دون الله تعالى : يقول الطبرى : « يقول الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله : تالله إن كنا لفي ذهاب عن الحق حين نعد لكم برب العالمين »^(٦) . ومن هذا يظهر المقسم في هذا الموضع والمقسم له والمقسم عليه ومناسبة القسم .

(١) سورة الشعرا ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة الشعرا ، الآية ٨٧ فما بعدها .

(٣) نقل أبو حيان هذا عن ابن عطية ، انظر البحر المحيط ٢٨/٧ ، وانظر التسهيل لعلوم التنزيل ٨٧/٣ .

(٤) البحر المحيط ٢٨/٧ ، وانظر : روح المعاني ١٠٠/١٩ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ .

(٦) تفسير الطبرى ٥٥/١٩ .

والأصنام ليست مما يصح أن يخاطب ، وذلك أن حالها - كما يرى الرازي - لا يخلو من أحد وجهين : فإما أن تكون جماداً يعبد بها عابدوها ، فلا يصح أن تخاطب ، وإنما أن يحييها الله تعالى في النار ، وذلك لا يجوز لأنه لا ذنب لها ؛ «فالأقرب أنهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة » ^(١) ، وقال البيضاوي : « الخطاب للمبالغة في التحسر والنداة » ^(٢) ، وذهب إلى مثل ذلك أبو السعود والألوسي ولكنهما ذكرا أن خطابهم لمعبودهم يتأتى على أنه سبحانه يعطيها القدرة على الفهم والنطق ^(٣) .

والحق أن كيفية تأتي خطابهم لأصنامهم مما يدخل في علم الله تعالى ، وهو قادر على كل شيء سبحانه . وسواء أكانت الأصنام في ذلك اليوم تسمع منهم ذلك الخطاب أم لا تسمعه ، فإن المعاني التي ذكرها المفسرون هنا صالحة لأن يدل عليها الخطاب ، وعلى هذا فإن الغرض من القسم الصادر منهم في هذا المقام الاعتراف بالخطأ ، والمبالغة في الندم ، والتحسر على شركهم في الحياة الدنيا وإقامتهم عليه حتى أوردتهم جهنم التي يقسمون فيها الآن .

وفي ضوء هذا يعلم أن التأكيد القسمي هنا لا يراد به تأكيد المقسم عليه للمخاطب ، لأن المخاطبة أصلاً غير مقصودة ، ولا يراد بها تأكيد المقسم عليه لأنفسهم على وجه التحقيق ؛ لاستغنانهم عن ذلك بما يشاهدونه من حقائق ذلك اليوم ، وإنما يراد به تأكيد الحسنة والندرة في نفوسهم في ذلك الموقف ، فهو صورة ناطقة بما في النفس من تلك المعاني .

ويجوز أن يكون توجيههم الخطاب لأصنامهم « من توجيهه المتندم الخطاب إلى الشيء الذي لا يعقل ، وكان سبباً في الأمر الذي جر عليه الندامة ، بتتنزيله منزلة من

(١) التفسير الكبير ٤٢/٤٢ .

(٢) تفسير البيضاوي ص ٤٩١ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٦/٤٢ ، وروح المعاني ١٩/١٣ .

يُعقل ويسمع . والمقصود من ذلك المبالغة في توبیخ نفسه »^(١) . وإذا كان الخطاب من هذا الباب فإن من أغراض التأكيد القسمى الصادر من المشركين في هذا الموضوع قوة المبالغة في توبیخ أنفسهم ؛ لأن المبالغة حاصلة من مجرد الخطاب الجارى على هذا النحو ، فیأتي القسم في هذا الموضع ليزيد من دلالتها .

ويتسق هذا المعنى مع وقوع القسم موقع الجواب عن سؤال الغرض منه التوبیخ^(٢) وهو قوله تعالى : (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُنْلِهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)^(٣) ؛ فلما لم يكن المقصود بهذا السؤال طلب الجواب ، بل كان الغرض منه توبیخهم ، ردوا عليه بعد أن كَبَّبُوا في نار جهنم هم وأصنامهم بالقسم على ما يفید توبیخهم لأنفسهم ، كأنهم يؤکدون المعنى الذي سبق له السؤال ، ويعربون عن استحقاقهم لأقصى درجات التوبیخ .

ويرى البقاعي أن القسم مترب على هذا السؤال من جهة أخرى ، وهي أنه لما علم بكمببائهم في النار مع أصنامهم « أَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ قَوْلٍ فِي جَوَابٍ اسْتِفَاهُمْ توبیخاً ، وكان من المعلوم أن الإنسان مطبوخ على أن يقول في كل شيء ينويه ما يشيره له إدراكه مما يرى أنه يبرد من غلته ويشفى من علته تشوّف السامع إلى معرفة قولهم بعد الكبكة فاشيرا إلى ذلك بقوله : (قَالُوا)^(٤) ، أَيْ : قَالُوا تَالَّهُ إِنْ كَنَا لَفِي ضلالٍ مُّبِينٍ .

وواضح من هذا النص ما يعبر عنه القسم من حركة نفسية عنيفة فرضها المقام الذي أقساموا فيه ، وملابسات القضية منذ أن كانوا في الدنيا يعبدون هذه الأصنام إلى أن بان لهم ضلالهم ورأوا سوء العاقبة في جهنم .

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٥٤ .

(٢) ذكر الغرض من هذا السؤال البقاعي وأبو السعود ، انظر : نظم الدرر ١٤/٥٨ ، وتفصیر أبي السعود ٦/٢٥١ .

(٣) سورة الشعرا ، الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) نظم الدرر ١٤/٥٨ .

وهذه الحركة النفسية تصور - مع ما استشعرته نفوس هؤلاء المشركين من الغم والمحسنة والندم - تصور مدى ما يشعر به هؤلاء المشركون في تلك اللحظة من عداوة وبغضناه تجاه أصنامهم التي طالما عبدوها وقدسواها ورجوا نفعها وشفاعتها في ذلك اليوم ، وعلى هذا فإن القسم يقع هنا موقعاً نفسياً عنيفاً ، يمثل تحولاً مفاجئاً وقوياً من حال إلى الحال التي تناقضها ، وهذه القوة والمفاجأة في التحول واحدة من الدلالات الدقيقة التي جاء القسم معبراً عنها في هذا السياق .

ويمكن النظر إلى أثر هذا الموقف النفسي في أسلوب المحدثين في هذا المقام من خلال تكاثر العناصر اللغوية المؤكدة التي اشتمل عليها كلامهم ؛ فبإضافة إلى القسم - أقوى عناصر التأكيد - جاء في المقسم عليه وهو قوله : «... إن كنا لفي ضلال مبين» إذ نسوكم برب العالمين^(١) كثير من عناصر التأكيد والتحقيق ؛ ففيه (إن) المخففة من الثقلية - على رأي البصريين^(٢) - ، واسمها ضمير الشأن محدود وهو من المؤكّدات ، واللام الفارقة في قوله : (لفي) ، والاستعارة التبعية فيحرف في قوله : (لفي ضلال) ، ووصف الضلال بالمبين ؛ أي واضح لا يحتاج إلى من يبيّنه ، ويضاف إلى ذلك التعبير بصيغة المضارع في قوله : (نسوكم) ، لاستحضار موقفهم مع أصنامهم في الدنيا ، يقول أبو السعود : «وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أي : تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام في استحقاق العبادة برب العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلّهم وأعجزهم»^(٣) .

(١) الآية ٩٧، ٩٨.

(٢) يرى الكوفيون أن (إن) هنا نافية ، واللام يعني (إلا) : أي ما كنا إلا في ضلال مبين . ورأى البصريين أولى عند كثير من المفسرين . انظر على سبيل المثال : البحر المحيط ٢٧/٧ ، وتفسير أبي السعود ٢٥٢/٦ ، وفتح القدير ٤٠٧/٤ ، وروح المعاني ١٠٣/١٩ . وقيل: إن (إن) يعني : لقد ، وهو رأى الفراء وبعض المفسرين . انظر : تأويل مشكل القرآن ص ٥٥٢ ، وزاد المسير ١٣٢/٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٥٢/٦ ، وانظر : روح المعاني ١٠٣/١٩ .

والتأكيد القسمي مع ما اشتمل عليه جوابه من المؤكّدات يعبر - بالإضافة إلى مasic - عن رسوخ الأمر المقسم عليه في نفوس هؤلاء المشركين في الموقف الذي يقسمون فيه ؛ وذلك أنهم رأوا فيه ما يثبت أنهم قد كانوا في ضلال مبين في تسوية تلك الأصنام برب العالمين ، وما يجعل هذا الأمر حقيقة ثابتة تستأهل أن يعبروا عن ثبوتها بأسلوب القسم ، وأن يأتوا في جوابه بجميع تلك الصور المفيدة للتأكد .

ولما كان الأمر المقسم عليه اعترافاً ببطلان ما كانوا عليه من الشرك قرروا معه في الأسلوب ما يدل على إيمانهم بعقيدة التوحيد الصحيحة ، فجاءوا في المقسم به باسم الحالـة سبحانـه لما فيه من خصوصـيات تـناسبـ هذا الاعـتـراف ؛ إذ هو الاسم المناسب للتعبير عن الإيمـان بـوـحـدـانـيـته سبحانـه ، وهذا وجـهـ من وجـهـ التـنـاسـبـ بين المـقـسـمـ بهـ والمـقـسـمـ عـلـيـهـ ، تـرىـ فيـهـ الحـقـيقـةـ المرـادـ إـثـبـاتـهاـ بـالـقـسـمـ مـؤـكـدـةـ مـرـتـينـ :ـ مـرـةـ فيـ المـقـسـمـ بهـ بـاـيـضـ منهـ منـ الإـيمـانـ بـالـتوـحـيدـ ،ـ وـمـرـةـ فيـ المـقـسـمـ عـلـيـهـ بـاـيـضـ منهـ منـ الـاعـتـرـافـ بـبـطـلـانـ ماـكـانـواـ عـلـيـهـ مـنـ الشـرـكـ ،ـ وـبـهـذاـ تـكـنـفـ الـقـضـيـةـ الـتـيـ جـاءـ لـهـ الـقـسـمـ مـنـ جـمـيعـ جـهـاتـهـ ،ـ فـالـقـضـيـةـ تـثـبـتـ أـلـاـ بـالـقـسـمـ بـهـ ثـمـ يـنـفـيـ ضـدـهـ بـالـقـسـمـ عـلـيـهـ .

وهـذـ الضـرـبـ مـنـ التـوكـيدـ قـدـ لـوـحـظـ مـثـلـهـ فـيـ جـمـيعـ المـوـاضـعـ الـتـيـ يـكـونـ فـيـهاـ المـقـسـمـ عـلـيـهـ باـسـمـ الـحـالـةـ ذـاـ عـلـاقـةـ بـإـثـبـاتـ عـقـيـدةـ التـوـحـيدـ وـبـطـلـانـ الشـرـكـ ،ـ وـوجـهـ التـأـكـيدـ أـنـ فـيـ هـذـاـ الـاسـمـ مـعـانـيـ التـفـرـدـ وـالـخـصـاصـ مـاـيـنـاسـبـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ .

وـالـقـسـمـ باـسـمـ الـحـالـةـ فـيـ هـذـاـ المـوـاضـعـ يـنـاسـبـ الـمـقـامـ الـذـيـ يـقـسـمـ فـيـهـ هـؤـلـاءـ الـمـشـرـكـونـ،ـ وـذـلـكـ أـنـ الـاسـمـ الـجـامـعـ لـمـعـانـيـ أـسـمـاءـ اللـهـ الـحـسـنـيـ وـصـفـاتـهـ الـتـيـ ظـهـرـ لـلـمـشـرـكـينـ كـثـيرـ مـنـهـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ ؛ـ فـنـاسـبـ الـقـسـمـ بـهـ الـمـقـامـ الـذـيـ يـصـدرـ فـيـهـ هـذـاـ الـقـسـمـ مـنـهـمـ.ـ وـقـدـ مـضـىـ الـحـدـيـثـ عـنـ مـنـاسـبـةـ الـقـسـمـ بـهـذـاـ الـاسـمـ خـاصـةـ لـمـقـامـ حـدـيـثـ الـمـشـرـكـينـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ ؛ـ لـمـ يـتـكـشـفـ فـيـهـ مـنـ حـقـائـقـ الـأـلوـهـيـةـ وـمـعـانـيـ الـأـسـمـاءـ وـالـصـفـاتـ لـأـوـلـئـكـ الـمـشـرـكـينـ ،ـ وـذـلـكـ مـاـسـبـقـ فـيـ تـفـسـيرـ عـلـاقـةـ الـقـسـمـ بـهـذـاـ الـاسـمـ الـأـعـظـمـ بـاـيـضـ عـلـيـهـ

المشركون في قوله تعالى : « ... والله رينا ما كنا مشركين »^(١) ، وبين القسمين تشابه من جهة أن المشركين في كل منهما يتنصلون من الشرك والشركاء ، ولهذا اتحد المقسم به فيهما .

وفي صورة المقسم به هنا حرف التاء ، وقد ذكرت في تفسير الغرض من التوكيد القسمي في هذا الموضع ما يصلح أن يكون تفسيراً لدلالات اجتلت هذه الصيغة من أجلها ؛ وذلك أن هذا الضرب من القسم : (تالله) - كما رأينا في موضع سابقة - يكثر مجئه في مواقف الانفعال النفسي ، فهو قسم ذو علاقة بمعانٍ نفسية وحركات انفعاليه ، وقد وضح بما سبق أن هؤلاء المشركين الذين يقسمون في هذا الموضع في موقف نفسي عنيف ، وفي وضع يجعل الخطاب الذي يصدر عنهم ذا نغمة انفعالية ؛ فهم يتحسرون ويندمون ويغضبون ويوبخون ويعترفون بالخطأ ، وكل ذلك مما تأتي له هذه الصيغة في أسلوب القسم كما وضح في موضع سابقة .

وثمة أيضاً معنى التعجب الذي لايكاد يغيب عن سياق هذه الصيغة القسمية ؛ ووجهه الظاهر هنا هو أن هؤلاء المقسمين يتعجبون - في ضوء ما عرّفوا من الحق يوم القيامه - من جعلهم الشركاء في موقع الماثلة مع رب العالمين سبحانه ، ويرون أن

(١) سورة الأنعام ، الآية ٢٣ ، وانظر ص ٥٥٣ من هذا البحث .

هذا الأمر هو الغاية في الضلال ، وأنه ضلال مبين : أي واضح لكل أحد ، ويؤكدون هذه الحقيقة بما سبقت الإشارة إليه من وسائل التوكيد لل ilma بالغة في إظهار تعجبهم من الواقع فيه مع وضوحه الذي لا يخفى على أحد ، ومع وضوح دلائله التي كانت عندهم في الدنيا ، فهم هنا يتعجبون من وقوع الشرك منهم .

وأتفقاً مع هذا المعنى جاء وصفهم للضلال بأنه مبين ؛ يقول أبو السعود : « ووصفهم له بالوضوح للإشباع في إظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطئهم في رأيهم مع وضوح الحق ، كما ينبغي عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المثلثة بالتعجب » (١) .

وقد ذكر ابن عاشور أن التعجب هنا « من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لاتغنى عنهم شيئاً ... وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشي عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مسكة من عقل » (٢) . وعلى هذا يكون التعجب من سخف ما كانوا عليه في ذلك الشرك الذي جعلهم يتعلقون بتلك الحجارة . ويزيد من وضوح هذا المعنى وحسن تأمله في ضوء ما ورد من مشاهدتهم لأولئك الشركاء ، وقد كتكبوا هم وإياهم في نار جهنم ؛ فظهر لهم فرط ضلالهم في اعتقادهم نصرتها لهم حين رأوا أنها لا تدفع عن نفسها شيئاً ، فعرفوا مقدار حقارتها .

ولجيء التاء في هذا الموضع علاقة بالمقام الذي ورد فيه القسم وما يعبر عنه من تلك الحال العجيبة التي يتحول فيها موقف هؤلاء المشركين من أصنامهم ومعبدיהם من دون الله تعالى ، من الحب والتقديس والرجاء إلى البغض والازدراء والخيبة ، ومن قوة الاتصال والولاء إلى قوة الانفصال والبراء ، وقد ذكرت قبل قليل أن العناصر المؤكدة التي اجتمعت في السياق تناسب المقام المعبّر عنه من جهة ما فيه من القوة

(١) تفسير أبي السعود ٢٥٢/٦ . وانظر : روح المعاني ١٠٣/١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥٣/١٩ .

والمفاجأة ، وأضيف هنا أن التاء تناسب أيضاً هذا الموقف من جهة مافيه من أمور عجيبة ، ومن جهة غرابته بالنسبة لما كان من حالهم مع أصنامهم في الدنيا .

ومن هذا يدرك أيضاً وجهه من وجوه ملائمة هذه الصيغة القسمية للسياق الخاص الذي وردت فيه ، وهو ما حكى في ذلك الأحوال العجيبة للكافرين يوم القيمة ، واحتضانهم في جهنم بعد سؤالهم عن شركائهم وكبكيتهم وإياهم في نار جهنم ، وما يكون في ذلك الاختصار من التعبير عن موقف عجيبة منها القسم الذي ورد هنا .

أما مناسبة المقسم به للسياق الذي جاء فيه فظاهره بما سبق الحديث عنه في قوله تعالى : «**وَتَاللهِ لَا كِيدَنْ أَصْنَامُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مدِيرِين**»^(١) ؛ لأن هذين القسمين يشتركان في مجئهما في سياق ماجاء من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه - في سوري الأنبياء والشعراء - وما جاء في ذلك من دعوته لهم إلى التوحيد وإبطاله لما هم عليه من الشرك ، والقسم باسم الجلالات مناسب لهذا السياق ، وكثيراً مامر معنا أن القسم بهذا الاسم يكاد يختص بالموضع ذات العلاقة بسياق الحديث عن الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وهذا يضاف أيضاً إلى علاقته بالقسم عليه المتصل بهذه القضية .

والقسم الصادر من المشركين في هذا المقام - وبخاصة مشركي قوم إبراهيم عليه السلام - يتتساوق مع قصته التي حكى قبل القسم من جهات متعددة ؛ فمن ذلك أن في دعوة إبراهيم عليه السلام لهم في هذه القصة إعلان العداء على كل ما يعبدونه من دون الله تعالى - سبحانه - أو يشركون معه في العبادة ، وذلك قوله : «**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِين**»^(٢) ، وقد جاء القسم من المشركين يوم القيمة موافقاً لهذا الأمر في كونه إعلاناً للبراءة من أولئك الشركاء .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ ، وانظر الموضع السابق .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٧٧ .

وما يربط القسم بالقصة أن موقفهم في الآخرة من أصنامهم مبني على مارأوه من صدق ما أخبروا به في الدنيا من عدم نصر تلك الحجارة لنفسها ، فهى أولى ألا تنصر غيرها ، وهو ما جاء مصراً به في قول إبراهيم لهم في الدنيا : « قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون »^(١) ، ثم جاء على سبيل تذكيرهم بهذه الحجة في سؤال توبيخي قبيل آية القسم : « وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينتصرونكم أو ينتصرون »^(٢) ، فكان ذلك كله تمهيداً وتهيئة لصدور هذا القسم معبراً عن شدة التحسر والندم ، وبهذا تتضح جهة من نظم هذا القسم مع ما جاء قبله في قصة إبراهيم عليه السلام . وذكر هذا الأمر في القصة ثم التذكير به في وصف حالهم يوم القيمة وتبكيتهم مما يدل على أن هذا الوصف - كما ذكرنا أول الأمر - داخل في كلام إبراهيم عليه السلام .

ولهذا الموضع القسمي صلة دقيقة بالسورة التي ورد فيها ، وذلك أن سورة الشعرا تتحدث - في مجملها - عن قضية ورود الآيات البينات من الله تعالى وإعراض المكذبين عنها في كل عصر وقادتهم في الكفر والشرك على الرغم من وضوح تلك الآيات في الدلالة على وجود الله تعالى وتوحيده ، وبيان مانالهم من عذاب الله تعالى في الدنيا ، وحمل كفار مكة على الإيمان بالكتاب المبين وما تضمنه من الرسالة .

وقد قامت السورة في سبيل بسط هذا الأمر على افتتاح ذكر فيه إعراض المشركين في مكة عن آيات الكتاب المبين وتكذيبهم بها^(٣) ، ثم تلا ذلك عرض لسبعين قصص من قصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم ؛ وهي قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وقد روعي في هذه القصص التأكيد على

(١) سورة الشعرا ، الآية ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) سورة الشعرا ، الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) انظر الآيات : ١ - ٩ .

إظهار إعراض الكافرين عن آيات الله البينات ^(١) ، وذلك يشير إلى الغرض الرئيس في السورة : ثم التفتت السورة بعد ذلك إلى خطاب كفار مكة مخصصة الحديث عن إثبات مصدر القرآن الكريم ، ودعوتهم إلى الإيمان به وبما جاء فيه من الدعوة إلى التوحيد قبل أن يأتيهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة .

ولما كان هذا هو الغرض الرئيس في السورة جاء الفصل بين كل قصة وأخرى بقوله تعالى : «إن في ذلك لآية وما كان أكثراهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ^(٢) » ، للتنبيه على الغرض من سوق هذه القصص ، وهو الغرض الرئيس للسورة ، وهو أن الكافرين لا يؤمنون بآيات الله تعالى مع وضوح دلالتها على الحق وكفايتها لهدائهم ، ولكن الله تعالى عزيز في انتقامه من أراد منهم تعجيل عقوبته في الدنيا كما فعل بالأمم السابقة ، رحيم في تأجيله عقوبة كفار مكة وإمهاله لهم .

والقسم في هذه السورة ذو صلة وثيقة بالمعنى الرئيس فيها ؛ وذلك أنه قسم مسند إلى أولئك المشركين الذين كانت تأتيهم آيات الله تعالى البينات ، يقسمون بالله تعالى على أنهم كانوا في ضلال مبين إذ لم يتبعوا الرسل ولم يذعنوا للحق المبين ؛ فالحديث عن الكتاب المبين في صدر السورة وإعراض الكافرين عنه ، وما تلا ذلك من ذكر الآيات البينات التي أجرها الله تعالى على يد رسليه في القصص التي وردت في

(١) انظر الآيات : ١٠ - ١٩١ .

(٢) الآية ٨ ، ٩ عقب الحديث عن كفار مكة وإعراضهم عن الكتاب المبين . وانظر مواضع تكرارها في الآيات ٦٧ ، ٦٨ عقب قصة موسى عليه السلام ، ١٠٣ ، ١٠٤ عقب قصة إبراهيم عليه السلام ، ١٢١ ، ١٢٢ عقب قصة نوح عليه السلام ، ١٣٩ ، ١٤٠ عقب قصة هود عليه السلام ، ١٥٨ ، ١٥٩ عقب قصة صالح عليه السلام ، ١٧٤ ، ١٧٥ عقب قصة لوط عليه السلام ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ عقب قصة شعيب عليه السلام .

السورة ، وشروع فكرة الإبانة على وجه الإجمال ^(١) ، كل ذلك يناسب اعتراف المشركين يوم القيامة بضلالهم المبين الذي كانوا عليه في الدنيا : ويشير إلى أن من لم يؤمن بتلك الآيات المبينة كان لا محالة في ضلال مبين يضارع إبانة تلك الآيات للحق ، وفي ذلك إيماءً للكافرين في كل عصر بأنهم إذا أعرضوا عن آيات الله المبينة ، فسيأتي عليهم يوم يعترفون بما هم فيه من الضلال المبين ، مويخين أنفسهم ونادمين على عدم الإذعان لما كان مبيناً واضحاً .

ومن هذا تظهر مناسبة القسم - على وجه الإجمال - لسورته التي ورد فيها ، واتساقه معها في التعبير عن الغرض الرئيس فيها .

ومن وجوه ارتباط القسم بالسورة ما يلحظ من علاقة قسم المشركين يوم القيامة وما يعبر عنه من موقفهم تجاه أصنامهم ومعبوديهم ، موقف السحرة من فرعون ، وهو ما ورد في أولى قصص هذه السورة ، وجهة العلاقة أن موقف السحرة من فرعون يمثل أنموذجاً آخر لما حدث في القسم الذي بين أيدينا ، وذلك أنهم كانوا يعظمون فرعون ويتخذونه إلهًا كما كان يفعل عامة قومه ، وبلغ بهم ذلك حدًّا جعلهم يقسمون بعذته

(١) من مظاهر شروع هذه الفكرة في السورة ماجاء في لغتها من تكرار وصف (المبين) فقد افتتحت بقوله : (طسم . تلك آيات الكتاب المبين) الآية ١ ، ٢ ، وجاء في قصة موسى عليه السلام في وصف ماسيأتي به عن ربه : (قال أو لو جئتكم بشيء مبين) الآية ٣٠ ، وفي وصف الثعبان في قوله : (...) فإذا هي ثعبان مبين) في الآية ٣٢ ، ثم جاء في قسم المشركين في وصفهم للضلال ، ثم جاء في وصف التي هي ثعبان مبين (بلسان عربي مبين) الآية ١٩٥ ، وجاء خلال السورة تكرار التأكيد على إبانة الآيات لغة القرآن وأنه (بلسان عربي مبين) الآية ١٩٥ ، وذلك قوله : (إن في ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين ...) وقد سبق ذكر مواضع تكرار ذلك وذلك كله يناسب الغرض الرئيس في السورة ، ومن هذا يتبيّن أن القسم قد ربط بالسورة أيضاً من خلال استعمال صفة (المبين) وكأنها لنقطة تشير إلى وجه علاقة القسم بالسورة وجهة صلت به ، وهذا اتساق مع النسق اللغوی العام في السورة يعنى اتساق القسم مع السورة في غرضها الذي بنيت عليه .

فيما حكاه الله تعالى عنهم في قوله : «**فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِّيَّهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةُ فَرْعَوْنِ إِنَا لَنْحِنَ الْفَالِبُونَ**»^(١) ، ثم مالبشا بعد أن رأوا الآيات التي أجرها الله تعالى على يد موسى عليه السلام ، مالبشا أن تحول موقفهم من معبودهم إلى النقيض ، من أقصى درجات التعظيم والولاء والاهتمام إلى أقصى درجات الاحتقار والبراء وعدم المبالغة ، وهذا الموقف يتتساوق مع الموقف القسمي الذي يقسم فيه المشركون يوم القيمة معلنين تحول موقفهم من معبودتهم ؛ لأن الموقفين يمثلان أنموذجين من مواقف الغاوين تجاه معبوداتهم : أحدهما يكون في الدنيا حيث ينفع الاعتراف والإيمان ، والآخر في الآخرة يوم لا «... ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»^(٢) . واضح من هذا الارتباط الوثيق بين هذه الأمور والسياق العام للسورة .

وهذا من التناسب البديع الدقيق بين القسمين الوارددين في هذه السورة ، وهو يؤيد وجود علاقة خاصة بين مواضع القسم في القرآن الكريم ، وقد أشرت في بعض الموضع السابقة إلى احتمال وجود سياق خاص لهذا الأسلوب في القرآن كله ، وذكرت بعض ملامح هذا السياق في سبيل محاولة الكشف عن خصائصه ودقائقه .

وكما أن القسم يرتبط مع السورة في غرضها الرئيس ، وموضوعاتها الدقيقة ، ومواقفها الخاصة ؛ فإنه يرتبط بها أيضاً من جهة اشتتماله على صيغة تجمع بين اسم الجلالة وتاء القسم ، وذلك أن في السورة من الأمور العجيبة والقصص الغريبة والأحداث النادرة ما يناسب هذه الصيغة ، ومن أوضح ذلك غرابة ادعاء فرعون الألوهية ، ومعجزات موسى عليه السلام وقصته مع السحرة وما جاء من صور السحر العجيبة ، ثم معجزة انلاق البحر ، ثم ماتضمنته القصص المذكورة من وجوه الهلاك العجيبة النادرة في نوعها وكيفيتها ، التي أهلك الله تعالى بها المكذبين بدلائل الوحدانية التي جاء بها الرسل ، ففي جميع ذلك غرابة ذات صلة بقضية التوحيد بوجه

(١) سورة الشعرا ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٥٨ .

من الوجه ، ولهذا جاءت صيغة القسم في هذا الموضع ذات نسق يجمع بين اسم الجلالة وتأء القسم .

ومن وجوه اتساق صورة القسم مع السورة أنها سورة يتكرر فيها قوله تعالى : (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) ^(١) على سبيل المبالغة في التعجب من تكذيب الكافرين ، مع ما عندهم من الدلائل الواضحات للبيانات ، والقسم المحكي عن المشركين يوم القيمة فيه تعجب من هذا الأمر نفسه ، ولهذا جاءت صيغة (تالله) في صورة هذا القسم ، وهذا تناسب دقيق جداً .

وبعد ، فقد رأينا في هذا الموضع دقة اختيار العناصر اللغوية فيه ومناسبتها لغرض المتكلمين وللمقام الذي يقسمون فيه ، وتعبير تلك العناصر عن حركة نفوسهم في ذلك المقام ، ثم وقفنا على بعض خصوصيات اختيار المقام به وصيغة القسم في هذا الموضع ، ووجه اختصاصها بالمقام عليه ، وبالمقام ، وبالسياق الخاص الذي جاء فيه القسم ، ثم مناسبة جميع عناصر القسم للسياق العام للسورة واتساقها مع أدق الدلالات التي اشتملت عليها السورة ، وكل ذلك يشير إلى أن هذا القسم قد جاء في اختيار عناصر أسلوبه بما يناسب جميع ذلك ؛ فهو - على تعدد علاقاته مع غيره في السورة - يفي بدلالات الموضع الخاص والموقع العام في بلاغة معجزة يظهر بها وجه اختصاص هذا الموضع من مواضع القسم في القرآن الكريم بالموضع الذي ورد فيه ، وعلاقته الوثيقة والدقيقة به .

(١) تقدم ذكر مواضع ورود هذه الآية في السورة .

العلاقة بين قسم إبراهيم عليه السلام وقسم المشركين :

الذي دعا إلى محاولة البحث في وجوه الارتباط بين هذين القسمين هو ورود قسم المشركين في سياق قصة إبراهيم عليه السلام من سورة الشعراء ، ومعنى هذا أن القسمين يرددان في سياق واحد ؛ وهذا يلفت المتأمل إلى ضرورة تتبع ما بين القسمين من صلات .

وأهم وجوه العلاقة بين هذين القسمين هو كون قسم المشركين الذي حكي عنهم وهم يختصمون في النار يصدر أيضاً من قوم إبراهيم عليه السلام ، بل ربما كان لهم مزيد اختصاص به ؛ لأنه يرد في سياق ماجاء من قصتهم معه في السورة نفسها (سورة الشعراء) وبهذا يكون القسم الصادر من المشركين في قوله تعالى : « قالوا تالله إن كنا لفي ضلال مبين ...) (١١ الآيات ، من مقول أولئك الذين كان يدعوهم إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده ؛ فلم يستجيبوا .

وعلى هذا فالقسم المحكي عن المشركين ذو صلة وثيقة بالقسم الذي حكي عن إبراهيم عليه السلام فيما جاء من قصته معهم في سورة الأنبياء ، في قوله تعالى : « وتألله لا يكيدن أصنامكم ...) (٢٢ ؛ وذلك أن القسم هناك قسم منه لهم بهذه الصيغة (تأللهم) يتوعد فيه بالكيد لأصنامهم في سياق دعوته لهم إلى التوحيد ، والقسم هنا قسم منهم بالصيغة نفسها على أنهم كانوا في ضلال مبين ، إذ كانوا يدعون فلا يستجيبون ، وينصحون فلا ينتصحون ؛ فقسمهم مرتبط بقسم إبراهيم أشد الارتباط .

وما يؤكد وجود هذه العلاقة مازراه من المقابلة الدقيقة بين عناصر القسمين ، وموقعيهما ، ومصدريهما ، ومكانهما ، وزمانهما ، والمقسم عليه فيهما ، والأغراض والدلائل الخاصة في كل منهما؛ وذلك أن القسم الأول صادر من إبراهيم عليه السلام

(١) سورة الشعراء ، الآية ٩٧ ، وانظر الآيات : ٩٦ - ٩٩ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ .

بصيغة (تالله) ، وهو قسم يقسم به في الدنيا في سياق دعوته لقومه إلى التوحيد ، وهو ذلك السياق الذي يثبت لهم فيه عجز الأصنام التي يعبدونها ، وكونهم ضالين في اتخاذها آلهة ، فيقول لهم في الموضع نفسه : «لقد كنتم أنتم وآباءكم في ضلال مبين »^(١) ، أما الآخر فقسم صادر في الآخرة من المشركين الذين كانوا يدعون ، في سياق تحسيرهم وندمهم ، معترفين بما نسبه إليهم إبراهيم عليه السلام من الضلال المبين ، بعد أن رأوا عجز تلك الأصنام ورأوا سوء عاقبتهم ، مقسمين بالصيغة المماثلة لقسم إبراهيم (تالله) ، وهذا تناسب بديع .

ومن وجوه المقابلة بين القسمين أن قسم إبراهيم عليه السلام قد ترتب عليه إضرام النار له لإحراقه ، فنجاه الله تعالى بقدرته فكانت برداً وسلاماً عليه ، على حين يقسم المشركون في نار جهنم التي لم ينقذهم منها تشبيتهم بما كانوا عليه من الشرك ، ولم يجدوا عند أصنامهم النصرة ، ولهذا كان مما صرحو به في السياق قولهم : «فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم »^(٢) ؛ وهو ما جاء التأكيد عليه في دعوة إبراهيم عليه السلام لهم في الموضع الأول ، وجاء أيضاً في سؤالهم عن معبوداتهم ونصرتها لهم أو لأنفسها في الموضع الآخر . وهذا وجه من الارتباط بين الموضعين - دقيق .

وبصيغة القسم المماثلة في الموضعين تختص - كما ذكر - بالمعاني النادرة والغريبة والبعيدة ، وذلك - في ضوء ما ذكر من العلاقات بين الموضعين - يشي بال موقف العجيب النادر الذي يرى فيه المشركون من قوم إبراهيم يقسمون على صحة مانسبه إليهم إبراهيم - عليه السلام - من الضلال المبين ويتنصلون من شركهم ، وهم الذين بلغ من تمسكهم بذلك الضلال أن أمروا بحرقه ؛ ففي اتحاد صيغة القسم في الموضعين ربط وثيق يشير إلى بعد ما بين موقفهم في الدنيا و موقفهم في الآخرة ، وإلى

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٥ .

(٢) سورة الشعرا ، الآية ١٠١ ، ١٠٠ .

وجه الغرابة في ذلك ، لاسيما وهم يقسمون بما أقسم به إبراهيم من قبل .

ومن عجيب النظم القرآني أنك ترى هذين القسمين يرداً - وإن كانوا متباعدين في موقعيهما من القرآن الكريم - يرداً في سياق واحد ، ويتشابهان في النسق اللغوي المقسم به ، وفي كثير من العناصر والدلائل ، وكأنهما قد ورداً في موضع واحد ، فانظر إليهما كيف تجاذباً وائتلافاً ! وهذا يشير إلى أن لواضع القسم في القرآن الكريم سياقاً خاصاً يصل بينها ، وإن تباعدت مواقعها ، وأن من شأن هذا السياق أن يهدي من تتبعه إلى كثير من خبايا هذا الأسلوب في الكتاب العظيم (١) .

وليس أدل على ذلك من أن هذا القسم الذي حكي عن المشركين - مع علاقته بموقعه وسياقه ، وبقسم إبراهيم عليه السلام - تربطه كذلك صلات وروابط وثيقة بالقسم الذي سيأتي الكلام عليه ، وهو قسم المؤمن في الجنة ، وستتناول هذا الجانب بعد دراسة القسم الصادر من المؤمن في الجنة .

(١) لقد مضى من أمثال ذلك في هذا الفصل : تتبع السياق الذي يربط بين الأقسام الأربع التي وردت في سورة يوسف ، وتحدث عناصرها وكثير من دلالات القسم فيها ، ومضى ذلك أيضاً في قسم الله تعالى بـ (تالله) في سورة النحل ، وملاءمة هذه الموضع بعضها لبعض حتى لا يمكن التخلص عن النظر إليها وفق ما بينها من ترابط وتلاطم .

رابعاً - القسم بـ (تالله) في سياق حكاية أحوال القيمة

الموضع الأول : قسم المشركين في النار :

قوله تعالى : «**تالله إن كنا لفي ضلال مبين**»^(١) ، وقد تقدم في البحث السابق الحديث عنه لعلاقته بسياق قصة إبراهيم عليه السلام .

الموضع الثاني : قسم المؤمن في الجنة :

قوله تعالى : «**قال تالله إن كدت لتردين * ولو لا نعمة ربِّي ل كنت من المحضرِين * أَفَمَا نحن بِمُبْتَدِين * إِلَّا موتتنا الأولى وما نحن بِمُعذَبِين**»^(٢) .

يأتي هذا القسم في سياق حديث المؤمنين بعضهم إلى بعض بعد أن دخلوا الجنة ؛ { فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول إِنَّك لَمَنِ الْمَصْدِقِينَ * إِذَا مَتْنَا وَكَنَا تَرَابًا وَعَظَامًا إِنَّا لَمُدِينُونَ * قال هل أَنْتُم مطلعون . فاطلع فرآه في سوءِ الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولو لا نعمة ربِّي ل كنت من المحضرِين * أَفَمَا نحن بِمُبْتَدِين * إِلَّا موتتنا الأولى ، وما نحن بِمُعذَبِين * إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لَمَثْلُ هَذَا فَلَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ }^(٣) .

وهذا قسم صادر من أحد المؤمنين في الجنة ، يخاطب به قرينه الكافر الذي كان ينكر البعث والحساب ، وكاد أن يغويه بما يزين له من الكفر ، وذلك أنه أراد أن يطلعه الله تعالى على مكانه يوم القيمة ، فأطلعه الله عليه فرآه في سوءِ الجحيم فقال له : تالله إن كدت لتردين . . . الآيات . وقيل : إن ما حكى هنا قد كان بين أخوين في الدنيا أحدهما مؤمن والآخر كافر ، وقيل : إنهما شريكان من بنى إسرائيل كان أحدهما مؤمناً متصدقاً وكان الآخر ينكر البعث والجزاء ، وقصتهما مبسوطة في

(١) سورة الشوراء ، الآية ٩٧ .

(٢) سورة الصافات ، الآية ٥٦ - ٥٩ .

(٣) انظر الآيات : ٦١ - ٥٠ من سورة الصافات .

كتب التفسير ، وقيل : القرین هو إبليس ^(١) . وأياماً كان المراد فإن دلالات القسم مبنية على أن الخطاب هنا صادر من مؤمن في الجنة ووجه إلى كافر في النار ، كان بينهما ما كان في الدنيا مما حكته الآيات .

والمقسم به هنا هو اسم الجلالة مقرنوناً بالباء : (تالله) ، والمقسم عليه المؤكد هو قوله : (... إن كدت لتردين . لولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) ، أي : لقد كدت أن تهلكني باغواتك ولكن الله تعالى وفقني للتمسك بالإسلام والإيمان ، والبعد عن قرین السوء ، وأرشدني إلى توحيده ، وأنعم علي بكوني من أهل الجنة ، ولو لا فضل الله علي توفيقه لكنت من المحضرين في العذاب مثلك ^(٢) . وقيل : إن (أحضر) لا يستعمل مطلقاً إلا في الشر ^(٣) . وقوله : (أَفَمَا نَحْنُ بِمُتَّيِّنٍ . إِلَّا مُوتَّنَا الْأَوَّلِي وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) إما أن يكون من كلامه لقرینه فهو من المقسم عليه ، والمراد به تكريمه والتنكيل به ، وإما أن يكون معاودة إلى كلامه مع جلسائه في الجنة يراد بها التعبير عن فرحة والتعرض لقرینه بالتوضيح ^(٤) ، وفي كلا الأمرين معنى يخص المقسم له هنا .

وقد جاء المقسم عليه مؤكداً بـ (إن) المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن المذوف الذي هو اسمها ، واللام الفارقة في خبرها ، وفوق ذلك أكد بالقسم باسم الجلالة وهو أقوى القسم .

والمحاطب بهذا القسم - وهو القریئن الذي رأه المؤمن في النار - لا يحتاج إلى مجرد الإخبار بهذا الأمر فضلاً عن تأكيده له واستعمال أقوى المؤكdas في

(١) انظر : معاني القرآن للفراء ٣٨٥/٢ ، ودرة التنزيل وغرة التأويل ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن ص ١٦٢ ، وتفسير البغوي ٢٨/٤ ، وتفسير ابن كثير ٩ ، ٨/٤ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٢٨/٤ ، وتفسير القرطبي ٨٤/١٥ ، والبحر المحيط ٣٦٢/٧ ، وتفسير أبي السعود ١٩٣/٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٨٤/١٥ ، وفتح القدير ٣٩٧/٤ .

(٤) تفسير البيضاوي ص ٥٩٢ ، والبحر المحيط ٣٦٢/٧ ، وانظر : روح المعاني ٩٣/٢٣ .

مخاطبته ، وهذا يعني أن لهذه المؤكّدات في هذا الموقف أغراضًا أخرى .

ويتتبع سياق هذا القسم والمقام الذي يقال فيه تظهر بعض أغراض هذه المؤكّدات ، وذلك أنه - كما يقول الزمخشري - قسم « يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله واغتباطاً بحاله وبسمع من قرينه ليكون توبيناً له يزيد به تعذيباً ، وليرحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزاجراً » (١) . وفي ضوء هذا فإن قوة التوكيد في هذا الخطاب تعبّر عن شدة تكّن الفرحة والغبطة من نفس هذا المؤمن الذي صدر عنه هذا القسم ، وتعبر أيضًا عن احتفاله الأكيد واعتداده القوي بالقسم عليه ، وهو كونه قد نجا من كيد قرينه مع مافي ذلك من الصعوبة ، ويشير التوكيد أيضًا إلى عظم شأن هذه النعمة واستحقاقها للتنبيه بها ، وذلك أنه قد اجتمع له في هذا المقام التنعم بالثواب المقيم والنجاة من عذاب الجحيم .

وقد أشار نص الزمخشري إلى أمر يدخل في أغراض هذا القسم ومؤكّداته ، وذلك أنه قسم يقال بسمع من قرينه الذي كان يزين له الكفر ، وهو يذهب في الجحيم ، وفي ذلك التأكيد توبيخ له ، وقد ذكر معنى التوبيخ في هذا الخطاب بعض المفسرين (٢) ؛ فدخول تلك المؤكّدات في مثل هذا المقام يعبر عن قوة التوبيخ والتقرير؛ لأن التقرير على ما أنكر يقع - كما يقول الخطيب الإسکافی - « إذا تحقق وحصل فيه من كفر » (٣) ، ويعبر التوكيد كذلك عن غلظته في خطاب قرينه .

ولهذا القسم والمؤكّدات التي وردت في جوابه غرض توجيهي أشار إليه الزمخشري أيضًا بقوله : « وليرحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزاجراً » (٤) ، وذلك أن ما

(١) الكشاف / ٣ / ٣٤٢ .

(٢) انظر : التفسير الكبير ١٣٩/٢٦ ، وتفسير البيضاوي ص ٥٩٢ ، والبحر المحيط ٣٦٢/٧ ، وروح المعاني ٩٣/٢٣ .

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٣٩٤ .

(٤) الكشاف / ٣ / ٣٤٢ .

في هذه المؤكّدات من الدلالة على عظم النعمة وشدة الفرج والغبطة بها ، وعلى حقاره شأن ذلك القرین وما يكون فيه من العذاب والتوبیخ والتقریع - يدفع المسلم إلى الحرص على أن ينال هذا الأمر العظيم الذي بلغ من عظمته وفرحة نائله ما صورته تلك المؤكّدات ، ويزجره عن البعد عن الإيمان الموصى إلى هذا الفوز العظيم ، وعن اتباع قرناء السوء لثلا يكون مصيره مماثلاً لما عبر عنه هذا الموقف القسمی من حال القرین وأتباعه .

ويشير البقاعي إلى غرض من أغراض هذا التوكيد القسمی والمؤكّدات التي اشتمل عليها جوابه، ذي صلة بغرابة الخبر المقسم عليه واستبعاد وقوعه ، وذلك أنه « لما كان لا يقع في فكر أنه ^(١) كان يلتفت إلى قوله ^(٢) هذا نوع التفات لأنّه ظاهر البطلان ، وأنّ هذا القائل محکوم بأنه من أهل الجنة ؛ أكد قوله إشارة إلى أنه كان يؤثر فيه قوله في كثير من الأوقات بما يزينه به الشيطان وتحسينه النفوس بالشهوات والراحة من كلف الطاعات ، وساقه في أسلوب القسم تنبیهاً على التعجب من سلامته منه ، فقال : (تالله إن كدت لتردين) أي إنك قاربت أن تهلكني وتجعلني في أرداً ما يكون من الأماكن وفي هذا التأكيد غایة الترغیب في الثبات لمن كان قریباً من التزلزل وفي المباعدة لقرناء السوء ^(٣) » .

وواضح في النص أيضاً علاقة القسم بمعنى التعجب ، وسيأتي الكلام على ذلك، وواضح فيه كذلك أن التوكيد يزيد من الترغیب في الثبات لمن أوشك على التزلزل ، ومن الترغیب في المباعدة لقرناء السوء ، وهو ما ذكرناه في الغرض التوجیهي لأساليب التوكيد في هذا السياق .

وما سبق يتضح أن للتوكيد في هذا المقام أغراضاً ترجع إلى المتكلّم تعبيراً عما

(١) أي المؤمن .

(٢) أي قول القرین الذي أخبر عنه أنه قال له : (إنك من الصدقين ...) الآيات .

(٣) نظم الدرر ١٦ / ٢٣٦ .

في نفسه من معان قد تأكّدت ورسخت ، أو أخرى يريد أن يلفت إليها سامعيه بما فيهم قرينه الكافر الذي يسمعه الآن .

ويزيد من قوّة هذه الدلالات المستفادة من اجتماع عناصر التوكيد في السياق - وقوع القسم موقع الاستئناف البياني ، وذلك أن « جملة (قال تالله إن كدت لتردين) مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنّ وصف هذه الحالة ^(١) يشير في نفس السامع أن يسأل : فماذا حصل حين اطلع ؟ فيجيب بأنه حين رأى قرينه أخذ يوبخه على ما كان يحاوله منه حتى كاد أن يلقيه في النار مثله . وهذا التوبيخ يتضمن تنديه على محاولة إرجاعه عن الإسلام » ^(٢) .

والقسم به هنا هو اسم الجلالة مقوّناً بالباء ، وستقف أولاً عند خصوصيات اختيار القسم بهذا الاسم في هذا الموضع . فمن ذلك أن المقسم به - بما فيه من الدلالة على توحيد الله تعالى - يؤكد معنى البعث والجزاء ، وهو المعنى المشترك بين القائل من أهل الجنة وقرينه الذي في النار ، وذلك أن إثبات الوحدانية يقتضي صدق الموعود به من البعث والجزاء لتلازم مابينهما ، فقضية التوحيد مرتبطة بالمعاد ، وعلى هذا فإن في ذكر هذا الاسم تذكيراً بالقضية الرئيسة التيبني على الإيمان بها أو جحدها مآل كل منهما ، فناسب أن يقسم به في موقف قد استقر فيه كل منهما في مكان جزائه .

وتأسيساً على هذا المعنى يمكن أن نرى بين عنصري القسم - المقسم به والمقسم عليه - ارتباطاً ومناسبة من جهة أن إنكار المخاطب للبعث يتضمن اتحاد المصير بالنسبة للمؤمن والكافر ، لأنهما في معتقده الفاسد يصيران إلى التراب ، ففي القسم باسم الجلالة في ذلك المقام الذي ظهر فيه بطلان ذلك تعريض بزاعم القرین التي كان يزعمها ، وتأكيد لما صار إليه ذلك الزعم من حقائق تبدى فيها عدم اتحاد المصير ،

(١) أي حالة اطلاعه على النار .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ١١٧ .

لما في هذا الاسم العظيم من معان ذات علاقة بمثل هذه الدلالات ، وكان المؤمن حين يقسم بهذا الاسم في هذا الموقف يقول لقرينه : تالله الذي لا إله إلا هو الواحد إن المصير ليس بواحد ، وإن كدت لتهلكني بإغوائك حتى أوقع فيما وقعت فيه من العذاب . وقد يكون فيه تعريض بأن طريق النجاة واحد لا ثاني له وقد كان الأولى بقرينه أن يجري هذا الحكم على هذا الطريق ، لا على مطلق المصير ، وفي ذلك تعضيد لما ذكرناه قبل قليل من معنى التقرير والتوجيه . ولعل في هذه العلاقة شيئاً بعلاقات القسم بـ (تالله) بالقسم عليه فيما مضى تناوله من مواضع القسم في سورة يوسف عليه السلام .

ولا اختيار المقسم به هنا علاقة بما في نفس المقسم من الاعتداد بيقينه بما يتضمنه هذا الاسم العظيم من معنى التوحيد ، وما يجمعه من معاني أسماء الله تعالى وصفاته ، وفيها ما يخص هذا المقام دلالات مناسبة ؛ وذلك أن من نعمة الله تعالى أن هداه إلى توحيده ، ونجاه من عقابه ، وأعظم له الجزاء والمشورة والرحمة ، يقول ابن كثير في تفسير قوله : (ولو لا نعمة ربي لكنت من المحضرين)^(١) : « أي ولو لا فضل الله علي لكنت مثلك في سوء الجحيم حيث أنت ، محضر معك في العذاب ، ولكنه تفضل علي ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده »^(٢) .

فلما كان في معنى المقسم عليه أمور ما اختص الله تعالى بها ، وكان فيها من إنعامه سبحانه ما لبعض أسمائه مزيد اختصاص به ، ذكر في المقسم به ما يفي بمتضيّات هذا السياق ، فجاء باسم الحاللة الجامع لمعاني الأسماء الحسنة والصفات التي تحقق له بفضلها وخصائصها ما تضمنه المقسم عليه ، والتي رأى آثارها في ذلك اليوم العظيم ، وبالاسم المشير إلى التوحيد الذي ترتب كل تلك النعم عليه ، ولكنه لما خص هذا الإنعام بالذكر في جزء من المقسم عليه جاء بالاسم المناسب وهو اسم الرب

(١) سورة الصافات ، الآية ٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٨ .

تعالى فقال : « ولولا نعمة ربِّي ل كنت من المحضرِين »^(١) .

أما مجيء التاء مع اسم الجلالة ؛ فقد ذكر أبو حيَان^(٢) أنه يدل على التعجب من سلامته من ذلك القرین لأنَّه قارب أن يرديه ، وتبعه فيه بعض المفسرين^(٣) . وفي نص البقاعي الذي تقدم في بيان الغرض من التوكيد ما يوضح هذا الوجه ، وذلك ما أشار إليه التوكيد من أنَّ هذا القرین - مع توفر أسباب عدم الإذعان له ، وكون الالتفات إليه مما لا يقع في فكر - كان يؤثر فيه بتزيينه وبما في النفس من الميل إلى الشهوات حتى كاد أن يرديه ، وهذا موقف يتعجب فيه من غرابة نجاته وسلامته منه مع قوة تأثيره وصعوبة الخروج من حبائله ، وكثرة ما كان يسلكه معه من أساليب المكر والإغراء لإغوائه ، لأنَّ في النجاة من الأمر - مع توفر الدواعي على الواقع فيه - غرابة وندرة تستأهل أن يتعجب منها وأن يلفت إليها بالتأكيد .

ولعل في هذا الوجه إشارة أيضاً إلى أنَّ ذلك الأمر لصعوبته وتعذرها في مثل تلك الظروف ما كان ليتأتى إلا بقدرة الله تعالى ونعمته عليه ، وقد تضمن المقسم عليه ما يشير إلى هذا المعنى ، وهو قوله : « ولولا نعمة ربِّي ل كنت من المحضرِين »^(٤) .

ويرى ابن عاشور أنَّ محلَّ الغرابة هنا - بالإضافة إلى غرابة خلاصه من قرينه - « اختلاف حال عاقبتهما مع ما كانا عليه من شدة الملازمة والصحبة ، وما حفه من نعمة الهدایة وما ورط قرينه في أوحالِ الغواية »^(٥) .

ويُكَن النظر إلى إشعار المؤمن قرينه باختلاف عاقبتهما بالقسم بالباء، في ضوء

(١) سورة الصافات ، الآية ٥٧ .

(٢) البحر المحيط ٣٦٢/٧ ، والنهر الماد (بهامش البحر المحيط) ١٥٩/٧ .

(٣) انظر : روح المعاني ٩٣/٢٣ ، والتحرير والتنوير ١١٧/٢٣ .

(٤) الآية ٥٧ .

(٥) التحرير والتنوير ١١٧/٢٣ ، ١١٨ .

ما كان يجتهد هذا القرين في إنكاره ، وذلك أنه - أي القرين - كان يرى أن المصير واحد وهو الفناء ، وأن لابعث ولا حساب ولا جزاء يتفاوت به حال المؤمن والكافر ، ففي قسمه له بهذه الصيغة تعجب من موقفه الذي كان يعتقد به في الدنيا ، وذلك في مقام نيل الجزاء وتمكن كل منهما في مصيره الذي صار إليه .

ولهذا الملحوظ صلة بحركة نفسيه قوية جداً ؛ إذ يتوصل من تأمله إلى أن المؤمن وهو في الجنة يخاطب قرينه وهو في النار فيدرك بعد ما بين العاقبتين ، ويصبح في حال يتهيأ له معها أن يتعجب من الفرق الكبير بين ما هو فيه من نعيم وما كان يمكن أن يؤول إليه مما رأه حين اطلع على الجحيم ، وتأتي صيغة القسم الصادر منه في هذا الموقف النفسي القوي في انفعاله وحركته ؛ للتعبير عن معانٍ انبثقت في نفسه في ذلك الموقف .

وليس استعمال التاء في هذا القسم بعيد عما ذكرناه من شدة فرح هذا المؤمن وغبطته بما آل من الفوز بالجنة والنجاة من النار ، واستشعار عظم النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه ، فهذه انفعالات نفسيه جاءت هذه الصيغة ناقلة لها ، وهذه صيغة تتآزر في دلالتها مع ماجاء من عناصر التوكيد التي سبق الحديث عنها .
وبهذا فإن صورة القسم في هذا الموضع تناسب حال المقسم عليه والمقسم له ومقام القسم ، وحال المقسم الذي صدر منه القسم .

ومع مناسبة صورة القسم لجميع ذلك فإن بينها وبين سياقها الخاص الذي وردت فيه من سورة الصافات تناسباً يقوى صلة القسم بهذا الموضع الخاص من السورة .
ومن وجوه هذا التناسب أن القسم هنا موجه من المؤمن في الجنة إلى قرينه الذي كان ينكربعث ويؤمن بأن المصير في الآخرة واحد ؛ فأقسم له يوحيه بما علم من تفاوت مصيريهما بعد أن دخل الجنة ثم اطلع عليه فرأه في سوء الجحيم ، ولما كان المقسم عليه على هذا النحو ؛ جاء القسم في سياق خاص يعرض فيه حال أهل الجنة

ونعيمهم ^(١) ، وحال أهل النار وعذابهم ^(٢) ، فاشتمل على هذين الوصفين ، وبهذا يننظم القسم مع هذا السياق لأنه قسم يشير بعناصره وأغراضه إلى هذين المصيرين ، وعلى هذا يقوم معناه .

ولما كان الوصول إلى أحد هذين المصيرين مبنياً على الإيمان بوحدانية الله تعالى وقدرته على كل شيء أو الكفر بذلك ؛ جاء القسم باسم الجلالة - وهو ذو صلة بمعنى التوحيد - في السياق الذي فصلت فيه السورة حال الفريقين ، وعلى هذا فإن للقسم موقعاً دلائلاً هاماً يلفت بقوّة إلى القضية الرئيسية المعلول عليها في الحالين .

ومن وجوه اتصال القسم بسياقه الخاص أن إنكار قرين المقسم هنا قد جاء على سبيل التعجب من حصولبعث والجزاء إذ « يقول إِنَّكَ لَمْنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مَتَّنَا وَكَنَا تَرَابًا وَعَظَامًا إِنَّا لَمَدِينُونَ » ^(٣) ، قال ابن كثير : « أَيْ أَنْتَ تصدق بالبعث والنشر والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتکذيب والاستبعاد والکفر والعناد » ^(٤) ؛ فلما كان إنكار قرينه قد جاء في صورة التعجب من الأمر المنكر وهو البعث ؛ جاء القسم من هذا المؤمن ذا صيغة دالة على التعجب ، وكأنه رد على ذلك الموقف الذي كان منه ، أي أنه كما كان القرین يتعجب من إيمانه في الدنيا ، فإنه يتعجب الآن مما آلت إليه هذا القرین ، ومن كونه كاد أن يورده ذلك المصير .

ويتفق مع هذه الدلالة ما جاء له الاستفهام في قوله : « أَفَمَا نَحْنُ بَيْتَنِينَ * إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بَعْذَبِينَ » ^(٥) ؟ لأن من دلالات هذا الاستفهام

(١) انظر الآيات : ٤٠ - ٦١ .

(٢) انظر الآيات : ١٩ - ٣٩ ، ٦٢ - ٧٣ .

(٣) الآية ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٨ .

(٥) الآية ٥٨ ، ٥٩ .

- على أنه خطاب من المؤمن بجلسائه في الجنة - التعجب من عظم النعمة وتكامل السعادة لأن من كان في مثل حاله تلك قد يقول : أيدوم لي هذا ؟ وإن كان على يقين من دوامة .

وبهذا تتناغم دلالات الأساليب في السياق مع دلالة القسم الوارد فيه تناجماً يؤاخى بين العناصر الدلالية لتؤدي في تكامل بديع الدلالة العامة للسياق .

وبين القسم الذي بين أيدينا وسورته التي ورد فيها اتصال وثيق : فهو كما يتصل بالجزء الخاص الذي ورد فيه من السورة ، يتصل أيضاً بالسياق العام للسورة .

وأول ذلك أن هذه السورة تؤكد على إثبات التوحيد من جهة خاصة ذات صلة بما كان يزعمه كفار قريش من نسبة البناء إلى الله - سبحانه - وجعلهم الملائكة إناثاً ، وقولهم أن بينه وبين الجنة نسباً ؛ ولهذا تبدأ السورة بقسم يقسم فيه الله تعالى على إثبات وحدانيته ، ويكون المقسم به في هذا القسم الملائكة ، وذلك في قوله تعالى : « والصفات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرأ * إن إلهكم واحد * رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشرق »^(١) .

ثم يأتي عقب هذا القسم الحديث عن الشياطين وهم في موقع الخزي ؛ إذ يقذفون بالشهب^(٢) ، ويأتي في أثناء السورة تشبيه ثمار شجرة الزقوم برؤوس الشياطين في القبح^(٣) ، وفي ذلك إيماء إلى بعد زعم المشركين الذي زعموا في صلة الخالق - سبحانه - بها . ، ثم تعرض السورة بعد ذلك الافتتاح وصف أحوال أهل النار

(١) الآيات ١ - ٥ .

(٢) في الآيات ٧ - ١٠ .

(٣) في الآيات ٦٢ - ٦٨ .

وأهل الجنة وبعض القصص المؤيدة لموضوع السورة ^(١) ، ثم لاتثبت أن تعود إلى الموضوع الرئيس فتبسط القول فيه ، وذلك من قوله تعالى : « فاستفthem أربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون » ^(٢) إلى قوله سبحانه : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضون * سبحان الله عما يصفون » ^(٣) . ثم تختتم السورة بالوعيد لأصحاب هذا القول ^(٤) .

وما كانت السورة تتجه إلى إثبات قضية التوحيد من جهة الرد على هذه الفريدة الغريبة ، وهذا الشرك العجيب ، جاءت صورة القسم الذي ورد في السورة مساوقة لهذا الاتجاه من ناحيته ، فجمعت القسم باسم الجلاللة واستعمال التاء في الأسلوب : لأن هذه الصورة القسمية ذات اختصاص بقضية التوحيد وبالتعبير عن التعجب والاستغراب من الأمور التي يتأنى فيها ذلك ، وقد سبق أن وقف البحث على صلة القسم باسم الجلاللة مع التاء بمثل هذه الوجوه الشركية الغربية وبخاصة نسبة الولد إلى الله تعالى وتأنيث الملائكة ، وتکاد هذه الصلة تطرد حتى تصبح ظاهرة أسلوبية في القسم بـ (تالله) .

ويتسق هذا القسم أيضاً مع السورة، في ميلها العام إلى عرض قضاياها في

(١) انظر الآيات ١١ - ١٤٨ . مما يشهد بأن هذا الجزء من السورة يمثل عرضاً خاصاً لموضوعات تزييد الغرض الرئيس للسورة التفتت إليه الآيات ثم عادت ، مما يشهد بذلك أن الآية « تبدأ بقوله : « فاستفthem » وهي الكلمة ذاتها التي تبدأ بها الآية ١٤٩ : (فاستفthem أربك . . .) وهي موضع العودة إلى الغرض الأول الذي افتتحت به السورة وكأن هذه الكلمة بوقوعها في صدر موعدي الالتفات والعودة، علامة ومفتاح هام لقراءة هذا الجزء من السورة بوصفه استطراداً واستدلالاً لموضوع السورة ، وهي بهذا لاقت قوى إلى الربط بين ما قبلها وما بعدها .

(٢) الآية ١٥٩ ، ١٥٠ .

(٣) الآية ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) انظر الآيات ١٦١ - ١٨٢ ، وهي آخر السورة .

حكاية إنكار منكريها وفي إثباتها، بأسلوب تعجبه صورته الاستفهام^(١).

ويردف هذا الموضوع إثبات قضية البعث والجزاء^(٢)، ويصاحب عرض هذه القضية وصف أحوال الذين ظلموا يوم الدين^(٣)، وترتبط الآيات بين مصيرهم وسبب شقائهم في قوله تعالى : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون » من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم^(٤)، وهو اتخاذ الشركاء من دون الله تعالى ، ويؤكد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : « إنا كذلك نفعل بال مجرمين » إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون^(٥) ، ثم يؤكد أيضاً في آيات تالية لهذه الآيات ويأتي استثناء عباد الله المخلصين من العذاب في قوله : « إنكم لدائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين * أولئك لهم رزق معلوم »^(٦) .

فك كل هذه الآيات تؤكد أن القضية التي يحاسب عليها هؤلاء المعدوبون إنما هي الشرك بالله تعالى وعدم الإيمان بوحدانيته ، ولذلك لا ينجو من هذا العذاب إلا المؤدون ، وهؤلاء هم الذين ورد وصف حالهم في الجنة^(٧) ، وهم الذين (قال قائل منهم إني كان لي قرين ...) الآيات ، ثم أقسم مؤكداً البعث والجزاء الذي كاد قرينه أن يصد عنه ، ومشيراً باختياره لاسم الجلالة في القسم إلى التوحيد الذي به فاز ذلك الفوز العظيم ، وبالبعد عنه هو قرينه في سوء الجحيم ، وهذه هي علاقة القسم بهذا

(١) انظر الآيات : ١١-١٧ ، ٩١-٩٥ ، ٨٥-٨٧ ، ٧٣-٥٩ ، ٥٣-٥٢ ، ٣٦-٢٥ ، ٢٥-١٢٤ ، ١٢٦-١٤٩ ، ١٣٨ ، ١٥٧-١٧٦ .

(٢) انظر الآيات : ١١-١٩ .

(٣) انظر الآيات : ٢٠-٣٩ .

(٤) الآية : ٢٢ ، ٤٣ .

(٥) الآية : ٣٥ ، ٣٦ .

(٦) الآيات : ٣٨-٤١ .

(٧) انظر الآيات : ٤٠-٦١ .

الموضوع الذي صاحب عرض قضية التوحيد .

ولهذا المعنى تأتي موضوعات السورة والقصص التي وردت فيها مؤكدة على أخذ الله تعالى لل مجرمين المشركين واستثناء عباده المخلصين من ذلك ، وتكرر هذا الاستثناء في السورة كثيراً^(١) ، وأكدت السورة عقب كل قصة على قضية الإيمان بتكرار قوله تعالى : «إِنَّمَا مُنْعَى عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ»^(٢) ، تنبئهاً على ما ينال به النصر والتأييد من الله تعالى .

ومن وجوه صلة القسم بالسورة أن خاتمة السورة قد صرحت - في أثناء ردها المباشر لقضية نسبة الولد إلى الله تعالى والتزاوج المفترى - صرحت باستثناء عباد الله المخلصين من قوله : «... وَلَقَدْ عَلِمْتَ جَنَّةً إِنَّهُمْ لَمُحْضُرُونَ» سبحان الله عما يصفون «إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ»^(٣) ، واستثناؤهم من قوله : لمحضرون ، ذو صلة وثيقة بما تم في الموقف القسمي الذي أنجى الله تعالى فيه عبده المؤمن ولم يجعله - بنعمته - من المحضرin .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في نهاية السورة من قول الحق سبحانه - مؤكداً هذه السنة التي لا تتبدل ، وهي نصر الله تعالى لعباده المخلصين في الدنيا والآخرة وعذابه للكافرين - : «وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ لَوْ أَنْ عَنَّا ذُكْرًا مِنَ الْأُولَئِكَ لَكُنَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلْمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنْ جَنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ»^(٤) . والموقف الذي يقسم فيه المؤمن في الجنة هو موقف نصر الله تعالى لأوليائه الموحدين

(١) تكرر ورود قوله تعالى(إلا عباد الله المخلصين) أربع مرات ، وذلك في الآيات : ٤٠ ، ٧٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

١٦٠

(٢) تكررت هذه الآية أربع مرات أيضاً ، أنظر الآيات : ٨١ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٣٢ .

(٣) الآيات : ١٥٨ - ١٦٠ .

(٤) الآيات : ١٦٧ - ١٧٣ .

في الآخرة وعذابه للكافرين والمركين .

ومن ناحية أخرى فإن هذا القسم - بما فيه من دلالة التعجب - يتتساوق مع مواقف متعددة عجيبة ونادرة وغريبة اشتغلت عليها السورة ، ومن ذلك على سبيل المثال : موقف الكافرين من البعث واحتضانهم بعضهم مع بعض في النار ، ثم موقف المؤمن مع قرينه ، وقد شرح البحث دلالاته ، ومنها الحديث عن شجرة الزقوم وكونها تنبت في أصل الجحيم فلا تحرق ، ثم تصوير ثمرها بأغرب صورة وهي صورة رؤوس الشياطين ، ثم ما تضمنته بعض القصص من ذلك ؛ كنجاة نوح عليه السلام ، وكقصة إبراهيم في النار التي أضرمها له قومه فلم تحرقه ، وكقصته مع ابنه الذي كاد أن يذبحه ، وكذلك ما في نجاة موسى وهارون ولوط ويونس - عليهم السلام - من خوارق العادات ، ثم حكاية ذلك الزعم العجيب الذي كان يقوله كفار قريش في إفتاء وجراة على الله تعالى (١) .

وليس ما ذكر هنا بمستقصٍ جميع وجوه صلة القسم بالسورة التي ورد فيها ، وإنما هي دلائل يتوصل بها إلى معرفة اختصاص هذا القسم بسورته وقوتها اتصاله بها ، وذلك يشير إلى أن لكل قسم في القرآن موقعه الأشبه به ، وهو موقع يتسوق معه القسم في خصائصه ومعانيه وتراكيبيه ودلالاته ، وكذلك الشأن في كل قسم حاول هذا البحث أن يثبت له ارتباطاً بموقعه .

العلاقة بين قسم المؤمن في الجنة وقسم المشركين في النار :

لهذا الموضع القسمى الذى صدر من المؤمن فى الجنة علاقة بالموضع الذى سبقه وهو قوله : « قالوا وهم فيها يختصون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين »^(١) ، وقد لفت إلى وجود العلاقة بين الموضعين ما يلاحظ بينهما من تقابل عجيب تظهر فيه علاقة كل عنصر من عناصر الموضع السابق بعنابر هذا الموضع ولنتأمله على النحو التالى :

فأول ما يلفت من ذلك اتحاد صورة المقسم به وهي : (تالله) - وهي الصورة التي دعت إلى تناول هذا النوع من القسم في جزء خاص من هذا البحث ، وتبع ذلك ملاحظة العلاقة بين مواضع القسم التي اتحدت فيها صورة القسم - ثم نتابع التأمل فنجد أن القسم في الموضع السابق الذى جاء في سورة الشعرا يصدر من المشركين في موقف خاص وهو الموقف الذى يعقب كيكتبهم وأصنامهم في الجحيم ، على حين يصدر القسم في الصفات من المؤمن وهو في نعيم الجنة .

ومعنى هذا أن مكان القسم الأول هو الجحيم ، ومكان القسم الآخر هو جنات النعيم ، ولكن هذا القسم (قسم سورة الصافات) ي قوله المؤمن وهو يطلع على النار فيرى قرينه الذى كاد أن يغويه في الدنيا في سواء الجحيم ، وفي هذا ربط بين القسمين ، وتأتي لفظة الجحيم مؤيدة لهذا الربط بين الموضعين ؛ فقد قيل قبل القسم في الشعرا : « وبرزت الجحيم للغاوين »^(٢) ، وقيل قبل قسم الصافات : « فاطلع فرآه في سواء الجحيم »^(٣) ؛ وعلى هذا فالقسامان متناسبان من جهة أن الأول قسم يقال في الجحيم ، والآخر قسم يقال في جنات النعيم ، ولكنه يقال بعد اطلاع على الجحيم ، وعلى هذا فزمان القسمين واحد وهو الدار الآخرة .

(١) سورة الشعرا ، الآيات ٩٦ - ٩٨ .

(٢) سورة الشعرا ، الآية ٩١ .

(٣) سورة الصافات ، الآية ٥٥ .

وين الموضعين ارتباط كذلك من جهة السياق الذي ورد فيه كل منها ؛ فقسم الشعرا وارد في سياق حديث المشركين بعضهم إلى بعض وهم يختصون في النار ، أما قسم سورة الصافات فيأتي في سياق حديث المؤمنين بعضهم إلى بعض وهم يتساءلون في الجنة .

ثم ننظر من ناحية أخرى فنجد أن القسم في سورة الشعرا تحسن وندم من المشركين على ما كان منهم في حياتهم الدنيا من التفريط ، واعتراف بأنهم كانوا في ضلال مبين إذ أشركوا به سبحانه ، أما القسم في الصافات فهو فرحة واغتباط بما ناله المؤمن من الفضل ، ونجاته من قرينه الذي كاد أن يرديه في الضلال الذي تردى فيه المشركون .

ثم نلمح التقابل بين الموضعين أيضاً في اللغة المعبر بها في كل ، ولننظر على سبيل المثال إلى صورة المقسم عليه ؛ ففي الموضع السابق عبر المشركون عن تمكنهم في الضلال المبين يوم أن كانوا في الدنيا يشركون بالله - بقولهم : «...إن كنا لـ في ضلال مـ بين * إـذ نـ سـ يـ كـمـ بـ ربـ الـ عـ الـ مـ لـ (١) ، أما المؤمن فقد عبر عـ ما أـ قـ سـ مـ (٢) عليه بـ قوله : « إن كـ دـ لـ تـ رـ دـ يـنـ * ولـ لـ نـ عـ مـ رـ يـ لـ كـ نـتـ مـنـ الـ حـ ضـ رـ يـنـ (٣) ويـ لـ حـ ظـ فيـ الـ مـوـضـ عـيـنـ استـ عـمـالـ (إنـ) الـ مـخـ فـةـ منـ الـ ثـقـيـلـةـ ، كـ مـاـ يـ لـ يـ حـ ظـ دـ خـوـلـهاـ عـلـىـ الـ فـعـلـ النـاسـخـ كـ مـاـ هـوـ الـ غالـبـ فـيـهاـ ، وـ لـكـنـهاـ فـيـ الـ مـوـضـعـ السـابـقـ دـاخـلـةـ عـلـىـ (كانـ) إـرـادـةـ تـحـقـيقـ كـيـنـوـنـتـهـمـ فـيـ الـ ضـلالـ مـبـينـ ، وـ أـمـاـ فـيـ مـوـضـعـ الـ صـافـاتـ فـهـيـ دـاخـلـةـ عـلـىـ (كـادـ) إـرـادـةـ تـحـقـيقـ مـقـارـيـةـ إـغـواـءـ قـرـيـنـهـ لـهـ لـ تـأـكـيدـ عـظـمـ النـعـمـةـ فـيـ نـجـاتـهـ مـنـهـ .

وقد ذكر اسم الرب في الموضعين لأن المشركين يرجون به الرحمة في ذلك الموقف والمؤمن يستشعر به ماحل به من الرحمة ، وهو في الشعرا مضاف إلى العالمين :

(١) سورة الشعرا ، الآية ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) سورة الصافات ، الآية ٥٦ ، ٥٧ .

﴿إِذْ نَسُوكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ، لكونه يعبر عن العظمة والتنزية في سياق ندتهم على اتخاذ الشركاء معه ، وإضافته إلى (العالمين) أنساب لهذا المعنى ، ومن جهة أخرى فإن المقصود من ذكره في ذلك المقام طلب الرحمة والرغبة في الاعتداد بإيمانهم وهم في جهنم ، فأضافوا اسمه سبحانه (الرب) إلى ما يشير إلى سعة ملكه ورحمته . أما في موضع الصافات فقد أضيف اسم الرب إلى ضمير المؤمن المتalking بالقسم ليشعر بقرب ربه منه واكتناف رحمته له في الدنيا والآخرة حتى لم يجد في سياق التعبير عن هذه النعمة إلا أن يقول : ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(٢) .

وإذا نظرنا إلى القسمين في سياقيهما من سورتيهما ، وارتباطهما بالسياق القرآني العام ، وجدنا الأول - وهو قسم الشعراء - يرد في سياق وصف مصير المشركين وما ينتظرون في الجحيم ، في حين يأتي القسم الثاني - في سورة الصافات - في سياق وصف ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم ، وهذا موقفان متباوران - في الغالب - في السياق القرآني ، وهذا رابط آخر بين القسمين .

وبإضافة إلى جميع العلاقات التي تربط القسمين أحدهما بالآخر ؛ فإنهما يردا متواليين في ترتيب مواضع القسم باسم الجلالـة في القرآن الكريم ، فترتيب قسم الشعراء في هذا النوع هو التاسع ، وترتيب قسم الصافات هو العاشر ، وهذا التوالي يشير إلى مابينهما من علاقات .

والموضـان هما آخر موضـعين وردا في القسم باسم الجلالـة وفق ترتيب المصحف ، ولعل ذلك يلفـت - في ضوء كون المقسم به فيما هو اسم الجلالـة وكـونـهما في سياق الحديث عن أهل النار وأهل الجنة وفي ضوء مابينـهما من عـلاقـات - لـعل ذلك التـرتـيب يـلفـت إلى قضـية الإيمـان بـمقـتضـيات هـذا الـاسم العـظـيم وما جـمعـه من الأـسـماء والـصـفات

(١) سورة الشعراء ، الآية ٩٨ ،

(٢) سورة الصافات ، الآية ٥٧ .

الإلهية والتوحيد ، وما يترتب على ذلك من الجزاء للمؤمنين بها والكافرين ؛ فمجيء هذين القسمين آخر الموضع التي أقسم فيها باسم الحالات المناسبة حكايتها ومكان ورودهما في الجنة والنار والمقام الذي يقالان فيه ، وهو اليوم الآخر ، ولعل في هذا لفتاً إلى المصير وأنه إما إلى جنة وإما إلى نار .

وهذا يعني أن موقعاً للقسم في القرآن الكريم دلالات بلاغية تضارع ما لعناصره في موضعها ، وأن الدلالتين معاً تشكل الدلالة السياقية العامة للنوع الذي ينتمي إليه القسم ، وهذا يؤيد أن للقسم في القرآن الكريم سياقاً متصلأً ذا دلالات خاصة ، ينبغي توخي البحث عنها واستنباطها من خلال التأمل والتدارس لواقع الأسلوب وصلة بعضها ببعض ، وهو ما حاوله هذا البحث في مواطن متعددة .

الفصل الثالث

القسم بعزة الله تعالى

تناول البحث في الفصلين السابقين القسم باسمين من أسماء الله تعالى ، هما :
اسم الرب سبحانه ، واسم الجلالة . وفي هذا الفصل نتناول القسم بصفة من صفات
الله تعالى لم يرد في القرآن الكريم القسم بصفة غيرها من صفاته جل وعز ، وهي
صفة العزة .

وقد ورد القسم بهذه الصفة في موضع واحد من القرآن الكريم ، وذلك قوله
تعالى : «**قَالَ فَبِعْزَتِكَ لَا غَوْنِيهِمْ أَجْمَعِينَ**»^(١) . ووقع هذا القسم في سياق ما
جاء من قصة آدم عليه السلام في سورة (ص) .

وقد جاء القسم في هذا الموضع صادراً من إبليس - لعنه الله - والمقسم له هو
الله تعالى .

والصورة المقسم بها هنا هي لفظ العزة مضافاً إلى ضمير المخاطب : (فبِعْزَتِكَ) ،
أما المقسم عليه فهو إغواء بنى آدم أجمعين - كما يتضح من الآية .

وسنقف فيما يأتي على خصوصية مجيء القسم على هذه الصورة ، ووجه علاقته
بالموقع الذي ورد فيه ، وغير ذلك مما يسفر عنه التأمل في الآية في ضوء السياق
الخاص لها ، والسياق العام للسورة .

القسم بعزة الله تعالى : (فبعزتك)

قوله تعالى : « قال فبعزتك لأغoinهم أجمعين * إلا عبادك منهم
المخلصين » (١) .

جاء هذا القسم مسندأ إلى إبليس - اللعين - في سياق ماورد من قصة آدم - عليه السلام - في سورة ص ؛ وذلك أن الله تعالى بعد أن خلق آدم من طين ، وسواه ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له ، : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين » (٢) ؛ فأخرجه الله تعالى من جنته ، وطرده من رحمته (٣) ؛ فلما وقع هذا القول على إبليس « قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغoinهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » (٤) .

وأكثر المفسرين (٥) على أن قوله : (فبعزتك . . .) قسم أقسم به إبليس ؛ فالباء عندهم في هذه الآية للقسم . وقد جاء في سورة الأعراف حكاية عن إبليس أيضاً قوله تعالى : « قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم » (٦) ، وحكي عنه مثل ذلك في سورة الحجر ، قال تعالى : « قال رب بما أغويتني لازين لهم في الأرض ولأغoinهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين » (٧) ، وقد

(١) سورة ص ، الآية ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) سورة ص ، الآية ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) انظر الآيات : ٧٥ - ٧٨ .

(٤) سورة ص ، الآيات ٧٩ - ٨٥ .

(٥) انظر على سبيل المثال :

ال Kashaf ٣٨٤ / ٣ ، و التفسير الكبير ٢٦ / ٢٣٤ ، و تفسير القرطبي ١٥ / ٢٢٩ ، و التسهيل لعلوم

التنزيل ٣ / ١٨٩ ، و تفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٥ / ٢٩٦) ، و روح المعاني ٢٣ / ٢٢٨ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٦ .

(٧) سورة الحجر ، الآية ٣٩ .

عد بعض المفسرين الباء في هذين الموضعين للقسم (١) ، وقال بعضهم : إن قسمه بالإغواء لا ينافي قسمه بعذته سبحانه لأن الإغواء أثر من آثار قدرة الله تعالى وعذته ومظهر من مظاهرها (٢) ، والأظهر كون الباء في الموضعين للسببية لا للقسم كما ذهب إليه بعض المفسرين ، ومعنى هذا أنه في سورة (ص) في قوله : (فبتعذتك) أقسم بعزة الله على إغواء بنى آدم ، ولكنه في الأعراف والحجر بين سبب عزمه على الإغواء وعليه فإن كون آية (ص) قسماً لا يقتضي أن يكون ما في الأعراف والحجر كذلك ، وإن كان المقام واحداً .

والقسم به في هذا الموضع عزة الله سبحانه ، والمراد بها سلطانه وقهره وقدرته (٣) . والقسم عليه بذلك هو قوله : (... لآغويتهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) أي : لأضلن بنى آدم أجمعين عن دينك وطاعتك بتزيين المعاصي لهم إلا من أخلصته منهم لعبادتك وعصمته مني فإني لا أقدر على إضلاله (٤) . وقرئ : المخلصين ، على صيغة الفاعل أي : الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله تعالى (٥) . وقد أضاف المستثنى إلى الله تعالى في قوله : (إلا عبادك) « تنبئها على أن غيرهم قد انسلاخوا من التشرف بعبوديته بالنسبة إلى من أطاعوه » (٦) .

وقد جاء المقسم عليه - كما هو حاله دائماً - مؤكداً بعده من وسائل التوكيد ؛ فقد أكدته إبليس - مع القسم - باللام ونون التوكيد الثقيله : لآغويتهم ، وبالتوكيده

(١) انظر : الكشاف ٣٩١/٢ ; والتفسير الكبير ٣٨/١٤ ، ١٨٥/١٩ ، والبحر المحيط ٢٧٤/٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٥ وتفسير أبي السعود ٢١٨/٣ ، ٢١٩ ، ٢١٨/٧ ، ٧٨/٥ ، ٢٣٨/٧ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٢١٨/٣ ، ٢١٩ ، ٧٨/٥ ، ٢٣٨/٧ .

(٣) تفسير الطبرى ١١٩/٢٢ ، والتفسير الكبير ٢٣٤/٢٦ ، وتفسير النسفي وتنوير المقاييس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٢٩٦/٥) ، وروح المعاني ٢٢٨/٢٣ .

(٤) انظر : المصادر السابقة .

(٥) انظر : تفسير أبي السعود ٢٣٨/٧ ، وروح المعاني ٢٢٨/٢٣ .

(٦) نظم الدرر ٤٢٧/١٦ .

المعنى في قوله : أجمعين ، وهذا التأكيد يعبر عن شدة حسده وبغضه وعداوه لبني آدم ، ويصور قوة إصراره على الانتقام منهم بصدتهم عن سبيل الله تعالى ، فهذه الوسائل المؤكدة التي جرت على لسانه في هذا الموقف تعرب عن قدر مبالغه من الحسد والكراهية والعدواة .

وتتسق العناصر اللغوية المعبر بها في هذا الجواب مع دلالة التأكيد هنا ؛ فيأتي التعبير عن بني آدم بضمير الغائب المشعر بالباعدة التي تقتضيها العدواة ، وبصيغة الجمع المقتضية للشمول ، وكذلك الشأن في تعبيره عن الإغواء بصيغة المضارع للدلالة على تجدد هذا الأمر واستمراره منه ، وأنه سيكون منه مرة بعد مرة ، وفيه إشارة على عزمه على الإقامة على هذا الأمر لا يتحول عنه أبداً .

وواضح من هذا أن الغرض من القسم على هذا الأمر وتأكيده على هذا النحو لا يراد به تحقيقه للمخاطب ، لأنه هنا عالم الغيب والشهادة سبحانه ، بل يراد به الإفصاح عن تلك الانفعالات القوية التي تحركت في نفس إبليس - اللعين - في ذلك الموقف الذي عَدَ فيه آدم سبب غوايته ، لاسيما بعد طرده من جنة الله تعالى ورحمته .

وقد جاءت صورة المقسم به الذي أقسم به إبليس في هذا الموضوع على أصل ما يقتضيه المقام فأضيفت فيها العزة إلى ضمير المخاطب - سبحانه وتعالى : فبعزتك ، على حين جاء القسم بـ (عزة فرعون) المسند إلى السحرة في سورة الشعراء على سبيل العدول عن الخطاب إلى الغيبة ؛ لأن في هذه الصورة تعظيمًا وت奉خيمًا للمخاطب ، ولأغراض أخرى اقتضاها المقام والسياق هناك ، ولنا أن نسأل : فِلَمْ لَمْ يأتِ القسم هنا على نحو ما جاء عن السحرة ، فيقال : فبعزة الله لأغويتهم أجمعين ، بالإضافة إلى اسمه سبحانه ، مع أن المقام - في خطاب الله تعالى - أكثر اقتضاء للتعظيم والت奉خيم الذي يفيده العدول ؟ !

والجواب عن ذلك : أن إضافة العزة إلى اسم فرعون في قسم السحرة إنما كان

لأنه قسم صادر من السحرة في مقام التزلف والتقرب إلى فرعون والانتصار له ، وفي مجيء المقسم به الصادر منهم على صورة الإضافة إلى الاسم الظاهر ما يناسب التعبير عن معانٍ تتعلق بهذا المقام ، وقد بسطت في موضعها من البحث^(١) ، على حين نرى أن القسم الذي صدر من إبليس هنا يأتي على الأصل في التعبير بالإضافة إلى ضمير المخاطب : (فبعزتك) ؛ لأنه لا يحتاج في إثبات العزة لمخاطبه - سبحانه - إلى مثل ما يحتاج إليه السحرة في إثباتها لفرعون ، إذ هو الله الحق ذو العزة والمجلال ؛ فجاء التعبير متسلقاً مع مقام المخاطب ، وكان ذلك تفخيماً وتعظيمًا له سبحانه في معزل عن التصنع والمداراة ، وبخاصة في مقام قسم إبليس - اللعين - على أمر يتضمن مخالفته ومعصيته له سبحانه ، لأنه يعلم أن ما أقسم عليه لا يكون إلا بإذنه وقدرته ، وعلى هذا فصورة المقسم به هنا مناسبة لمقام المخاطب .

ومن ناحية أخرى فإن قوله : (فبعزتك) قد جاء في سياق محاورة بينه وبين الله تعالى ، وقد اقتضت هذه المعاورة شبيوع ضمير الخطاب في هذا السياق ، وبخاصة فيما جرى على لسان إبليس من مثل : (خلقتني من نار - خلقتني من طين - فأنظرنـي - عبادك) ، فجاء القسم في هذا السياق على النحو الذي شاع فيه فقال : فبعزتك ، معتبراً بضمير المخاطب .

وفي إقسام إبليس بعزة الله تعالى في هذا الموضع ما يناسب المقسم عليه وهو تأكيده على إغواء بنـي آدم إلا المخلصين منهم الذين عصـمـهم الله تعالى ، لأن عزـته سبحانه هي مصدر اقتداره على ذلك ، وسبب تحقق ذلك له ، فهو من بـابـ القـسـمـ بالـسـبـبـ عـلـىـ المـسـبـبـ تـأـكـيدـاً لـرسـوخـ العـلـاقـةـ بـيـنـهـماـ ، المـفـضـيـةـ إـلـىـ رـسـوخـ المـقـسـمـ عـلـيـهـ ، إـذـ لـارـيبـ أـنـ مـاـ أـسـنـدـ إـلـىـ عـزـةـ اللهـ تـعـالـىـ فـلاـ رـادـ لـهـ إـلـاـ هـوـ ، وـلـهـذاـ لـمـ يـسـتـشـنـ مـنـ هـذـاـ القـسـمـ إـلـاـ مـنـ أـخـلـصـهـ اللهـ تـعـالـىـ لـعـبـادـتـهـ . وـوـاضـحـ هـنـاـ أـنـ اـخـتـارـ المـقـسـمـ بـهـ المـنـاسـبـ للـمـقـسـمـ عـلـيـهـ .

(١) انظر : ص ٥٥٠ من هذا البحث .

وَثُمَّةَ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ التَّفْسِيرِ تَظَهَرُ بِهِ دَقَّةُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ عَنْصَرِي الْقَسْمِ هُنَا ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَسْمَ الصَّادِرَ مِنْ إِبْلِيسِ هُنَا يَرَادُ بِهِ الْمِبالغَةُ فِي هَذَا الْإِغْوَاءِ إِلَى أَقْصَى درجاته وأَبْعَدَهَا عَنِ الْحَقِّ (يَدْلِيلُ عَلَيْهِ الْقَسْمُ أَوْلًا ، ثُمَّ مَا جَاءَ فِي الْجَوابِ مِنَ الْمُؤْكَدَاتِ) ، وَمِنْ أَقْوَى درجاتِ الْغُوايَةِ أَنْ تَأْخُذَ الْغَاوِيَ العَزَّةَ بِالْإِثْمِ فَلَا يَنْتَصِحُ لِنَاصِحٍ وَلَا يَسْتَمِعُ لِدَاعٍ وَلَا يَرْدِهُ عَنْ غُوايَتِهِ رَادٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ أَنْتَ أَخْذَتَ الْعَزَّةَ بِالْإِثْمِ ... »^(١) ؛ فَإِنَّ الْغَاوِيَ يَبْلُغُ دَرْجَةً مِنَ التَّشْبِيثِ بِالْإِثْمِ يَصْبُحُ مَعَهَا فِي كُبْرِيَاءِ عَنِ الْحَقِّ ، وَهَذَا هُوَ عَيْنُ مَا وَقَعَ فِيهِ إِبْلِيسُ حِينَ أَمْرَ بِالسُّجُودِ فَأَبَى وَاسْتَكَبَرَ ، وَلَهُذَا يَقْسِمُ إِبْلِيسُ عَلَى إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ حَتَّى يَوْرَدُهُمْ هَذَا الْمَصِيرُ الَّذِي وَرَدُّهُ ؛ فَتَأْخُذُهُمُ الْعَزَّةَ بِالْإِثْمِ كَمَا أَخْذَتُهُ ، فَكَانَهُ يَقُولُ : فَبِعَزْتِكَ لِأَغْوِيْنَاهُمْ غُوايَةً تَأْخُذُهُمُ فِيهَا الْعَزَّةَ بِالْإِثْمِ ، أَيْ أَنَّهُ سِيَجْتَهُدُ فِيهَا حَتَّى تَبْلُغَ هَذَا الْمَلْبُغُ ، وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ قَسْمَهُ بِالْعَزَّةِ يَنْسَابُ مَا تَضَمِّنَهُ الْقَسْمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَى الْعَزَّةِ .

وَفِي الْقَسْمِ بِالْعَزَّةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ مَرْدُهُ إِلَى عَزَّ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ ، فَهُوَ الَّذِي يَهْدِي ، وَهُوَ الَّذِي يَضْلِلُ . وَقَدْ قَرَنَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَا الْمَعْنَى وَاسْمِهِ (الْعَزِيزُ) فِي قَوْلِهِ : « ... وَمَنْ يَضْلِلُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ » وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَضْلِلٍ أَلِيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي اِنْتِقَامٍ^(٢) .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ هُنَا وَجْهٌ مِنْ وَجُوهِ الْمَنَاسِبَةِ بَيْنَ الْقَسْمِ بِهِ وَالْقَسْمِ عَلَيْهِ - دَقِيقٌ . وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ - أَيْضًا - تَتَضَعَّ خَصْوَصِيَّةُ الْقَسْمِ بِعَزَّ اللَّهِ فِي سِيَاقِ حَكَايَةِ قَصَّةِ اسْتَكْبَارِ إِبْلِيسِ عَنِ السُّجُودِ وَإِيْغَالِهِ فِي الْعَزَّةِ الَّتِي أَخْذَتُهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ .

(١) سُورَةُ الْبَقْرَةِ ، الآيَةُ ٢٠٦ .

(٢) سُورَةُ الزُّمْرِ ، الآيَةُ ٣٦، ٣٧ . وَيُؤَيِّدُ صَلَةُ دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ بِالْعَلَاقَةِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا بَيْنَ طَرْفَيِ الْقَسْمِ ، يُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَأْتِي فِي سُورَةِ الزُّمْرِ الْوَاقِعَةِ فِي تَرْتِيبِ الْمُصَحَّفِ بَعْدَ سُورَةِ (ص) الَّتِي جَاءَ فِيهَا هَذِهِ الْقَسْمُ ، وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ سِيَاقٌ مُتَصَلٌ سَابِقٌ بِلَاحِقٍ ، وَأَوْلَهُ بَآخِرٍ ، عَلَى نَحْوِ دَقِيقٍ . وَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ ضَرْبِ الْإِعْجَازِ فِيهِ .

ومن عجيب النظم القرآني أن تلك الآية التي تحدثت عن ذلك الذي تأخذ العزة بالإثم وهي قوله تعالى : «إِذَا قيلَ لَهُ أَتْقَنَ اللَّهَ أَخْدَتْهُ الْعَزَّةَ بِالْإِثْمِ...»^(١) تقع في سورة البقرة في سياق ماثل لسياق سورة ص؛ فهي واردة في وصف صنف من الناس «...يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشَهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخَصَامِ...»^(٢)، وهذا الصنف من الناس كما وصفه القرآن ذو خصومة شديدة تجعله في كبراء عن الحق فتأخذه العزة بالإثم كما ورد في الآية .

وليس معنى الخصومة ببعيد عن سياق سورة (ص)؛ فإن فكرة الخصومة تشيع فيها؛ فمن ذلك ابتداء السورة بالحديث عن موقف الكافرين وشقاقهم^(٣) ، ثم قصة الخصمين اللذين تحاكموا إلى داود عليه السلام^(٤) ، ثم دلالة الآيات في قصة أیوب عليه السلام على خصومته مع زوجه^(٥) ، ثم اختصار أهل النار الذي أشارت إليه بعض آيات السورة بعد ذلك : (... إِنَّ ذَلِكَ لَحَقَ تَحَاصُرًا أَهْلَ النَّارِ)«...»^(٦) ، ثم يأتي بعد ذلك كلها قصة اختصار الملا الأعلى وهي قصة آدم عليه السلام التي أقسم فيها إبليس على إغواء ذريته^(٧) ، وهي آخر هذه السورة .

و واضح من هذا أن سياق الخصومة في سورة (ص) يماثل ما ورد في ذلك السياق الخاص من سورة البقرة ، الذي وصف فيه ذلك الصنف من الناس الذي تأخذ العزة بالإثم بأنه ألد الخصام ، وهذا التماثل في السياق يلفت إلى الصلة بين هذين الموقعين من القرآن الكريم في الدلالات الم عبر عنها في كل منهما .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) سورة ص ، الآيات ١ - ٧ .

(٤) انظر الآيات : ٢١ - ٢٥ .

(٥) انظر الآيات : ٤٣ ، ٤٤ .

(٦) انظر الآيات : ٥٩ - ٦٤ .

(٧) انظر الآيات : ٦٩ - ٨٨ .

والتماثل بين هذين السياقين يتحقق من جانب آخر وهو اشتمال كل منهما على التحذير من إغواء الشيطان الرجيم ، ففي سورة (ص) ارتبط ذلك السياق بالحديث عن قصة إبليس وقسمه بعزة الله على إغواءبني آدم ، وكذلك الشأن في ذلك الجزء من سورة البقرة فقد جاء فيه التحذير من اتباع خطوات الشيطان وقرن به إثبات صفة العزة لله تعالى ، قال تعالى في ذلك السياق من سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا دخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ». فإن زللتكم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » (١١).

ومجيء هذا التحذير - في سورة البقرة - بعد التنبيه على ذلك الصنف الذي تأخذ العزة بالإثم مناسب لحركة السياق في سورة (ص) التي جاء فيها التحذير من الشيطان وحكاية قصة قسمه على إغواءبني آدم بعد ذكر صنف من الكافرين في عزة وشقاق ، وفي كلا السياقين إثبات لصفة العزة لله تعالى .

ويسبب من هذه العلاقات الدقيقة بين السياقين تهياً اللفت إلى الارتباط بين علاقة عنصري القسم في سورة (ص)، (تلك العلاقة المرتبطة بسياق السورة العام) ، وذلك السياق الخاص من سورة البقرة ، الذي يصف هذا النوع من الناس ، في تناقض وتعانق عجيب .

وقد جاء في أول هذه السورة (سورة ص) الحديث عن كفار قريش وإعراضهم عن الذكر وكونهم في عزة وشقاق ، وذلك في القسم الوارد في قوله تعالى : (ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ؛ وعلى هذا فإن السورة مفتتحة بالحديث عن عزة الذين كفروا وشقاقهم ؛ فهم يواجهون هذا الذكر بالإعراض والتكذيب لما هم فيه من التكبر والعزة التي تصرف العصاة عن الحق ، وهم في ذلك أنموذج واضح لما أقسم عليه إبليس من إغواءبني آدم إغواءً مبالغً فيه - كما هو ظاهر من

تأكيده لذلك على الوجه الذي مر - حتى يجعلهم في عزة وشقاق . وهذا تناسب دقيق جداً .

وعلى هذا فإن للقسم المحكي عن إبليس في القصة الواردة في هذه السورة علاقة خاصة بالمضمون الذي افتتحت به ، ويزيد من قوة الارتباط بين الموضعين هذا التناجم البديع بين لفظي العزة في قوله : في عزة - فبعزتك : فهذا كل ما يرسخ صلة القسم بالسياق الذي ورد فيه ، ويفسر اختصاص موقع هذه القصة في سورة (ص) بهذا القسم ، دون غيره من الواقع التي حكى فيها هذه القصة في سور أخرى .

وإذا علم أن المقصود من ذكر هذه القصة - كما يقول الرازبي - « المنع من الحسد وال الكبر ، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد وال الكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد وال الكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سمعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين »^(١) ، إذا علم هذا فإن علاقة قسم إبليس والموقف الذي أقسم فيه ، بموقف الكافرين من الرسول ﷺ - تبدو واضحة جلية من خلال صلة السياق القسمى الذي أقسم فيه إبليس ودواجه موقفه ، بالسورة وأغراضها وما جاء في أولها - على وجه الخصوص .

ويمكن النظر إلى جانب آخر من مناسبة القسم لسورته فيما تكرر من ذكر أسماء الله تعالى المناسبة للقسم ، فقد تكرر ذكر ما يدل على العزة والقهر - وهو ماتضمنه القسم به - في قوله سبحانه : « أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْذِكْرَ مِمَّا بَيْنَنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍ مِّنْ ذَكْرِنَا بَلْ لَمْ يَذُوقُوا عَذَابًا * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَانَاتٌ رَحْمَةٌ رِّبِّكَ الْعَزِيزُ الْوَهَابُ »^(٢) ذكر اسمه تعالى (العزيز) في معرض الحديث عن حسد كفار قريش المقابل لحسد إبليس حين امتنع عن السجود لآدم معترضاً على ما وبهه الله تعالى - بعزته - من الفضل والتكرير ، ثم ورد بعد ذلك في السورة أيضاً قوله سبحانه :

(١) التفسير الكبير ٢٢٧/٢٦

(٢) سورة ص الآية ٨ ، ٩ .

﴿قُلْ إِنَّا مُنذَرٌ وَمَامِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ قُلْ هُوَ نَبِأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعَرَّضُونَ﴾^(١)

فذكر هنا اسميه تعالى (القهار) و (العزيز) في سياق الحديث عن إعراض هؤلاء الكفار عن الحق الذي أنذروا به ، وجاء بعده الربط بين هذا الموقف وموقف إبليس الذي حكته السورة .

وفي كل هذا يلمح التناوب الدقيق والترابط العميق الذي يصل أجزاء السورة وسياقها العام بال موقف القسمى واختيار عناصر القسم فيه ، ففيأتي القسم بعزة الله متتسقاً مع هذا السياق أتم الاتساق ، بالإضافة إلى مناسبته لسياقه الخاص الذي ورد فيه ، ومناسبته للمقسم عليه ، ومجيء عناصره على ما يقتضيه حال المتكلم بالقسم ، والمخاطب به ، والمقام الخاص للقسم . والوفاء بكل واحد من هذه المقتضيات يتم في بلاغة معجزة يخيل إلى الناظر معها أن عناصر القسم وتركيبه لم تأت على النحو الذي جاءت عليه إلا للتعبير المناسب له وحده دون غيره .

الباب الثالث

القسم بآسماء القرآن الكريم

من أنواع القسم في القرآن الكريم القسم بأسماء القرآن نفسه ، وقد جاء هذا النوع من القسم في خمسة مواضع ^(١) ، وهي - وفق ترتيب المصحف - على النحو التالي :

- ١ - قوله تعالى : « يس * والقرآن الحكيم * إنك مُنَّ المرسلين » ^(٢).
- ٢ - قوله تعالى : « ص * والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاوة » ^(٣).
- ٣ - قوله تعالى : « حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون » ^(٤).
- ٤ - قوله تعالى : « حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين » ^(٥).

(١) يرى بعض المفسرين أن من هذا النوع قوله تعالى : (وكتاب مسطور) سورة الطور ، الآية ٢ ، وفيه خلاف لأن الكتاب المقسم به هنا يحتمل أن يكون القرآن ، وأن يكون اللوح المحفوظ ، وأن يكون جنس الكتاب فيراد به القسم بجميع الكتب السماوية السابقة . (انظر : زاد المسير ٤٦/٨ ، وتفسير القرطبي ٥٩/١٧) .

- وعند بعضهم أن منه قوله سبحانه : (والنجم إذا هوى) سورة النجم ، الآية ١ ، اعتماداً على أنه التجم النازل من القرآن . (انظر : معاني القرآن للفراء ٩٤/٣ ، وتفسير الطبرى ٢٤/٢٧ ، وتفسير القرطبي ٨٢/١٧) .

- وقيل إن منه قوله تعالى : (فلا أقسم بموقع النجوم) سورة الواقعة ، الآية ٧٥ ، فالمراد بالنجوم عند بعضهم نجوم القرآن على المعنى الذي سبق . (انظر : تفسير البغوي ٢٨٩/٤ ، وزاد المسير ١٥١/٨ ، وتفسير القرطبي ٢٢٤/١٧) .

- ولا يصح أن تكون هذه الموضع من القسم بأسماء القرآن الكريم إلا على سبيل الاحتمال الذي لا يمتنع معه أن يراد بها غير القرآن ، ولهذا لا يمكن القطع بكونها من هذا النوع .

(٢) سورة يس ، الآيات ١ - ٣ .

(٣) سورة ص ، الآية ١ ، ٢ .

(٤) سورة الزخرف ، الآيات ١ - ٣ .

(٥) سورة الدخان ، الآيات ١ - ٣ .

٥ - قوله تعالى : { ق وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ * بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءُهُمْ مِنْذُرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ } (١١) .

والمقسم في جميع هذه الموضع هو الله تعالى . أما المقسم له فيحتاج في تعبينه إلى الوقوف على سياق كل موضع على حده .

ويأتي المقسم به في هذا النوع من القسم القرآني في صورتين رئيسيتين : فواضح من الآيات السابقة أن الله تعالى قد أقسم باسمين من أسماء القرآن الكريم :

أحدهما : القرآن ؛ وذلك في ثلاثة مواضع هي : الأول والثاني والخامس .
والآخر : الكتاب ؛ وذلك في الموضعين : الثالث والرابع .

وقد جاء المقسم به في كل من هذه الموضع الخمسة مقيداً بوصف خاص ، وجاء هذا الوصف متنوعاً في مواضع القسم بلفظ (القرآن) فهو تارة : (القرآن الحكيم) وتارة (القرآن ذي الذكر) وتارة (القرآن المجيد) .

أما الموضعان اللذان أقسم فيهما بلفظ الكتاب ؛ فقد اتحد فيهما الوصف الذي أتبع به المقسم به وهو (المبين) ؛ فصورة المقسم به في الموضعين هي (الكتاب المبين) .

أما المقسم عليه ؛ فقد اختلفت صياغته من موضع لآخر ، وخالف المفسرون في تعبينه وتحديده ، وسيأتي بيان ذلك وتفصيله في كل موضع من هذه الموضع .

وسيقف البحث - في هذا الباب - على خصوصية اختيار الاسم المقسم به ، والوصف الذي أتبع به في كل من هذه الموضع الخمسة ووجه اختصاص كل موضع بالصورة الخاصة المقسم بها فيه ، وسيكون ذلك في فصلين يثنان الصورتين الرئيسيتين لهذا النوع من أنواع القسم القرآني وهما : القسم بلفظ القرآن ، والقسم بلفظ الكتاب .

وين يدي ذلك نشير إلى ظاهرة مهمة تشتراك فيها الموضع الخمسة التي ورد
القسم فيها بأسماء القرآن الكريم؛ وهي اقتران هذه الموضع بالحروف المقطعة في
أوائل السور^(١).

وبالتأمل في هذه الظاهر المصاحبة لجميع مواضع القسم بأسماء القرآن الكريم -
نجد أنها تندرج تحت ظاهرة عامة في القرآن الكريم كله ، وهي أن هذه الحروف المقطعة
- كما يرى ابن القيم - « لم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، إما
مقسماً به ، وإما مخبراً عنه ، ما خلا سورتين : سورة (كهيعص)، و(ن) » (٢) .
والحق أن هذين الموضعين (في سورة مريم ، وسورة القلم) اللذين استثناهما ابن
القييم لا يخرجان فيما أتبعا به عن ذكر القرآن أو ما يتعلق به : لأن القضية المقسم
عليها في سورة القلم ذات علاقة بإثبات القرآن من طريق الإشارة إلى أساطير الأولين
وما فيها من التناقض والاختلاف المنافيين لما في القرآن من الحكمة وشواهد الكمال
التي تشهد بكمال المرسل به وتنتزهه عن تهمة الجنون التي رمي بها ، فقد قال
تعالى في صدر سورة القلم : ﴿نَّ وَالْقَلْمَ وَمَا يُسْطِرُونَ﴾ ما أنت بنعمة ربك
﴿يَعْجِنُونَ﴾ (٣) .

أما ما افتتحت به سورة مريم فقد جاء بعده ما يشير إلى القرآن في قوله سبحانه:
﴿كَهِيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ^(٤) ؛ فإذا كان التقدير : هذا ذكر
 رحمة ربك . . . ، أي هذا الجزء من القرآن الذي نوحيه إليك هو ذكر رحمة ربك لعبده
 زكريا ^(٥) ؛ فإن المذكور بعد المخروف المقطعة هو القرآن .

(١) تقدم أن هذه الحروف ليست من أنواع المقسم به في القرآن الكريم كما يرى بعض المفسرين ؛ انظر ص ٨٠ من هذا البحث .

٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٢٦.

(٣) سورة القلم ، الآية ١ ، ٢ .

(٤) سورة مرثیة ، الآية ١ ، ٢ .

(٥) انظر هذا المعنى في: معاني القرآن واعرابه للزجاج ٣١٨/٣ ، وزاد المسير ٥/٦٢ .

وبهذا يطرد اقتران هذه الحروف المقطعة بذكر القرآن ، مقسماً به أو مخبراً عنه ، في جميع مواضع ورودها في أوائل سور القرآن الكريم . وعلى هذا فإن القسم بأسماء القرآن الكريم بعدها يدخل ضمن هذا الملحوظ العام الذي يعوض العلاقة بين تفسير هذه الحروف وذكر القرآن الكريم بعدها ، من جهة الرأي القائل بأن لهذه الحروف صلة بالتنويه بإعجاز القرآن والتحدي بكونه منظوماً ومركباً من هذه الحروف .

وإذا كان الأمر كذلك فإن في مجيء القرآن الكريم مقسماً به بعدها - في ضوء هذا التحدي - زيادة تنويه بشأن القرآن ، وبهذا يتضح التلاؤم الخاص بين ذكر هذه الحروف وبين القسم بالقرآن الكريم ، في اتفاق كل من الأمرين في الإشارة إلى علو شأن القرآن والتنويه بإعجازه .

ومن هذا يتبين تآزر عناصر السياق في كل من هذه الموضع في الوفاء بالدلالة العامة له ، وهي تعظيم القرآن وتفخيمه ، وبخاصة في مقام إنكار الكافرين للرسالة التي تضمنها هذا القرآن .

وخلاصة القول أن لمجيء القرآن الكريم مقسماً به في هذه الموضع المخصوصه من بين تلك الموضع التي ورد فيها اقتران ذكر القرآن بالحروف المقطعة - خصوصيات تتعلق بتوفير الداعي على قوة اللفت إلى المعجزة - في هذا الموضع - على نحو لا يوجد في الموضع الأخرى ؛ فصورة القسم متتسقة مع الواقع الخاصة التي وردت فيها ، فيما تقتضيه من التنويه بشأن القرآن في صورة قوية تتفق مع مايلوح من قوة إنكار الرسالة التي ظهرت في سياقات هذه الموضع الخمسة أكثر من غيرها ، كما سيتضح من دراسة هذه السياقات في الفصلين التاليين .

الفصل الأول
القسم بلفظ القرآن

في هذا الفصل نتناول الصورة الأولى من صور القسم بأسماء القرآن الكريم ، وهي الصورة التي جاءت بلفظ (القرآن) ، وقد وردت - كما ذكرنا - في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، نوجز الإشارة إليها فيما يلي :

- ١ - في صدر سورة يس : قوله تعالى : « يس ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ » (١) .
- ٢ - في صدر سورة ص : قوله تعالى : « ص ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ » (٢) .
- ٣ - في صدر سورة ق : قوله تعالى : « ق ﴿ والقرآن المجيد ﴾ » (٣) .

والقسم في هذه الموضع الثلاثة صادر من الله تعالى كما هو الحال في سائر مواضع هذا النوع من القسم القرآني . أما المقسم له الذي خوطب بالقسم فستنقف على تعبينه في كل من هذه الموضع فيما سيأتي ، وكذلك المقسم عليه المراد توكيده .

وقد تنوّعت - كما هو واضح - الأوصاف التي أتبع بها المقسم به في كل من هذه الموضع؛ فللقرآن في كل منها وصف يغاير الوصف الذي وصف به في غيره؛ فهو في قسم يس (الحكيم) ، وفي قسم ص (ذي الذكر) ، وفي قسم ق (المجيد) .

وهذا التنوّع يعني أن للمقسم به في كل موضع من هذه الموضع الثلاثة مبنيًّا خاصًا ، ويدعو إلى تتبع خصوصيات هذا المبني في الموضع الذي ورد فيه وعلاقته به .

وقد جاء القسم في الموضع الثالثة بعد الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقد أشرت إلى دلالة هذه الظاهرة في صدر هذا الباب . وجاءت الحروف التي سبقت القسم بلفظ (القرآن) متنوعة كما يلحظ في الآيات ، وسيأتي بيان وجه اختصاص كل موضع بالحرف أو الحروف التي اقترن بها .

وستتناول - فيما سيأتي من هذا الفصل - كل موضع من هذه الموضع لنقف على

(١) سورة يس ، الآية ١ ، ٢ .

(٢) سورة ص ، الآية ١ .

(٣) سورة ق ، الآية ١ .

خصوصيات الصورة المقسم بها فيه ، ووجه تنوع الوصف الذي وصفت به ،
وعلاقتها بالموقع الخاص الذي وردت فيه ، وغير ذلك من الظواهر الخاصة في كل
موقع ، بالإضافة إلى دراسة خصائص التراكيب وأغراض الأساليب الداخلية في بناء
القسم ، والمصاحبة له ، وقيمتها في دلالة الأسلوب ، وعلاقتها بعناصره .

الموضع الأول : القسم بـ (القرآن الحكيم) :

قوله تعالى : « يس * والقرآن الحكيم * إنك من المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أندر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » (١) .

في هذا الموضع يقسم الله تعالى « بوجيه وتنزيله لنبيه محمد ﷺ إنك يا محمد من المرسلين بوحي الله إلى عباده » (٢) . فالقسم هنا صادر من الله تعالى، والمقسم له هنا هو الرسول ﷺ، ولكن إثبات هذا الأمر يشمل أيضاً كل من يسمع هذا الخطاب، وبخاصة الذين كفروا بهذه الرسالة كما سيأتي في بيان الغرض من هذه المؤكّدات .

ويأتي القسم بالقرآن في هذا الموضع بعد قوله : (يس) ، وقد اختلف في تفسيره، فقيل معناه : يا إنسان، على لغة طيء وقيل هو كذلك بالحبشية ، وقيل معناه : يارجل، وقيل : ياسيد البشر، والمقصود به محمد ﷺ، وقيل : هو قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه سبحانه. وقيل : هو من أسماء الرسول ﷺ ، وقيل : بل هو من أسماء القرآن وكل هجاء في القرآن اسم من أسماء القرآن ، وقيل فيها غير ذلك مما فسرت به الحروف المقطعة (٣) .

وقد أقسم الله تعالى في هذا الموضع بالقرآن موصوفاً بـ (الحكيم) أي : ذي

(١) سورة يس ، الآيات ١ - ٧ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ٩٧ .

(٣) انظر على سبيل المثال : تفسير الطبرى ٢٢ / ٩٧ ، ومعاني القرآن للفراء ٢ / ٣٧١ ، وكتاب لغات القرآن برواية ابن حسنو المسندة إلى ابن عباس ، ص ٣٩ ، وتفسير البغوى ٤ / ٥ ، وزاد المسير ٧ / ٣ ، ٤ ، والكساف ٣ / ٣١٣ ، وتفسير البيضاوى ص ٥٨١ ، والبحر المعيط ٧ / ٣٢٣ .

وقد تقدم أن هذه الحروف التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ليست ما أقسم الله تعالى به .
انظر ص ٨٠ من هذا البحث .

الحكمة المحكم بما فيه من الأحكام والحجج البينات ^(١) ، أو المحكم فلا يتعرض لبطلان وتناقض كما قال سبحانه : « ... أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ... » ^(٢) ، والمحكم في النظم والمعاني فلا يلحقه خلل ^(٣) . وقيل : قد يكون وصف بذلك لأنه دليل ناطق بالحكمة كالمحي، ويتأتى هذا على سبيل الاستعارة المكنية، أو أنه وصف بصفة المتكلم به ^(٤) .

وقد ذكر سيد قطب في بيان معنى وصف القرآن بالحكمة، وهي من صفات العقلاء، أن « التعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً . ومع أن هذا مجازاً إلا أنه يصور حقيقة ويقرها فإن لهذا القرآن روحأ ! وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك، وتصغي له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك » ^(٥) .

والحق أن الله تعالى قد أقسم بالقرآن الحكيم؛ فأطلق الوصف دون تحديد وجه من الحكمة دون وجه ، وعلى هذا فهو الحكيم في كل ما يصح أن يوصف بهذا الوصف من جميع الوجوه المتأتية فيه، في أحكامه، ونظمه، ومعانيه، وأساليبه، ومناهج دعوته، وتناسقه وتناسبه، ومجمله ومفصله، وسائر الفضائل المعرفة عن حكمته وحكمة المتكلم به سبحانه .

(١) تفسير الطبرى ٩٧/٢٢ ، وتنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ١٩٥/٥) .

(٢) سورة هود ، الآية ١ .

(٣) تفسير القرطبي ٥/١٥ ، وفتح القدير ٤/٣٦٠ .

(٤) الكشاف ٣١٤/٣ ، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ١٩٥/٥) ، وتفسير أبي السعود ١٥٨/٧ وروح المعانى ٢١١/٢٢ ، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٩٩/١٤ .

(٥) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٥٨ .

أكَدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا الْمَقْسُمَ بِهِ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدَ اللَّهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، أَيْ عَلَى طَرِيقٍ لَا اعْوَاجَ فِيهِ مِنَ الْهَدَى وَالْإِسْلَامِ ^(١) ، وَعَبَرَ عَنْهُ بِالتَّنْكِيرِ لِلتَّفْخِيمِ وَالْتَّعْظِيمِ ^(٢) . وَفِي قَوْلِهِ : « عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وَجْهَانُ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مِنْ خَبْرِ بَعْدِ خَبْرٍ ، أَيْ : إِنَّكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكَ عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَالآخَرُ : أَنَّهُ مِنْ صَلَةِ الإِرْسَالِ ، أَيْ : إِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ أُرْسَلُوا عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٣) .

وَقَالَ الزَّجاجُ - مُؤِيداً الْوَجْهَ الْأَوَّلَ : « وَأَحْسَنَ مَا جَاءَ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَكُونَ (مِنَ الْمُرْسَلِينَ) خَبْرَ (إِنَّ) وَيَكُونَ قَوْلَهُ : (عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) خَبْرَ ثَانِيًّا ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : إِنَّكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِنَّكَ عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ^(٤) ، وَلَعِلَّهُ جَعَلَ هَذَا التَّرْكِيبُ أَحْسَنَ مَا جَاءَ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ هَذَا النَّسْقِ؛ لِأَنَّهُ يَتَبَعَ لِلْمَؤْكُدِ الْأَوَّلِ أَنْ يَعْمَلُ فِي الْجَمْلَةِ الثَّانِيَةِ (عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) عَمَلُهُ فِي الْجَمْلَةِ الْأُولَى (إِنَّكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) ، دُونَ أَنْ يَتَكَرَّرَ ذَكْرُهُ ، وَهُوَ بِهَذَا يَدْخُلُ فِي الْمَقْسُمِ عَلَيْهِ الْمَؤْكُدُ بِالْقُسْمِ ، وَهَذَا الْجَزءُ مِنَ الْكَلَامِ يَحْسَنُ تَأْكِيدُهُ إِظْهَاراً لِهِ فِي الصُّورَةِ الْمُتَوَخَّةِ مِنْ تَأْكِيدِهِ بِالْقُسْمِ عَلَى سَبِيلِ الْإِيَّاهِ بِكَوْنِهِ قَدْ أَصْبَحَ بِهَذَا الْقُسْمِ أَمْرًا مَؤْكُدًا ، وَلَهُذَا تَدْخُلُ الْمَؤْكُدَاتِ - غَالِبًاً - عَلَى جَوابِ الْقُسْمِ .

أَمَّا قَوْلُهُ : (تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) بِنَصْبِ (تَنْزِيلٍ)؛ فَعَلَى مَعْنَى: تُرْزَلُ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمِ الْمُثَبَّتَةِ فِي الْمَصْحَفِ ، وَقَرِئَ بِالرْفَعِ عَلَى تَقْدِيرٍ : هُوَ تَنْزِيلٌ ... ، وَيَكُلَا الْوَجَهَيْنِ قِرَاءُ الْأَمْصَارِ كَمَا يَقُولُ الطَّبَرِيُّ ^(٥) .

(١) تفسير الطبرى ٩٧/٢٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٥٩/٧ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣٧٢/٢ ، وتفسير الطبرى ٩٧/٢٢ ، وتفسير البغوى ٥/٤ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ٢٧٨/٤ ، وانظر : زاد المسير ٤/٧ .

(٥) تفسير الطبرى ٩٧/٢٢ ، وانظر : تفسير البغوى ٥/٤ ، وانظر في القراءتين : كتاب السبعة في القراءات ص ٥٣٩ ، والنشر في القراءات العشر ٣٥٣/٢ .

وعلى الوجهين فإن هذا القول من المقسم عليه في هذا الموطن، وقد عَبَرَ عنه القرآن بالتنزيل « بياناً لكمال عراقته في كونه منزلأً من عند الله عز وجل، كأنه نفس التنزيل وإظهاراً لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة ... وعلى كل تقدير ففيه تأكيد لمضمون الجملة القسمية »^(١).

ومن هذا يتبيّن أن الخبر المؤكّد هنا هو قوله : « إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم »، وقد أكّد هذا الخبر بالقسم ، وإنَّ واللأم ، وأسمية الجملة، وتقدير إنَّ في التركيب على النحو الذي تكون فيه الجملة المتالية هنا أخباراً متواالية ، وقد ذكرت قبل قليل أن التأكيد الداخلي في جواب القسم معضد للتأكيد القسمي ، وأنه يظهر الخبر في الصورة المؤكدة التي يرمي إلى تحقيقها القسم ، وهذا نسق عام في كثير من مواضع القسم في القرآن الكريم .

ولكن لمثل هذه المؤكّدات شأنآ آخر في إثبات الخبر لدى المخاطب وهو هنا الرسول ﷺ ، وتأكيد هذا الخبر له لا يتأتى إلا على سبيل التسلية والتّأييد، والإيماء إلى الموقف المعارض المنكر لهذا الخبر، وقد ذكر بعض المفسرين^(٢) أن هذا القسم رد على الكفار الذين أنكروا الرسالة وحکي عنهم ذلك في قوله سبحانه : « ويقول الذين كفروا لست مرسلأً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب »^(٣) ، وذكر الألوسي^(٤) أنه الإنكار المحكي

(١) تفسير أبي السعود ١٥٩/٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال : تفسير البغوي ٤/٥ ، وتفسير القرطبي ٥/١٥ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ١٩٥/٥) ، وتفسير أبي السعود ١٥٨/٧ ، وفتح القدير ٤/٣٦٠ ، وروح المعاني

٢١٢/٢٢ .

(٣) سورة الرعد ، الآية ٤٣ .

(٤) انظر : روح المعاني ٢٢ / ٢١٢ .

في آخر سورة فاطر (١) - وهي التي تسبق يس - فجاء في أول هذه السورة القسم على إثبات ما أنكروه في آخر التي سبقتها .

وفي الجمع بين الفرضين يقول ابن عاشر : « وتأكيد هذا الخبر . . . باعتبار كونه مراداً به التعرض بالشركين الذين كذبوا بالرسالة ؛ فهو تأنيس للنبي ﷺ، وتعرض بالشركين، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير، وبالنسبة للمعنى الكنائي لرد إنكارهم، والنكت لا تزاحم » (٢) .

والقسم للكافرين على قضية ينكرونها لا يجدي في إثبات المقسم عليه إلا على الوجوه التي ذكرت في صدر هذا البحث؛ وذلك أن التأكيد في مثل هذا الضرب من القسم يتکيء على ما للقسم من رهبة عند هؤلاء المخاطبين الذين كانوا يتوقعون الأيمان الفاجرة ويخشون عاقبتها، فسلامة المقسم - مع رسوخ هذه الفكرة لديهم - أعظم دليل على صدقه ، وأن القسم أجدى في مخاطبة أرباب الجدل (٣) .

ولكن القسم في هذا الموضع لا يعتمد في تأكيده للمقسم عليه على ملابسات المقام فحسب، بل إن في تركيبه ما يؤكد المقسم عليه ويدفع إلى الإيمان المطلق بصحته، وذلك واضح فيما أشار إليه الرازبي من أن في القسم هنا دليلاً على المقسم عليه، فالقرآن معجزة والمعجزة هي دليل كونه مرسلاً ، وإنما سيق هذا الدليل في صورة اليمين لتكون الدواعي إلى الإصغاء إليه والاهتمام به أقوى ؛ فيتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب (٤) .

(١) انظر الآيات : ٤٢ - ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٢ .

(٣) التفسير الكبير ٤١/٢٦ . وانظر ماسبق في ص ٨٨، ٨٩ من هذا البحث .

(٤) التفسير الكبير ٤١/٢٦ . (بتصرف) . ولن تعليق هنا على قوله في هذا الموضع من تفسيره : « الثالث : هو أن هذا ليس مجرد المخلف وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين . . . » ؛ لأنه يفيد أن القسم يمكن أن يكون - في حالة من حالاته - مجرد صيغة تأكيد لا تدل على المقسم عليه ، وذلك ما لا يكمن أبداً ؛ لأن القسم في كل موضع من مواضعه قائم على أن المقسم به يؤكّد المقسم عليه بما تقوم بينهما من علاقات ، وما علاقة الاستدلال التي ذكرها الرازبي هنا إلا واحدة من تلك العلاقات .

وفي إشارة الرازى إلى كون القرآن (المقسم به) دليلاً على صدق الرسالة (المقسم عليها) - لفت إلى علاقة خاصة بين عنصري القسم ، وهي علاقة يقوم فيها المقسم به شاهداً على المقسم عليه ودليلأً عليه ، وفي ضوء هذه العلاقة يمكن تفسير خصوصية القسم بالقرآن و اختياره مقتضاً به في هذا الموقع .

- ويؤكد خصوصية اختيار المقسم به في هذا الموضع ودلالته على المقسم عليه من هذا الوجه أيضاً - أبو السعود : في قوله : « وفي تخصيص القرآن بالإقسام به أولاً ويوصفه بالحكيم ثانياً تنويه بشأنه وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته ﷺ من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع الحكم ، يشهد بها من هذه الحيثية أيضاً لما أن الإقسام بالشيء استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهداً به ودليلأً عليه قطعاً » (١) .

وفي هذا النص تفسير لخصوصية وصف المقسم بـ (الحكيم) ، وذلك أنه وصف يشير إلى جملة من وجوه الإعجاز في هذا القرآن المقسم به ، وعليها تقوم دلالة المقسم به على المقسم عليه ، وهذه هي قيمة هذا الوصف في العلاقة بين عنصري المقسم .

غير أن الرازى يشير هنا إشكالاً ؛ وهو أن « كون القرآن حكيمًا عندهم [أي الكافرين] لكون محمد رسولاً ، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم » (٢) ؛ أي أن إيمان هؤلاء الكافرين بكون القرآن حكيمًا لابد أن يسبقه إيمان بكون محمد ﷺ رسولاً ؛ فكيف يكون هذا قسماً مثبتاً للرسالة ، وهم يحتاجون لكي يؤمنوا بالقسم به (المؤكد للقسم عليه) إلى الإيمان بالقسم عليه ؟!

وقد أجاب عن ذلك من وجهين: أحدهما: «أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه

(١) تفسير أبي السعود ٧ / ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) التفسير الكبير ٢٦ / ٤١ .

قبل لهم : فأتوا بسورة من مثله »^(١) أي : أن قضية الإعجاز مقررة عندهم فيصح كون القرآن مقسماً به لإثبات الرسالة ، وهو الحكيم المعجز بشهادة فصحائهم وبلغائهم . والآخر : أن التأكيد هنا مستمد من ثقة المخاطبين في تعظيم المقسم للقسم به ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يقسم بالقرآن كاذباً ، وذلك أنه قد جرى العرف على « أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته . . . وكان من المعلوم أن النبي ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به »^(٢) .

وإذا كان الإيمان بكون القرآن حكيمًا أمراً مقرراً عند هؤلاء الكافرين ؛ فإن ذلك يقتضي أن يؤمنوا بالرسالة، وعلى هذا يمكن أن يفسّر مجيء المقسم به (وهو القرآن) موصوفاً بـ (الحكيم) وجه التعریض بموقف الكافرين من المقسم عليه ؛ لأن الإيمان بصدق الرسالة يتاتي من الإيمان بكونه حكيمًا ، وهو ما أقروه وعرفوه واشتهر عنهم ، ولكنهم يجحدونه حسداً واستكباراً ، وعلى هذا فإن اختيار صورة المقسم به مناسبة للمقام الخاص الذي جاء هذا القسم فيه لإثبات الرسالة على نحو خاص يقوم على الرد على موقف الكافرين المبني على الكبر والجحود بما استيقنوه أنفسهم^(٣) . وهذا يشير إلى أن في القرآن نفسه - وهو المتضمن للرسالة - دليلاً على صدقها وصحتها، ويومئه لهؤلاء المنكرين إلى أنه ليس ثمة شيء أكثر تأكيداً لصحتها من هذا القرآن الحكيم الذي استقر في أنفسهم كونه حكيمًا .

(١) التفسير الكبير ٤١/٢٦ . وانظر : الآية ٢٣ من سورة البقرة .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) علل القاسمي إيثار وصف القرآن بالحكمة بقوله : « ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل أوثرت في القسم به دون بقية صفاته لذلك » . (انظر : محاسن التأويل ١٤ / ٤٩٩) وهذا تعليل عقلي يفسر القسم بالشيء في معزل عن المقسم عليه ، وهذا مما يأبه الناظر

ويؤيد مناسبة صورة المقسم به هنا لهذا الموقف الخاص - على النحو الذي يُبيّن - أن هذا الإنكار قد صرحت به الآيات التي سبقت القسم في آخر سورة فاطر وهي الآيات التي حكت عنهم هذا الموقف ، يقول تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدي من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً * استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحique المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً » (١) .

و واضح من هذا صلة القسم وعناصره بالسياق الخاص الذي ورد فيه ، وهي الصلة التي جعلته يقع في صدر سورة يس بعد أن حكت الآيات في آخر السورة التي سبقتها - وهي سورة فاطر - ذلك الموقف الخاص من الكافرين تجاه الرسالة ، وهو موقف يجمع فيه الكافرون بين التكذيب استكباراً وبين المكر للرسول ﷺ ، كما جاء عنهم في الآيات السابقة : (استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحique المكر السيء إلا بأهله ...) وقد صرخ القرآن بأن من هذا المكر محاولة قتله ﷺ في قوله سبحانه : « وإذا يذكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلونك أو يخرجوك ويعکرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (٢) .

فلما كان هذا الموقف الذي أعرت عنه الآيات الواردة في آخر سورة فاطر متضمناً مواجهة الرسالة بتكذيبها استكباراً، والمكر بالمرسل بها، ومنه محاولة قتله ، جاء القسم في أول سورة يس بما يعرض بسبب تكذيبهم وهو الاستكبار وذلك قوله : « والقرآن الحكيم » - على الوجه الذي تقدم بيانه - ، وجاء في سياق هذا القسم - أيضاً - الحديث عن نصر الله تعالى لنبيه بنجاته من محاولة قتلهم إيه ومحركهم له ، وذلك في قوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً

(١) سورة فاطر ، الآية ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٣٠ .

فأغشيناهم فهم لا يبصرون»^(١)، وهذا ضرب من صلة القسم وعناصره بسياقه السابق واللاحق - دقيق جداً .

ومن وجوه ارتباط القسم بسياقه الخاص علاقته بما افتتحت به السورة من الحروف المقطعة وهو قوله سبحانه (يس) ، فبين هذا الافتتاح والقسم الذي تلاه وهو القسم بـ (القرآن الحكيم) علاقة عامة وأخرى خاصة ؛ فالعلاقة العامة هي اشتراك كل من الأمرين في التنويه بشأن القرآن وإعجازه على النحو الذي سبق تفصيله في صدر هذا الفصل^(٢) .

أما العلاقة الخاصة فيمكن تأملها من خلال تفسير (يس) ، فإذا فسرت وفق لغة طيء بـ : يـا إنسان ، أو فسرت بأنها اسم من أسماء الرسول ﷺ ، أو فسرت بأنها علم على السورة ؛ فهي بالدلولات الثلاثة تشير - كما يرى بعض الباحثين^(٣) - إلى معجزة (الإنسان الكامل) المتمثلة في الرسول ﷺ ، وبيـد كون الرسول ﷺ قد استوعـب صفات الإنسان الكامل أن الله تعالى يقول فيه مطلقاً لـفـظ (الناس) : «أـم يـحـسـدـونـ النـاسـ عـلـىـ ماـ آـتـاهـمـ اللـهـ مـنـ فـضـلـهـ»^(٤) .

وإذا كانت (يس) تشير إلى تحقق معجزة الإنسان الكامل - وفق هذا التفسير - وبيـدـهاـ ماـ جـاءـ فـيـ السـيـاقـ الـقـرـآنـيـ منـ إـطـلاقـ لـفـظـ (الـنـاسـ)ـ عـلـيـهـ ،ـ وـكـأـنـاـ هـوـ النـاسـ جـمـيـعـاـ ،ـ فـإـنـ مـجـيـءـ الـقـسـمـ بـالـقـرـآنـ الـحـكـيمـ عـقـبـ هـذـهـ الإـشـارـةـ منـاسـبـ لـمـاـ تـضـمـنـتـهـ منـ معـنىـ (الـإـنـسـانـ الـكـامـلـ)ـ ،ـ بـوـصـفـ هـذـاـ الـقـرـآنـ مـنـهـجاـ لـهـذاـ ،ـ (الـإـنـسـانـ الـكـامـلـ)ـ وـقـدـ تـحـقـقـ ذـلـكـ فـيـ صـفـوـةـ النـاسـ مـحـمـدـ ﷺـ؛ـ فـقـالتـ فـيـهـ عـائـشـةـ رـضـيـ اللـهـ

(١) سورة يـسـ ، الآية ٩ـ .ـ وـقـيـلـ إـنـ هـذـهـ الآـيـةـ نـزـلـتـ فـيـ وـصـفـ الـكـيـفـيـةـ الـتـيـ نـجـيـ اللـهـ تـعـالـىـ بـهـاـ نـبـيـهـ مـنـ مـكـرـ الـكـافـرـينـ حـيـنـ حـاـولـواـ قـتـلـهـ وـالـمـكـرـ بـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ؛ـ انـظـرـ :ـ لـبـابـ التـقـولـ فـيـ أـسـبـابـ التـزـولـ صـ ١٨٢ـ .ـ

(٢) انـظـرـ صـ ٣٨٤ـ مـنـ هـذـاـ الـبـحـثـ .ـ

(٣) انـظـرـ :ـ مـعـجزـاتـ قـلـبـ الـقـرـآنـ ،ـ لـلـأـسـتـاذـ هـاشـمـ دـفـتـرـدارـ :ـ صـ ٢٨١ـ ،ـ ٢٨٠ـ .ـ

(٤) سورة النـسـاءـ ،ـ الآـيـةـ ٥ـ٤ـ .ـ

عنها : « إِنَّ خَلْقَ نَبِيِّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ الْقُرْآنَ »^(١) ومن هنا نلحظ علاقة دقيقة تجري في السياق وتنتظم كل أجزائه في نسق واحد وفي ترابط عجيب .

ولوصف المقسم به هنا بالحكيم وكونه من صفات العلاء ، صلة بالرد على مطاعن الكافرين فيه وفي المرسل به ، في سياق إثبات الرسالة لهؤلاء المنكرين ، وبخاصة رميء بالجنون ، ففي هذا الوصف الذي اشتمل عليه المقسم به تنويه بحكمة هذا القرآن وشأن الرسول الذي بعث به ؛ فلهذا الوصف في هذا السياق قيمة ذات صلة بما دل عليه (يس) من معنى (الإنسان الكامل) فهو وصف يشير إلى ما فيه وما في الكتاب الذي بعث به من معاني الحكمة وأماماتها الواضحة المشهورة الشاهدة ببطلان تهمة الجنون وسائر ما وصفوه به من نعوت باطلة .

ولهذه العلاقة نظائر أخرى في القسم القرآني؛ فقد أقسم الله تعالى في قوله : « نَّ وَالْقَلْمَ وَمَا يَسْطِرُونَ * مَا أَنْتَ بِنَعْمَةِ رَبِّكَ بِجَنُونٍ »^(٢) ، أقسم في هذا الموضع بالقلم وما سطر به من العلوم والمعارف وغير ذلك من أساطير الأولين ، على نفي الجنون عن رسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ مستدلاً على ذلك بما أنعم الله تعالى به عليه من القرآن الحكيم الشاهد بالكمال في العقل والعلم وسائر الصفات، ثم ذكر في المقسم عليه - أيضا - قوله: « وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ »^(٣)، فنوه في هذا السياق بشأن الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ وخلقه العظيم الذي تقدم - في حديث عائشة رضي الله عنها - أنه هو القرآن الحكيم الذي أنعم الله به عليه . وكل ذلك وارد في سياق إثبات الرسالة ومصدرها والرد على افتراءات المشركين ، وفي كلا الموضعين اقترن المقسم به بالحروف المقطعة .

(١) الحديث في : صحيح مسلم (بشرح النووي) ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ، ٦ / ٢٦ .

(٢) سورة القلم ، الآية ١ ، ٢ .

(٣) سورة القلم ، الآية ٤ .

فهذه المعاني متسقة ومتراقبة في السياق القرآني ، وهي تؤيد ما أثبته هنا من الصلة بين المقسم به المقيد بوصف الحكيم وبين (يس) - بالتفسير السابق - . وهذا الاتصال الوثيق بين هذين القسمين - قسم سورة يس وقسم سورة القلم - يؤكّد ما تكررت إشارة هذا البحث إليه من وجود سياق عام يربط مواضع القسم في القرآن الكريم بعضها ببعض .

أما مناسبة القسم بالقرآن الحكيم على إثبات الرسالة ومصدرها للسياق العام لسوره يس ؟ فيتضح جانب منها في تعليل بعض المفسرين لتسمية هذه السورة بـ « قلب القرآن » ، فقد قالوا : إنها سميت بذلك لأنها عنيت بتقرير أصول الإيمان الرئيسة الوحدانية - الرسالة - البعث ، فكل مافيها ليس إلا تقريراً لهذه الأصول (١) ؛ والقرآن الحكيم المقسم به هنا قد عنى بتقرير هذه الأصول وكل ما فيه يندرج تحت تقرير هذه الأصول ؛ والرسالة المقسم عليها لم تكن إلا لإثبات هذه الأصول التي تضمنها القرآن الحكيم وتشبيتها في المرسل إليهم .

وعلى هذا تكون عناصر القسم : المقسم به والمقسم عليه ، المفتاح بها هنا عنواناً لما ضمته السورة من جمعها للعناية بالأصول التي ضمها هذا القرآن وجاءت بها هذه الرسالة فيكون القسم - في مجمله - تنويهاً بهذه العناية التي رشحت هذه السورة لأن تسمى « قلب القرآن » .

وإذا كان الأمر كذلك فلا أقل من أن تفتح السورة وتختتم - أيضاً - بالتنويه بشأن القرآن الذي جمعت هذه السورة قضياءه ، والرسالة المقسم عليها ؛ فكما افتتحت بالقسم بالقرآن الحكيم على إثبات الرسالة جاء في نهايتها قوله سبحانه : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لتنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » (٢) ، فاشتمل على تنزيه القرآن والتنويه به ، وإثبات الرسالة ، وهما المقسم به والمقسم عليه اللذين افتتحت بهما السورة . ويبين ذلك بسطت السورة الحديث في تقرير تلك الأصول .

(١) انظر : التفسير الكبير ١١٣/٢٦ ، ونظم الدرر ٨٤/١٦ مما بعدها ، والتحرير والتنوير ٢٤٤/٢٢ .

(٢) سورة يس ، الآية ٦٩ ، ٧٠ .

فهذا هو وجه صلة القسم وعناصره بالسياق العام للسورة التي ورد فيها ، ووجه انتظامه معها .

وتحمة وجوه أخرى تربط بين القسم وبعض أجزاء السورة ؛ ومن ذلك ما جاء فيها من بسط قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون ، فالموقف الخاص لأصحاب هذه القصة يماثل الموقف القسمى الذى صدرت به السورة وهو موقف كفار قريش ، بجامع مابينهما من المبالغة في التكذيب والإنكار ، والاعتداء على رسول الله تعالى ، وقد تقدم أن الموقف الخاص الذى أقسم فيه في صدر هذه السورة جمع فيه الكافرون من قريش بين الإنكار والمكر والاعتداء ، وهذا هو وجه صلة قصة أصحاب القرية بالسياق الخاص الذى جاء فيه القسم .

ومن وجوه ارتباط القسم بسورته أن هذا القرآن الحكيم الذى أقسم الله تعالى به على إثبات الرسالة وعلى أنه (تنزيل العزيز الرحيم) قد اشتمل على كثير من مظاهر عزة الله تعالى ورحمته ، ولما كانت هذه السورة جامعة لما اشتمل عليه القرآن ، شاع فيها أيضاً الحديث عن كثير من مظاهر عزة الله ورحمته ، فكان هذا الجزء من المقسم عليه مهدأً لهذا الشيوع ، وقد لحظ أستاذنا الدكتور حسن باجودة أن مجيء هذين الاسمين الكريمين من أسمائه سبحانه : (العزيز - الرحيم) في صدر السورة دون سواهما يلقي « ضوءاً كبيراً على الكثير جداً من الآيات في هذه السورة المباركة التي تتجلّى فيها قدرة الفعال لما يريد وعزته ، ورحمة البر الرحيم التي وسعت كل شيء » (١) .

وإذا كان القسم بالقرآن الحكيم يلفت أولئك الكافرين إلى ما استقر عندهم من دلائل حكمته ؛ وهو ما تضمنته آياته المحكمات ؛ فإن ذلك يلفت أيضاً إلى حكمة منزله وقائله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء في السورة - بعد حكاية قصة أصحاب القرية وتکذيبهم وأخذ الله تعالى لهم - اللفت إلى دلائل قدرة الله تعالى وعزته

(١) تأملات في سورة يس ص ١٧ ، ١٨ . وقد أبان أستاذنا ذلك في ص ١٨ مما بعدها ، وانظر ص ٦٢ . وفي الكتاب - في مجلمه - بيان لجريان هذين الوصفين في السورة .

ورحمته الناطقة بحكمته ، وصدر كل لفت بقوله : (وآية لهم . . .) ؛ مشيراً إلى إحياء الأرض الميته ، وجعل الجنات وتفجير العيون ، وخلق الأزواج كلها ، وانسلاخ النهار من الليل ، وجريان الشمس وتقدير منازل القمر ونظام الفلك ، وحمل الناس في الفلك ^(١) ، فكل ذلك أشير إليه بوصفه : آية لهم ، وكأنما هي آيات ناطقات كآيات القرآن الحكيم الذي تحيا به القلوب والنفوس ، فتشمر الخير ، وتعمر العالم ، وتخرجه من الظلمات إلى النور ^(٢) ، وهي آيات متسقة في نظام كنظام هذا الكون في إبداعه وتناغم أجزائه وترابطها ، اتساقاً محكماً يشهد بأنها (تنزيل العزيز الرحيم) ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بل هم كما عقب سبحانه على الآيات السالفات بقوله : « **وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مَرْعُضِينَ** » ^(٣) ، والتعليق بهذه الآية يشمل موقف الكافرين من الآيات جميعها : الكونية والقرآنية . وهذا نظر دقيق تظهر به الصلة الوثيقة العميقـة بين القسم بالقرآن الحكيم وبين هذه الآيات التي نوهت بتلك الآيات الكونية .

وبعد ، فصلات القسم بسياقه العام أكثر وأدق من أن تستقصيها في هذا

(١) انظر الآيات : ٤٤ - ٣٣ .

(٢) يلاحظ هنا أن ترتيب هذه الأمور في الذكر في الآيات المشار إليها هنا في سورة يس يأتي على نحو يشي بعلاقة التمثيل بين آيات الكون وآيات القرآن ، فآية إحياء الأرض تحكي إحياء القرآن للقلوب وهو ما جاء بعد ذلك في السورة نفسها في قوله سبحانه : (. . . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لَتَنذَرَ مَنْ كَانَ حَيَا وَيَحْقِّقُ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ) (٧٠ ، ٦٩) ، ثم ذكر عقب آية إحياء الأرض ما يتبع ذلك من جعل الجنات وتفجير العيون وجني الشمار وهو مقابل الخير الذي يشعر عنه إحياء القرآن للقلوب ، وهكذا آيات الليل والنهار والشمس والقمر فهي تقابل حركة الخروج من الظلمات إلى النور ، ولو ذهبنا في تتبع هذه العلاقات مذهب الاستقصاء لشغلنا ذلك عن غيره ، وحسبـي هنا أن أشير إلى أن علاقة إحياء الأرض بالماء بإحياء النفوس بالقرآن علاقة مطردة في البيان القرآـني وسيأتي تفصـيل آخر لهذا الملحوظ في مواضع تالية .

(٣) الآية : ٤٦ .

الموضع ، وإنما هي علامات وأمارات نحاول أن نضعها بين يدي القارئ لتطلّعه على وجه مجيء هذا القسم في هذه السورة . وكذلك الشأن في الجوانب المختلفة التي وقفنا عندها في هذا الموضع وغيره .

الموضع الثاني : القسم بـ (القرآن ذي الذكر) :

قوله تعالى : « ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاء * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحد إن هذا لشيء عجائب * وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب » (١) .

هذا القسم يرد - كما هو واضح - في سياق الحديث عن تكذيب الكافرين للرسالة وتعجبهم مما تضمنته من الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك ، وتعجبهم من كون الرسول ﷺ بشراً ، وما تبع ذلك من رميهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالسحر . وتوضح الآيات أيضاً السبب الذي دعاهم إلى التكذيب بالرسالة وهو حسدهم للمرسل بها وذلك في قوله سبحانه : (أنزلنا عليه الذكر من بيننا . . .) الآيات . وهذا سياق يشبه - في مجمله - سياق القسم السابق الوارد في سورة يس .

وكما كان القسم في صدر سورة (يس) مسبوقاً بالحروف المقطعة جاء هذا القسم مسبوقاً بقوله : ص ؛ وقد اختلف في معناه؛ فقال بعضهم : هو من المصاداة من صاديت فلاناً أي عارضته ، وعلى هذا ذكروا أن معناه : صاد بعملك القرآن أي عارضه به . وذكر بعضهم أنه قسم الله به وأنه من أسمائه سبحانه أو من أسماء القرآن ، أو هو مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها ص . وذهب بعضهم إلى أن المعنى : صدق الله أو صدق محمد ﷺ . وقيل: هو في معناه كقولك : وجب والله ، نزل والله ، وحق والله ، فهو جواب لقوله : (والقرآن . . .) كما يقال : حقاً والله .

(١) سورة ص ، الآيات ٨-١ ، وانظر الآيات ١٦-٩ .

وفي ذلك وجوه أخرى أثبتتها المفسرون (١).

والقسم هنا صادر من الله تعالى . وقد روي أن هذه الآيات قد نزلت عقب موقف جرى بين الرسول ﷺ وقومه من كفار قريش؛ وذلك أنه لما مرض أبو طالب جاءته قريش وجاءه الرسول ﷺ « فشكوه إلى أبي طالب، فقال : يا ابن أخي ما تريده من قومك ؟ قال : ياعم إما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب وتؤدي إليهم الجزية بها العجم . قال : وما الكلمة ؟ قال : كلمة واحدة، قال : ماهي ؟ قال : لا إله إلا الله ، فقالوا: أجعل الآلة إلهًا واحداً ؟ ... فنزل فيهم القرآن : « ص القرآن ذي الذكر ... » (٢) .

وهذه الرواية تشير إلى أن القسم الوارد في صدر هذه الآيات يراد به الرد على أولئك المشركين فيما اعترضوا به على الوحدانية وما تبع ذلك من مواقفهم من أصول الرسالة التي حكى في هذا السياق ، وأن المخاطب به هو الرسول ﷺ ، ويفيد كونه عليه السلام مخاطباً في هذا الموضوع قوله سبحانه عقب حكاية تلك المواقف الصادرة منهم : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدينا داود ذا الأيد إنه أواب » (٣) .

والغرض من التوكيد القسمي في هذا الموقف تسلية الرسول ﷺ ، كما تقدم في سورة يس ، وصرح بهذا الغرض في الآية السابقة وعطف عليه اللفت إلى قصة داود عليه السلام وما بعدها من القصص الواردة في هذه السورة ؛ فربط فيها بين الأمر بالصبر والأمر بذكر حال الأنبياء السابقين ، لأن المراد من الأمرين تسلية الرسول ﷺ والتحفيظ عنه في المواقف التي كان يلقى فيها ما يلقى من استكبار قومه وعنادهم وشقاقهم .

(١) انظر : تفسير الطبرى ٧٤/٢٣ ، ٧٥ ، تفسير البغوى ٤٧/٤ ، الكشاف ٣٥٨/٣ ، زاد المسير ٩٧/٧ التفسير الكبير ١٧٤/٢٦ ، تفسير الخازن ، وتنوير المقابس (كلها ضمن مجمع التفاسير ٥/٤٦٠) ، البحر المحيط ٣٨٣/٧ ، فتح القدير ٤١٩/٤ ، وروح المعانى ١٦١/٢٣ .

(٢) أسباب النزول ، للواحدى ص ٤٢٤ ، وانظر : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطى ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) سورة ص ، الآية ١٧ .

ويضاف إلى هذا قضية توكييد الرسالة ، وهي القضية الظاهرة الواضحة في سياق هذا القسم ، فالقسم يوجه هؤلاء الكافرين إلى (القرآن ذي الذكر) ويقرن به التصرّح بموافقتهم منه ، وفي ذلك زيادة لفت إلى دليل الرسالة مع بيان عدم انتفاعهم بهذا الدليل ويكون في هذا القسم تأكيد أن القرآن ذو ذكر ، وهو مضمون مؤكّد للرسالة ، وقد يكون الخطاب هنا لكل من يصح أن يكون مخاطباً ، وعلى هذا يكون اللفت إلى ذلك بالتأكيد القسمى عاماً لجميع المخاطبين .

والقسم به في هذا الموضع هو قوله : (والقرآن ذي الذكر) ؛ فقد أقسم الله تعالى هنا بالقرآن موصوفاً بـ (ذي الذكر) ، وفي تفسيره وجهان : أحدهما : ذي الشرف ، قال تعالى : « **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ...** »^(١) ، وقال تعالى : « **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ...** »^(٢) وهو من قولهم : لفلان ذكر في الناس ، كما يقال : له صيت . والآخر : ذي التذكير ذكركم الله به ، وذي البيان ؛ أي بيان قصص الأولين والآخرين ^(٣) ، وما يحتاج إليه من الأمور الشرعية والأحكام والوعد والوعيد ^(٤) .

واختار الطبرى أن يكون المراد به التذكير « لأن الله أتبع ذلك قوله : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) فكان معلوماً بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذكراً لعباده ذكرهم به وأن الكفار من الإيمان به في عزة وشقاق »^(٥) ، وهو يعول في هذا الاختيار على علاقة معنى المقسم به بما بعده وهو قوله : (بل الذين كفروا في عزة

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠ .

(٣) انظر على سبيل المثال : تفسير الطبرى ٧٥/٢٣ ، وتفسير البغوى ٤٧/٤ ، وتفسير الكشاف ٣٥٩/٣ ، والتفسير الكبير ١٧٥/٢٦ ، وتنوير المتباس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٢٠٦/٥) ، وروح المعاني ١٦٢/٢٣ .

(٤) روح المعاني ١٦٢/٢٣ .

(٥) تفسير الطبرى ٧٥/٢٣ .

وشقاق) ، وهذا يرجح أن يكون هذا القول - كما سيأتي - هو المقسم عليه ، لما بين هذين العنصرين في أسلوب القسم من علاقة تهيء أن يفسر أحدهما الآخر .

وعلى الرغم من أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه قد أشارت إلى المقسم عليه في هذا الموضع ، وعلى الرغم من وجود دلائل أخرى - سيأتي بيانها - تشير إلى كون المقسم عليه هو قوله : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ، فضلاً عن ذهاب بعض المفسرين إلى كون هذه الآية هي المقسم عليه ؛ فإن المفسرين قد اختلفوا في تحديد جواب هذا القسم اختلافاً لا نظير له في أكثر مواضع القسم في القرآن الكريم .

ويمكن تصنيف آرائهم في ذلك على النحو التالي :

١ - القول بحذف الجواب :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الجواب في هذا الموضع ممحوظ واحتلقو في تقديره ؛ فقال بعضهم : حذف الجواب ودل عليه قوله تعالى : (بل الذين كفروا . . .) والتقدير : القرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقول الكفار ^(١) . وذهب الزمخشري - في أحد وجهين في تفسيره لهذه الآية - إلى أن التقدير : إنه لعجز ؛ دل عليه تقدم الحرف (ص) لما فيه من الإشارة إلى التحدى والإعجاز ^(٢) . وذهب ابن عبد السلام ^(٣) إلى أن التقدير هنا : لنهلنken أعداءك؛ لأنه مردف بقوله: (كم أهللنا من قبلهم من قرن . . .) .

ويرى أبو حيان أن تقدير الجواب في هذا الموضع يعتمد على قياسه بالذكر في نظيره، وذلك في قوله: « ينبغي أن يقدر ما أثبت هنا جواباً للقرآن حين أقسم به وذلك في قوله تعالى: ﴿ يس * القرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين ﴾ ^(٤) ويقوى هذا

(١) انظر : تفسير الطبرى ٧٥/٢٣ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٥/٢٦٠) .

(٢) الكشاف ٣٥٩/٣ ، وانظر: التفسير الكبير ٢٦/١٧٤ ، وتفسير البيضاوى ٥٩٩ ، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٥/٢٦٠) ، وتفسير أبي السعود ٧/٢١٣ .

(٣) انظر : الإشارة إلى الإعجاز في بعض أنواع المجاز ص ٢٣ .

(٤) سورة يس ، الآية ٣-١ .

التقدير ذكر النذارة هنا في قوله : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . . . »^(١) وقال هناك [أي في يس] : « لتنذر قوماً . . . »^(٢) ، فالرسالة تتضمن النذارة والبشارة »^(٣) .

وهذا القياس الذي اعتد به أبوحيان غير مجد في تحديد جواب القسم؛ لأن القسم في كل موضع ذو علاقة بجوابه ، ومن ثم فإن الجواب يختلف باختلاف صورة القسم ، وهذا لا يعني أن المضمون الذي يثبته القسم لا يتحدد في أكثر من موضع؛ فإن إثبات الرسالة هو المضمون العام في جميع مواضع القسم بالقرآن ، ومع ذلك فإن صيغة الجواب قد تبيأنت في هذه الموضع .

ويرى ابن القيم أن الجواب في هذا الموضع من النوع الذي يحذف لدلالة السياق عليه ؛ لأن في المقسم به ما يدل على المقسم عليه فلا يحتاج إلى جواب « فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر، المتضمن لذكر العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر ، ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقاً من عند الله ، وغير مفترى، كما يقوله الكافرون »^(٤) .

وواضح في هذا الرأي أنه يعتمد على دلالة المقسم به على مضمون المقسم عليه، وهذه العلاقة مطردة في جميع مواضع القسم في القرآن الكريم ، ومع ذلك لم يحذف الجواب - وإن بدا محدوداً في بعضها - من جميع هذه الموضع إلا عندما يفسره السياق تفسيراً قاطعاً لا لبس فيه ، كما مر في بعض الموضع^(٥) .

(١) سورة ص ، الآية ٤ .

(٢) سورة يس ، الآية ٦ .

(٣) البحر المحيط ٣٨٣/٧ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ١١ .

(٥) انظر: تفسير قوله تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا على ربيهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) في ص «» من هذا البحث .

وكذلك تفسير قوله تعالى: (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) في ص ٩٣٩ .

وخلصة القول في الحكم على هذه الآراء التي يرى أصحابها أن الجواب ممحض ويدهبون في تقديره تلك المذاهب؛ أن الجواب عنصر هام ثابت في أسلوب القسم، لأنه هو المؤكد، وأنه لا يحذف أبداً، وإنما يترك ذكره إذا فسره المذكور في السياق تفسيراً لا يحتاج معه إلى تلك التقديرات التي لا يقوم عليها دليل ، وعند ذلك لا يكون هذا حذفاً لأن الجواب معروف على وجه القطع .

٢ - وقيل إن الجواب مذكور :

وقد ذهب بعض أصحاب هذا الرأي إلى أن الجواب متقدم وهو قوله : (عليه) على معنى: وجب والله ونزل والله -على النحو الذي تقدم في بعض وجوه تفسير هذا الحرف- أو على معنى : صدق الله أو صدق رسوله عليه (١) وهذا القول يعول على كون الجواب يتقدم القسم وهو مخالف للبناء المعروف لأسلوب القسم، فضلاً عن تعويله على تفسير (ص) بالمعنى الذي سبق وهو لا يسلم من اعتراض .

وذهب آخرون إلى أن الجواب هو قوله : «كم أهللنا من قبلهم من قرن . . .» (٢) ولما كان لا يصح إلا باللام ذكروا أنها حذفت منه لأنه قد اعترض بين القسم والجواب كلام فجاء قوله (كم أهللنا . . .) جواباً للقسم وللكلام المعارض به، والتقدير: لقد أهللنا، وذكروا أن حذف اللام هنا كحذفها في قوله : «قد أفلح من زكاها » (٣) فإن تقديرها: لقد أفلح ، ولكنها حذفت منه لما اعترض بين القسم والجواب بكلام (٤). واضح في هذا الرأي تكلف تقدير اللام ليوافق الكلام الصورة التي يأتي عليها الجواب في العرف النحوي ؛ لأن (كم) لا يتلقى بها القسم ، ولهذا

(١) انظر: معاني القرآن للفراء، ٣٩٦/٢، وتفسير الطبرى ٧٥/٢٣، وتفسير البغوى ٤٧/٤، وال Kashaf

. ٣٥٩/٣

. (٢) الآية ٣ .

. (٣) سورة الشمس ، الآية ٩ .

. (٤) انظر: معاني القرآن للفراء، ٣٩٧/٢، وتفسير الطبرى ٧٦/٢٣ .

استبعده ابن القيم وذكر أنهم لما لم يخف عليهم ذلك قدروا اللام هنا ليكون فيه ما يتلقى به (١).

وذكر الأخفش الأوسط (٢) أن قوماً يزعمون أن الجواب هو قوله : « إن كل إلا كذب الرسل . . . » (٣)، وهذا - كما يقول ابن القيم - أبعد من سابقه (٤). وقيل: الجواب قوله : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » (٥)، وهو منقول عن الكوفيين والزجاج، واستبعده الكسائي (٦)، ورده الفراء في قوله: « وذلك كلام تأخر كثيراً عن قوله : (والقرآن) وجرت بينهما قصص مختلفة ؛ فلا نجد ذلك مستقيماً في العربية » (٧) واستبعده ابن القيم أيضاً (٨). وذهب أبو حيان في أكثر هذه الأقوال إلى أنه يجب إطراحها (٩).

وأولى الأقوال بالصواب قول من ذهب إلى أن الجواب هو قوله سبحانه: (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ، وهو مروي عن قتادة ، واختاره غير واحد من المفسرين واستدلوا عليه بأن (بل) في توكيده مابعدها ك « إن » المشددة ، وعلى هذا يتلقى بها القسم كما يتلقى بـ (إن) (١٠).

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١١.

(٢) معاني القرآن للأخفش الأوسط ٤٥٣/٢ ، وانظر: تفسير الطبرى ٧٦/٢٣ ، والبحر المحيط ٣٨٣/٧ .

(٣) الآية ١٤ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ١١ .

(٥) الآية ٦٤ .

(٦) انظر معاني القرآن للفرا ، ٣٩٧/٢ ، وتفسير الطبرى ٨٦/٢٣ ، وتفسير البغوى ٤٧/٤ ووصفه بالضعف ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٢٦١/٥) ، والبرهان في علوم القرآن ١٩٣/٣ .

(٧) معاني القرآن للفرا ، ٣٩٧/٢ .

(٨) التبيان في أقسام القرآن ص ١٢ .

(٩) البحر المحيط ٣٨٣/٧ .

(١٠) انظر: معاني القرآن للأخفش ٢٠/١ ، وتفسير الطبرى ٧٦/٢٣ ، وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٢٦١/٥) ، والبرهان في علوم القرآن ١٩٣/٣ ، وروح المعاني ١٦٢/٢٣ .

وسواء أكانت (بل) بمعنى (إن) أم لم تكن كذلك فإن اعتبار هذا القول جواباً للقسم لا يشترط له أن يصدر بما يتلقى به القسم عند النحويين؛ فقد ذكر ابن كثير في تفسيره للقسم في قوله تعالى: (ق القرآن المجيد) أن «الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم... وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما... في قوله: (ص. القرآن ذي الذكر بل الذين كفروا...)»^(١)، ولهذا نقل في تفسير جواب هذا القسم قول بعضهم: إن الجواب «ماتضمنه سياق السورة بكمالها»^(٢)، وهذا رأي له وجه من الصحة إذا علم أن للقسم علاقة وثيقة بالسورة كلها، ولكنه يفيدنا هنا في تأكيد أن الجواب هو ما يصلح أن يكون جواباً من خلال علاقته بالقسم، وإن لم يكن مصدراً بما يصدر به الجواب في الغالب.

على أن في هذه الآية: (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) من المؤكدات - غير كون (بل) بمعنى (إن) - ما يجعلها موافقة لتركيب الجواب في أسلوب القسم، وذلك أن تصديرها بـ(بل) الرابطة بين القسم والجواب يدل على أن في الكلام نفياً لما قبلها وإثباتاً لما بعدها فمعناها - كما يقول الألوسي - : «ليس الذين كفروا إلا في عزة وشقاق»^(٣)؛ وعلى هذا فقد اشتمل الجواب على مضمون واحد من أقوى أساليب التوكيد وهو القصر. ويضاف إلى هذا أن في وجوه التعبير التي اشتمل عليها هذا القول ما يفيد التوكيد؛ فقد جاء التنکير في كلمتي: (عزّة وشقاق) معبراً عن شدتهمَا وتفاقمِهَا وتفاخُمِ الْكُفَّارِ فِيهِمَا^(٤)، وجاء التعبير بحرف الجر في قوله (في عزة وشقاق) على سبيل الاستعارة التبعية للمبالغة في إحاطة هاتين الصفتين بالكافرين إحاطة الظرف بالمطلوب^(٥).

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٢١.

(٢) المصدر السابق ٤/٢٦.

(٣) روح المعاني ٢٣/١٦٢.

(٤) انظر: الكشاف ٣/١٥٩، وتفسير البيضاوي ٥٩٩، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٥/٢٦٠) والتسهيل لعلوم التنزيل ٣/٣٧٩.

(٥) انظر: نظم الدرر ١٦/٣٢٣، والتحرير والتنوير ٢٣/٤٢٦.

فجميع ما تقدم يدل دلالة واضحة على أن الجواب هو قوله سبحانه : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) وإن لم يكن فيه الأدوات التي يتلقى بها القسم عند النحويين ، وهو الأقرب إلى السياق ، ولهذا قال ابن القيم في هذا الرأي : « وأقرب ما قيل في الجواب لفظاً ، وإن كان بعيداً معنى ، عن قتادة وغيره : أنه قوله : بل الذين كفروا »^(١) . وقد تبين مما سبق أنه يصلح أن يكون جواباً لهذا القسم من جميع الوجوه .

والمراد بـ (الذين كفروا) كفار مكة ، والعزّة : الحمية والتكبر ، والشقاق : المشاقة والخلاف والعداوة^(٢) . وذكر الرازبي في تفسير هذه الآية أن المراد بـ (الذين كفروا) : « الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والتكبر عن الانقياد إلى الحق . والعزّة هنا: التعظيم ، وما يعتقد الإنسان في نفسه من الأحوال التي تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى : ﴿إِذَا قِيلَ لَهُ أَتَقْ أَنْ أَخْذَهُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ﴾^(٣) . والشقاق : هو إظهار المخالفات على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه ، وهو مأخذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شق وخصمه في شق فيريد أن يكون في شقة نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه »^(٤) .

وعلى هذا فقد أقسم الله تعالى بالقرآن موصوفاً بـ (ذي الذكر) على أن الكافرين في عزة وشقاق عن الإيمان بالرسالة التي تضمنها هذا القرآن على الرغم مما فيه من الذكر المفضي إلى الإيمان بكونه من عند الله تعالى ، ويكون محمد ﷺ مرسلاً به . ومعنى هذا أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه تتمثل في كون (القرآن ذي

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبراني ٦٧/٢٣ ، وتفسير البغوي ٤٧/٤ ، وتنوير المقباس (ضمن مجمع التفاسير ٢٦٠/٥) .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٠٦ .

(٤) التفسير الكبير ١٧٥/٢٦ .

الذكر) دليلاً على صدق الرسالة التي هم منها في عزة وشقاوة ، ففي المقسم به لفت إلى ما يصح الموقف المقسم عليه وإشارة إلى أن هذه الصفة الراسخة الواضحة في القرآن توصل حتماً إلى الإيمان بالرسالة ، ولكن الذين كفروا لم يؤمنوا استكباراً وجحوداً وحسداً ، فكان في موقفهم مخالفة لما كان متوقعاً، وكانت النتائج على خلاف ماتفضي إليه المقدمات .

ولما كانت العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه على هذا النحو جاء الربط بينهما بـ (بل) المشعر بانقطاع القسم عن الجواب للتعبير عن بعد ما بين ما يفضي إليه المقسم به من الإيمان ، وما آلت إليه حال القوم من التكذيب والاستكبار .

ويبين المقسم به والمقسم عليه تناسب من وجه آخر؛ وذلك أن في القسم بالقرآن موصوفاً بهذا الوصف ، واقترانه بالحروف المقطعة - تنويهاً بشأنه وتشريفاً له ، وفي المقسم عليه بهذا القسم تحذيراً لوقف الكافرين المناقض لهذا التنويه والتشريف ، فعلاقة التضاد هنا هي الرابطة بين عنصري القسم . وعلى هذا يكون الالتفات بـ (بل) - كما يرى سيد قطب - قد جاء على نحو « يوجه النظر بشدة إلى المفارقة العظيمة بين تعظيم الله تعالى لهذا القرآن، واستكبار المشركين عنه ومشاقتهم فيه وهو أمر عظيم »^(١) .

وهذه العلاقة ذات أثر عظيم في إثبات المقسم عليه : لأنه إذا ثبت بالقسم بـ (القرآن ذي الذكر) أنه عظيم ، وأنه ذو ذكر يدعوا إلى الإيمان به؛ ثبت من كل الوجوه أن هؤلاء الكافرين لم يكذبوا به إلا لما هم فيه من العزة والشقاوة؛ فهم كما قال الله تعالى عنهم: «... فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»^(٢) . ومن هذا يتضح أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه هي التي تشير إلى المضمون المقسم عليه دونها حاجة إلى تقدير أمر خارج عن الأسلوب، كما فعل بعض المفسرين فيما مر ذكره .

(١) في ظلال القرآن ٥/٧٠٣ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٤٣ .

وللوصف الذي وصف به المقسم به خصوصية هامة في تأكيد المقسم عليه لدى المخاطب؛ وذلك أنه « لما كان القسم لا يليق ولا يحسن إلا بما يعتقد المقسم له شرفه؛ قال : (ذى الذكر) أي الموعظة والتذكير بما يعرف والعلو والشرف والصدق الذى لا ريب فيه عند كل أحد ، فكل من سمعه اعتقاد شرفه وصدق الآتي به . . . »^(١).

وثرمة علاقة خاصة بين القسم في هذا الموضع والموقع الخاص الذي جاء فيه؛ فصورة القسم الواقع هنا في صدر سورة (ص) مناسبة للسياق الخاص في صدر هذه السورة ولما ورد في آخر السورة التي سبقتها وهي سورة الصافات ، ويتم هذا التنااسب على نحو دقيق يربط أول هذه السورة بآخر ماقبلها .

وذلك أن المتحدث عنهم في هذا القسم هم الذين حُكِي عنهم في آخر سورة الصافات تقنيهم إنزال الذكر في قوله تعالى: « وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكرًا من الأولين * لكان عباد الله المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون »^(٢)؛ فلما اشتملت الآيات في آخر الصافات على ذلك ؛ افتتحت سورة (ص) بالقسم بالقرآن موصوفاً بما قنوه : (والقرآن ذي الذكر)، وكان القسم به يلفتهم إلى أن هذا هو القرآن ذي الذكر الذي قنوا، فهل آمنوا ؟ لا: (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) .

وعلى هذا فقد جاءت صورة القسم مناسبة للسياق الذي تقدمه . ومن ناحية أخرى فإنها تناسب أيضاً الموضع الخاص ، وهو صدر سورة (ص) ؛ فهو قسم على موقف كفار قريش في إنكارهم للرسالة وعجبهم من مجيء المنذر منهم ، ومما جاء به من المعتقدات، وعجبهم - على وجه الخصوص - من أن ينزل عليه (الذكر) من بينهم: « أَنْزَلْ عَلَيْهِ الْذِكْرَ مَنْ بَيْنَا بَلْ هُمْ فِي شُكْرٍ بَلْ لَمْ يَذُوقُوا عَذَابَ »^(٣)، فلما بنى إنكارهم للرسالة على عجبهم من ذلك واستبعادهم له وحسدهم

(١) نظم الدرر ٣٢٣/١٦ .

(٢) سورة الصافات ، الآيات ١٦٧-١٧٠ .

(٣) سورة ص ، الآية ٨ .

للمرسل بها؛ جاء القسم بـ (القرآن) الذي نزل على الرسول ﷺ موصوفاً بـ (ذى الذكر) ليناسب الوجه الذى بنى عليه موقف الكافرين .

وما سبق يتضح أن هذا القسم قد ربط بين سياقين لكل منهما صلة بالوصف الذى وصف به المقسم به فيه ، وهذا يشير إلى تمكن هذا القسم من المقام الخاص الذى ورد فيه باتصاله مع ما قبله وما بعده اتصالاً وثيقاً .

وبين العناصر التي اشتغلت عليها آية المقسم به: (ص والقرآن ذي الذكر) تناسب بديع ، فقد صدرت بالحرف المنبه على الإعجاز والتحدي وفي ذلك تنوية بالقرآن، ثم وصف بـ (ذى الذكر) وفي هذا الوصف إشارة إلى إعجازه أيضاً وتنبيه على علو قدره، وجاء التعبير بـ (ذى) في هذا الوصف؛ لأنها - كما يقول ابن عاشور- « تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجرى على متصرف مقصود التنوية به »^(١) . وكل ذلك يكشف عن نسق خاص تتأخى فيه العناصر اللغوية المعبر بها في هذه الآية ، وتتفق في الإشادة بعلو شأن القرآن .

ووصف القرآن بـ (ذى الذكر) بعد الحرف (ص) يتتسق مع ظاهرة عامة في القرآن الكريم كله ؛ وذلك أن هذا الحرف إذا جاء وحده أو مع غيره من الحروف المقطعة في صدر السور القرآنية يغلب عليها أو تظهر فيها بوضوح العناية بفكرة (الذكر) بل إن لفظ الذكر بخاصة يرد بعد ذكر الحرف (ص) ، وهذا ظاهر لمن تتبعه^(٢) ، وهذا يعني أن

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٣ .

(٢) ورد الحرف (ص) - مفرداً أو مع غيره - في أوائل ثلاث سور التي افتتحت بالحروف المقطعة في القرآن ؛ وهي:

١ - في أول سورة الأعراف : (المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكري للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكرون) (الآيات ١-٣) .

٢ - في أول سورة مريم : (كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا) (الآيات ١، ٢) .

٣ - في أول سورة ص : (ص والقرآن ذي الذكر) (الآية ١) .

و واضح هنا صلة الحرف (ص) بفكرة الذكر في افتتاح كل من السور الثلاث ، ويتابع هذا شبيع ==

وصف المقسم به يناسب أيضاً الحرف الذي قرن به في أول هذه السورة ، ومن هذا يعلم وجہ اقتران هذه الصورة المقسم بها دون غيرها من صور القسم بالقرآن بالحرف (ص) ووجه وقوعها هذا الموقع ، وإن لم تعلم الحکمة في اطراد اقتران (ص) بفكرة (الذكر) في جميع السور التي جاء فيها هذا الحرف ضمن الحروف المقطعة المفتتحة بها بعض سور القرآن .

ومن هذا يلحظ اتساق صورة القسم مع أدق خصوصيات السياق الذي وردت فيه من السورة ، مع مناسبتها للسياق القرآني العام في جانب من جوانبه، وهذا يكشف عن الدقة العجيبة في اختيار عناصر الصورة المقسم بها .

والأمر في هذا الاختيار يتجاوز السياق الخاص للقسم وارتباطه بالسياق العام للعناصر المصاحبة للقسم (كالحرف ص مثلاً) ، إلى مناسبة سياق السورة ، وقد وضع بما تقدم قبل قليل أن فكرة الذكر والألفاظ الدالة عليه ومشتقاتها تشيع في هذه السورة - شأنها شأن غيرها من السور التي ورد في افتتاحها ص - وإذا كان الأمر كذلك فإن الصلة وثيقة بين وصف المقسم به بـ (ذي الذكر) وبين السياق العام للسورة التي ورد فيها القسم . وكثيراً ما يكون القسم في أوائل السور - كغيره مما تفتح به السور - مضمداً الفكرة الجامدة السائدة في السورة كلها ، فهو عنوان للقضايا التي تعالجها ، أو مدخل يمكن التأتي منه إلى العناصر الهامة المكونة لسياقها . ولعل هذا هو الذي دعا بعض المفسرين إلى القول بأن جواب القسم هو « ماتضمنه سياق السورة بكمالها » (١) .

== هذه الفكرة والألفاظ الدالة عليها في كل منها على النحو التالي :

١ - في سورة الأعراف : انظر الآيات : ٢ ، ٣ ، ٢٦ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٢/٧٤ ، ٣/٦٩ ، ١٣٠ ، ٧٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ١٧١ ، ١٦٥ .

٢ - في سورة مریم : ٢ ، ١٦ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٧ .

٣ - في سورة ص : ١ ، ٢٩ ، ١٧ ، ٢/٨ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٧ .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٢٦ .

ومن قام التناسب أن هذه السورة التي شاع فيها الحديث عن أمور ذات صلة بالذكر وكثير فيها هذا اللفظ ومشتقاته - أنها كما ابتدأت بالقسم بـ (القرآن ذي الذكر) اختتمت بتأكيد الوصف الذي وصف به القرآن المقسم به في أولها والذي بنيت عليه السورة في قوله سبحانه : « إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نباء بعد حين » (١) .

والقسم وعناصره متتسق مع أجزاء السورة وموضوعاتها، ومع القسم الآخر الذي ورد فيها عن إبليس في قوله تعالى : « قال فبعثتك لأغونينهم أجمعين » (٢)، ويمكن الرجوع في هذا إلى ماكتب في تفسيره؛ ففيه بيان لعلاقة قسم إبليس بالقسم الوارد هنا من جهة أنه قسم على إثبات أن الذين كفروا في عزة وشقاق ، وفيه بيان لوجه الربط بين مضمون هذا القسم (قسم إبليس) وعناصره والسياق العام في سورة ص ، ويمكن الإفادة منه في استقصاء كثير من العلاقات الدقيقة بين القسم الذي بين أيدينا وسنته (٣) . ولهذا نكتفي بما سبق ذكره هناك.

وبعد ؛ فقد تبين مماسيق تناوله في هذا الموضوع أن اختيار عناصر القسم لا يراعى فيه جانب دون آخر ، بل تأتي هذه العناصر متتسقة بعضها مع بعض ، ومناسبة للمقسم عليه والمقسم له ، ومساواة للموضع الخاص الذي ورد فيه القسم ، وما قبله وما بعده ، وذات ارتباط عميق ووثيق بالسياق العام للسورة التي ورد فيها القسم ، بل بالسياق القرآني العام والظواهر المتعلقة به ؛ كل هذا تأتي عناصر القسم موافقة لمقتضياته ، على نحو لامثيل له إلا في أسلوب القرآن ونظمه المعجز .

(١) الآية ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) سورة ص ، الآية ٨٢ .

(٣) انظر : تفسير القسم بـ (عزة الله تعالى) الصادر من إبليس : ص . . . من هذا البحث .

الموضع الثالث: القسم بـ(القرآن المجيد):

قوله تعالى : « ق وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءُهُمْ مِنْذُرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَتَّنَا وَكَنَا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعَنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَا جَاءُهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ »^(١).

يرد هذا القسم في صدر سورة ق ، في سياق الحديث عن موقف الكافرين من الرسالة وقضاياها؛ وبخاصة قضية البعث ؛ فيقسم الله تعالى بـ(القرآن المجيد) على إثبات أن النبي ﷺ قد بعث إليهم لينذرهم بعذابه وعلى صحة ما أنذر به من البعث ، وهو المفهوم من قوله سبحانه : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءُهُمْ مِنْذُرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَتَّنَا . . . » الآيات.

ولم أجده - فيما اطلعت عليه من مصادر - مانع مناسبة نزول هذه الآيات ، ولكن في الآيات نفسها ما يوضح المقام الذي سيقت له .

ففيها - كما فسرها الزمخشري - « إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته ، ومن كان على صفتة لم يكن إلا ناصحاً لقومه . . . وإذا علم مخوفاً أظلمهم لزمه أن ينذرهم ويحذرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث . . . ». وعلى هذا فإن الكلام هنا وارد على سبيل الرد والإنكار على هؤلاء الكافرين في موقفهم الذي حكته الآيات ، وهو لذلك يفتقر إلى التأكيد القسمى .

ويمكن أن يكون الرسول ﷺ مخاطباً بهذا القسم أيضاً، لأن المخاطب بالقرآن كلهم، ولأن في سياق هذا القسم ما يدل على أنه خطب به ، فقد ورد بعد انتفاء تقرير الرسالة والبعث على وجه الخصوص والرد على مقولات الكافرين فيها ، ورد خطاب

(١) سورة ق ، الآيات ١ - ٥ .

(٢) الكشاف ٣/٤ ، ٤ .

الله تعالى لنبيه في قوله سبحانه : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . . . »^(١). وما يؤيد ذلك قول الطبرى في تفسير قوله تعالى : « بل عجبوا . . . » الآية : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد عليهما السلام يا محمد مشركوا قومك أن لا يكونوا عالمين بأنك صادق محق، ولكنهم كذبوا تعجباً من أن جاءهم منذر ينذرهم عقاب الله (منهم) يعني بشراً منهم من بني آدم ولم يأتهم ملك برسالة من عند الله »^(٢).

ويأتي هذا التأكيد القسمى للرسول عليهما السلام على سبيل تسلیته عما كان يلقاه من التكذيب والأذى، فيقسم الله تعالى لنبيه بالقرآن تذكيراً له بأعظم النعم التي أنعم بها الله تعالى عليه، وهي هذا القرآن، ووصفه بـ(المجيد) إشعاراً بمكانة المنزل عليه ومجلده، وبشدة الاحتفاء بتكريمه وقوة الاعتناء بتشريفه عليه السلام، في سياق مشتمل على تكذيبه والتعجب مما جاء به. ويلحظ هنا وجه الاتفاق بين أول السورة وأخرها في أداء هذا الغرض، وهو وجہ ارتباط القسم الذي صدرت به السورة بمقصد من مقاصدھا العامة .

وبإضافة إلى ما تقدم فإن مجيء القسم في هذا الموضع يشير إلى الاهتمام بالموضوع المراد إثباته لدى كل من يصح أن يكون مخاطباً، ويؤكّد الحرص على اللفت إلى الأمر الهام الذي تتحدث عنه الآيات .

وين هذا الموضع والموضع الذي تقدم في صدر سورة (ص) قائل في كثير من وجوه التركيب، ولذلك فإن ثمة ارتباطاً بين الموضعين في وجود التفسير البلاغي للقسم، ولكنه لا يبلغ حد التطابق التام لاختلاف العناصر اللغوية في الموضعين بعضها عن بعض .

وقد أشار بعض المفسرين إلى بعض وجوه الارتباط بين هذا الموضع وموضع (ص)

(١) الآية ٣٩ ، وانظر الآيات ٣٩ - ٤٥ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٦ / ٩٣ .

فقد لحظ الزمخشري أن الأسلوب فيهما واحد فقال : « الكلام في ﴿ق والقرآن المجيد﴾ بل عجبوا ﴿نحوه في ﴿ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا﴾ سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد »^(١)، وأشار الرازى إلى بعض وجوه التماثل بينهما في قوله: « هذه السورة وسورة (ص) تشتراكان في افتتاح أولهما بالمحروف... والقسم بالقرآن، قوله (بل)، والتعجب، ويشتركان في شيء آخر، وهو أن أول السورتين وأخرهما متناسبان... »^(٢).

ومن وجوه الصلة بين القسمين أنهما واقعان في سياق إثبات الرسالة؛ ولكن في سورة ص « صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد بقوله: « أجعل الآلة إلهاً واحداً... »^(٣) قوله تعالى ﴿...أن امشوا واصبروا على آلهتكم...﴾^(٤)، وفي هذه السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر، بقوله تعالى: (إِذَا مَتَّنَا وَكَنَا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ...) ...»^(٥) وهذا يعني أن للقسم في كل من الموضعين سياقاً خاصاً يحتفى فيه بأصل من أصول الرسالة دون غيره ، وإن كان إثبات الرسالة هو المقصود الأهم والأعم في كلا السياقين .

ولما كان في القسم بالقرآن تنويه بشأنه ؛ تقدمه ذكر الحرف (ق) وهو من المحروف المقطعة التي ذكر في تفسيرها أنها تشير إلى إعجاز القرآن من طريق التحدي بكونه منظوماً من الحروف التي يعرفون ولكنه - مع ذلك - نوع وحدة في البلاغة والبيان . وهذا يفسر بعامة علاقة القسم بالقرآن المجيد بذكر حرف من الحروف المقطعة قبله .

وفي تفسير هذا الحرف (ق) - على وجه الخصوص - أقوال منها: أنه اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، وفسره بعضهم بأنه مفتاح اسمه تعالى: القدير والقاهر

(١) الكشاف ٣/٤ .

(٢) التفسير الكبير ١٤٥/٢٨ .

(٣) سورة ص ، الآية ٥ .

(٤) سورة ص ، الآية ٦ .

(٥) التفسير الكبير ١٤٥/٢٨ .

والقريب والقابض، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: اسم للسورة^(١). ونقل في بعض التفاسير عن ابن عباس أنه اسم للجبل المحيط بالأرض ، وأنه من زمرة خضراء تخضر منه السماء^(٢)، وروى هذا الرأي الأخير ابن كثير وعقب عليه بأنه من خرافات بني إسرائيل التي تناقلتها كتب التفسير دون تدقيق^(٣). وقيل معناه : قضي الأمر أو قضي ما هو كائن، واحتج القائلون بذلك بقول الشاعر:

قلنا لها قفي فقلت: قاف . . . لا تحسبني أنا نسيينا الإيجاف^(٤)

وهو بهذا التفسير جزء من الكلمة: قضي، فحذفت وبقي الحرف (ق) دالاً عليها، ورده ابن كثير لأن الحذف إنما يكون فيما دل عليه دليل^(٥). وقد قيل في تفسير هذا الحرف ما يقرب من أحد عشر قولًا وصفها أبو حيان بأنها «متعارضة لا دليل على صحة شيء منها»^(٦). وليس في هذه التفسيرات ما يوضح وجهاً من العلاقة بين القسم بالقرآن المجيد وهذا الحرف بخاصة كما تقدم في (يس) و(ص).

والمقسم به الذي ورد عقب هذا الحرف هو : (القرآن المجيد)؛ فالقسم هنا بالقرآن كما كان كذلك في الموضعين السابقين ، ولكنه موصوف في هذا الموضع بوصف مغاير للوصفين : (الحكيم - ذي الذكر) اللذين وردا في صدر (يس) و (ص)؛ فقد وصف في هذا الموضع بـ (المجيد). وسيأتي الحديث عن خصوصية هذا الوصف في هذا الموضع وعلاقته بجميع عناصر القسم كما سبق في نظيريه.

(١) تفسير الطبرى ٩٣/٢٦، وتفسير البغوى ٤/٤٠، وزاد المسير ٤/٨ .

(٢) معانى القرآن للفراء ٧٥/٣، ومعانى القرآن وإعرابه للزجاج ٤١/٥، وتفسير الطبرى ٩٣/٢٦، وتفسير البغوى ٤/٤٠، وزاد المسير ٤/٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٢١ .

(٤) معانى القرآن للفراء ٧٥/٣، ومعانى القرآن وإعرابه للزجاج ٤١/٥، وتفسير البغوى ٤/٢٠، وزاد المسير ٤/٨ . والشاهد قوله: قاف، أي : وقف؛ فاستغنى بالجزء عن الكل .

(٥) تفسير ابن كثير ٤/٢٢١ .

(٦) البحر المحيط ١٢٠/٨ .

وقد ذكر المفسرون في معنى (القرآن المجيد) أنه القرآن الكريم ^(١)، وقيل: الشريف الكريم الكثير الخير ^(٢)، وقال الزمخشري: «المجيد: ذو الشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علمًا بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعنده الناس، وهو بسبب من الله المجيد فجاز اتصافه بصفته» ^(٣). وذكر الراغب أن «المجد: السعة في الكرم والجلال... وأصل المجد: من قولهم: مجدت الإبل إذا حصلت في موعى كثير واسع...» ^(٤) ووصف القرآن به «لكرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية» ^(٥).

ولللفظ (المجيد) - كما ذكر الرازي - معنيان: أحدهما: العظيم ، والآخر: كثير الكرم، « وعلى الوجهين القرآن مجید ، أما على قولنا (المجيد) هو العظيم، فلأن القرآن عظيم الفائدة، ولأنه ذكر الله العظيم ، وذكر العظيم عظيم، ولأنه لم يقدر عليه أحد من الخلق، وهو آية العظمة، ويقال : ملك عظيم إذا لم يكن يغلب ، وبدل عليه قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من الشافي والقرآن العظيم » ^(٦)، أي الذي لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك، وقوله تعالى : « بل هو قرآن مجید * في لوح محفوظ » ^(٧) أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد إلا بإطلاعه تعالى، فلا يبدل ولا يغير و « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...» ^(٨) فهو غير مقدر عليه فهو عظيم ، وأما على قولنا (المجيد) هو كثير الكرم؛ فالقرآن كريم: كل من طلب منه مقصوده وجده، وإنه مغن كل من لاذ به ،

(١) تفسير الطبرى ٩٣/٢٦، زاد المسير ٥/٨ ، والقرطبي ٣/١٧ .

(٢) تفسير البغوى ٢٢٠/٤ .

(٣) الكشاف ٣/٤ . وانظر : البحر المحيط ١٢٠/٨ .

(٤) مفردات القرآن ص ٧٠٢ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) سورة الحجر ، الآية ٨٧ .

(٧) سورة البروج ، الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٨) سورة فصلت ، الآية ٤٢ .

وإغناه المحتاج غاية الكرم ، ويدل عليه هو أن المجيد مقرن بالحميد في قوله :
 (إنك حميد مجید) فالحميد هو المشكور والشكر على الإنعام والنعم كريم ؛ فالمجيد
 هو الكريم البالغ في الكرم «^(١) ».

أقسم الله تعالى بالقرآن موصوفاً بهذا الوصف المتضمن لجميع هذه المعاني ،
 ولغيرها مما يدخل في هذا الوصف؛ فكل صفات العظمة والجلال والشرف والعلو
 والكرم متمثلة في هذا القرآن المجيد .

أما المقسم عليه؛ فقد اختلف في تعيينه كما اختلف فيه في الموضع السابق في
 قسم (ص) ؛ لأن النسق الترثيبي في كلا الموضعين - كما تقدم - متماثل ، وللعلماء
 في ذلك قولان :

١ - القول بحذف الجواب :

واختلف أصحاب هذا القول في تقدير الجواب ، فذكر بعضهم أنه : القرآن
 المجيد لتبعثن ، ودل عليه قوله: (إِذَا مَتَّنَا وَكَنَا تَرَابًا...) وذهب إلى هذا الزجاج
 والفراء والأخفش ^(٢) ، وقيل تقديره: إنك جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا بل عجبوا ،
 وقيل: ما ردوا أمرك بحجة بل عجبوا ^(٣) ، أو: القرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر
 الناس ^(٤) . وجمل ابن القيم هذا الموضع مما اتحد فيه المقسم به والمقسم عليه وهو
 القرآن؛ فحذف جوابه لأن في المقسم به ما يدل على المقسم عليه ، أو لأن المقصود هو
 المقسم به نفسه ^(٥) ، وهو يعول في هذا على دلالة المقسم به على المقسم عليه، وقد

(١) التفسير الكبير ٢٨/٤٨ .

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ٣/٧٥، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/٤١، وتفسير البغوي ٤/٢٢٠، وزاد المسير ٨/٥، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص ٢٣ ، وتفسير القرطبي ١٧/٣، والبحر المحيط ٨/١٢٠ .

(٣) البحر المحيط ٨/١٢٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨/١٢٥ .

(٥) انظر : التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٧ .

تقدّم في (ص) ببيانها، أو على أن المراد من القسم تعظيم المقسم به وعلى هذا فالقسم بلا جواب ، وهذا لا يكون .

وهذه الآراء - كما هو واضح - تعتمد على دلالة السياق في تحديد المقسم عليه ولكنها لا تعدو أن تكون احتمالات لا يجوز القطع بشيء منها، فضلاً عن أن الجواب لا يحذف في أسلوب القسم، وإنما يترك - في بعض الموضع - إذ دل عليه السياق دلالة قاطعة.

٢ - القول بذكر الجواب :

وقد اختلف الآخذون بهذا القول في تعين الجواب على أقوال ؛ منها : أن «ما قبل القسم يقوم مقام الجواب، وأن (ق) يعني: وقضى الأمر والقرآن المجيد، و(قضى الأمر) هو الجواب ، ودللت على ذلك (ق). وقيل (ق) اسم للجبل فتقديره : هو (ق) والقرآن المجيد، والجملة تسد مسد جواب القسم »^(١). وعلى هذا الرأي يكون الجواب متقدماً على القسم وهو تركيب - كما سبق في (ص) - مخالف لبناء الأسلوب؛ لأن المؤكد وهو المقسم به يتقدم في التركيب القسمي ليمهد لتوكيده المقسم عليه .

وذكر بعض البصريين^(٢) أن الجواب هو قوله سبحانه: (قد علمنا ماتنقض الأرض منهم ...) وجوزه الزجاج على معنى: لقد علمنا؛ وحذفت اللام لأن ما قبلها عوض منها كما قال: (والشمس وضحاها ...) إلى قوله: (قد أفلح من زكاها) فالمعنى : لقد أفلح^(٣). ورده الطبرى « لأنَّه لا يُعرف في أجوية الأنْيَانِ (قد) وإنما تحيَّب الأنْيَانِ إِذَا أُجِيبَتْ بِأَحَدِ الْحُرُوفِ الْأَرْبَعَةِ : اللام وَإِنْ وَمَا وَلَا ، أوْ يُترَك جوابها فَيَكُونُ ساقِطًا »^(٤) . وذكر ابن كثير أن في قول من عد (قد علمنا)

(١) مشكل إعراب القرآن ٣١٨/٢ . وانظر: تفسير الطبرى ٩٣/٢٦ ، وهو اختياره .

(٢) انظر: معاني القرآن للأخفش ٤٨٣/٢ ، وتفسير الطبرى ٩٣/٢٦ ، وتفسير البغوي ٤/٢٢٠ .

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١/٥ . وانظر : زاد المسير ٥/٨ ، وتفسير القرطبي ٣/١٧ ، والبحر المحيط ٨/١٢٠ . والآيات في سورة الشمس ، ١ - ٩ .

(٤) تفسير الطبرى ٩٣/٢٦ .

هو الجواب نظراً^(١)، وسيأتي بيان رأيه.

وذهب آخرون^(٢) إلى أن الجواب هو قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »^(٣) وروي عن الترمذى^(٤) أنه قوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »^(٥). وهذا بعیدان؛ لأنَّه قد فصل بينهما وبين القسم بفاصل طويل ، بل لأنَّ ثمة ما هو أكثر صلة بالقسم به وأقرب موقعاً .

وقد وصف أبو حيان أكثر هذه الآراء بالضعف^(٦). وأضعف منها وأبعد ماروي عن بعض المفسرين^(٧) من أن الجواب في سورة أخرى، دون تحديد الجواب أو السورة التي وقع فيها ، ولا يستبعد أن يكون الجواب متاخراً عن القسم ، أو أن يكون الجواب هو سياق السورة كلها ، ولكن كونه في سورة أخرى فضلاً عن عدم تحديده ضرب من التكهن العجيب الذي يجب اطراحه في تفسير القرآن المجيد .

وأقرب ما قيل في تعين جواب هذا القسم ماروي عن بعض الكوفيين وأيده بعض المفسرين^(٨)، وهو أن الجواب : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . . .) ، وهو الأولى بالصواب لأنَّه لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إليه ، ولقريه من القسم به وعلاقته

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٢١ .

(٢) روى هذا عن ابن كيسان وعن الأخفش أيضاً؛ انظر: تفسير البغوي ٤/٢٢٠، وزاد المسير ٨/٦ ، وتفسير القرطبي ١٧/٣ ، والبحر المحيط ٨/١٢٠ .

(٣) الآية ١٨ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ١٧/٣ ، والبحر المحيط ٨/١٢٠ .

(٥) الآية ٣٧ .

(٦) البحر المحيط ٨/١٢٠ .

(٧) انظر : زاد المسير ٨/٦ .

(٨) انظر : تفسير البغوي ٤/٢٢٠ ، وتفسير القرطبي ٣/١٧ ، والبحر المحيط ٨/١٢٠ ، وتنوير المقابس من تفسير ابن عباس (ضمن مجمع التفاسير ٦/٥٩) .

الوثيقة به - كما سيأتي -، ولا يدفعه أنه غير مصدر بما يصدر به الجواب من الأدوات التي ذكرها النحويون ، لأن ذلك - كما ذكر ابن كثير - ليس لازماً ؛ فالجواب « هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقرره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً وهذا كثير في أقسام القرآن »^(١).

ويضاف إلى ما سبق أن في قوله تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) من التراكيب المؤكدة ما يتفق تمام الاتفاق مع السمة العامة في تركيب جواب القسم في القرآن الكريم ، وهي كونه مشتملاً - في أكثر الموضع - على عناصر التأكيد .

فمن ذلك ما يفيده التعبير بـ (بل) من معنى (إن) ومن معنى القصر الذي تم الإعراب عنه في الموضع السابق بما يعني عن إعادته .

ومن ذلك أن عناصر التركيب هنا قد تأزرت في تأكيد قوة تعجب هؤلاء الكافرين من كون المنذر منهم ومن كونه ينذرهم بالبعث ، وقوة إنكارهم لذلك ، مع ما عندهم مما يدفع هذا الإنكار والتعجب ؛ فأول ذلك أن في التعبير عن الكافرين بالإضمار قبل الذكر في قوله: (بل عجبوا) « إشارة إلى أنه إذا ذكر شيئاً خارجاً عن سن الاستقامة انصرف إليهم ، والعجب من تغير النفس لأمر خارج عن العادة »^(٢). ثم قال بعده (منهم) : « لأن العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يدخلهم في إنذاره شك بوجه من الوجه ..»^(٣). ويأتي الأسلوب على هذا النحو موافقاً المعنى موافقة تشي فيها الكلمات بأدق المعاني التي اشتمل عليها السياق ، وتصف المشاعر المتوارية في نفوس المتحدث عنهم ، وتكشف منذ اللحظة الأولى أن هذا الإنكار والتعجب ليس إلا حسداً واستكباراً لأن عندهم من الدلائل ما يوجب الإيمان . ويرى ابن عاشور أنه « وصف الرسول عليه السلام ابتداء بصفة (منذر) قبل

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٢٢١ .

(٢) نظم الدرر ١٨/٤٠٣ .

(٣) المصدر نفسه .

وصفه بأنه (منهم) ليدل على أن ما أندرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه وأن كونه منهم إنما قوى الاستبعاد والتعجب «^(١)».

ولما كان هذا هو ما أدى إليه السياق اللغوي حتى الآن سجل عليهم القرآن الكفر باظهارهم في موضع الإضمار في قوله : (فَقَالَ الْكَافِرُونَ) أي الذين جاءهم من ذر منهم فلم يؤمنوا ، « إِذَا نَأَيْهُمْ لَمْ يُخْفِيْهِمْ شَيْءٌ مِّنْ أَمْرِهِ وَلَكِنَّهُمْ سُتُّرُوا تَعْدِيًّا بِرَأْيِ عَقْوَلِهِمُ الدَّالَّةُ عَلَى جَمِيعِ أَمْرِهِ دَلَالَةً ظَاهِرَةً »^(٢).

ومن الأساليب التي تعبّر عن قوّة إنكارهم واستبعادهم وتعجبهم الاستفهام الإنكارى في قولهم : (إِذَا مَنَّا وَكَنَّا تَرَابًا) ففيه « تقرير للتعجب وتأكيد للإنكار »^(٣). ويترك الجواب في الشرط الذي تضمنته جملة الاستفهام ، فلا يرد عنهم قوله : « إِنَّا لَمْ يَعُوْثُنَّ ، كَمَا قَالُوهُ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى مِنَ الْقُرْآنِ ، كَوْلُهُ سَبْحَانَهُ : « إِذَا مَنَّا وَكَنَّا تَرَابًا وَعَظَامًا إِنَّا لَمْ يَعُوْثُنَّ »^(٤) لأنّهم في هذا السياق يبالغون في إنكار البعث واستبعاده فلا يجري على لسانهم ذكره بوصفه جواباً للشرط ، بل يخفون إلى التصريح به في جملة خبرية حاسمة واثقة : ذلك رجع بعيد ، وفي ذلك ما فيه من المسارعة إلى الإنكار ، وكيف يصرحون به والمقدمة التي أثبتوها في الشرط تؤكّد - في معتقدهم - أن من يموت ويصير تراباً لا يبعث ، فالأمر إذن - في عرفهم - أقل من أن يصرح به ولو كان بعده إنكار صريح .

ويأتي في هذا السياق حكاية قولهم : (هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) بعد قوله : (بل عجباً) ، لتأكيد تعجبهم ، وهو يتفق مع الاستفهام الإنكارى التعجبي الذي ورد بعده .

وما سبق يظهر أن السياق يتوجه إلى إظهار قوّة إنكار هؤلاء الكافرين وشدة تعجبهم إزاء الرسالة والبعث ، وهذا يشير إلى وجه العلاقة بين الأمر المقسم عليه

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٩ .

(٢) نظم الدرر ١٨/٤٠٤ . وانظر : تفسير البيضاوي ص ٦٨٦ ، وتفسير أبي السعود ٨/١٢٥ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨/١٢٥ .

(٤) سورة الصافات ، الآية ١٦ ، وانظر : الإسراء ، ٤٩ ، المؤمنون ٨٢ ، والواقعة ٤٧ .

والقسم به ، من جهة أن في (القرآن المجيد) بما فيه من معاني المجد التي تقدم بسطها ما يشهد بجلال مصدره ، ومن ثم بصدق المنذر الذي أنزل عليه هذا القرآن ، كما يشهد بصدق الأخبار التي تضمنها ، ومنها البعث ، ولكن الذين كفروا في عجب غريب عجيب ، وليس لهم أن يعجبوا وبين أيديهم القرآن المجيد الذي فيه من صفات العظمة والشرف والرفة والجلال ما يبطل العجب ويدفع الإنكار .

والتناسب بين القسم به والمقسم عليه يتحقق هنا من أن في القسم بالقرآن ووصفه بـ(المجيد) ، واقترانه بالحرف المقطعة ، تمجيداً للقرآن وتعظيمًا لشأنه ، وفي المقسم عليه تعريضاً بسلوك الكافرين وذمًا لوقفهم الذي لم يهدهم إليه مقتضى مجد القرآن وعظمته ، بقدر ما هداهم إليه حسدهم واستكبارهم .

وعلى هذا فإن العلاقة بين طرفي القسم في هذا الموضع تمثل العلاقة بينهما في قسم صدر سورة (ص) ، ولهذا ربط بينهما بـ (بل) كما ربط بينهما هناك ، وقد تقدمت الإشارة إلى دلالات هذا الربط ، وما فيه من التعبير عن المفارقة بين مضموني المقسم به والمقسم عليه . وتقدم كذلك الحديث عن أثر هذه العلاقة في إثبات المقسم عليه والدلالة على مضمونه دون حاجة إلى تقدير أمور خارجة عن الأسلوب . ومضى كذلك بيان مناسبة وصف المقسم به لحال المخاطب . وكل ذلك يمكن تأمله في ضوء ما تقدم .

وللوصف الذي وصف به المقسم به وجه ارتباط بما جاء بعده في قوله سبحانه حكاية عن الكافرين في إنكار البعث : (. . . ذلك رجع بعيد)؛ ففي وصف المقسم به بـ(المجيد) المشير إلى بعد منزلته في الشرف ما يتصل باستبعادهم لما تضمنه هذا القرآن من الإخبار بالبعث ، وكأن السياق يومئذ إلى أن الذي يستأهل أن يوصف بالبعيد - في شرفه وعلو منزلته - هو هذا القرآن الذي لا يتورعون عن وصف ما أخبر به بأنه بعيد .

ويلفتهم ذلك - أيضاً - إلى أن أمر البعث بسبب من إنزال هذا القرآن المجيد ؛ فإن الذي أنزل هذا القرآن من ذلك المكان بعيد مكاناً ومنزلة ووصل السماء بالأرض ، قادر على أن يصل الأرض بالسماء فيبعث الخلائق ويجمع أشتاتهم ويعايسهم ،

ويسلك القسم هنا مسلكهم في تصور القضية، فإنهم إنما وصفوا البعث بأنه بعيد لأنهم يستبعدون أن يجمع الله التراب ، ويجمعهم ليوم الحساب .

ويتصل القسم - وفق هذا المعنى - بالسياق الخاص الذي ورد فيه ، فتأتي الإشارة بعد تقرير قدرة الله تعالى على جمعهم بعلمه - سبحانه - الذي لا تغيب عنه غائبة ، والعطف عليه بإثبات الكتاب الحفيظ وتکذیب الكافرين ، في قوله تعالى: « قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندها كتاب حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج »^(١) ، تأتي الإشارة بعد ذلك إلى السماء والأرض في قوله سبحانه : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيبي * ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الخصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج »^(٢) .

وكان هذه الإشارة البليغة تلتفت إلى ما في السياق من ذكر القرآن المجيد النازل من السماء ، وما يرتبط به من صفة العلو والرفة ، وإلى البعث الذي تصعد فيه الخلائق من الأرض إلى السماء ، وما يرتبط به من وصف موقف أولئك الكفار بالدنو والحرارة^(٣) ، ويأتي ذلك في صورة الاستدلال على صحة البعث وإمكانه بما يرى من علاقة السماء بالأرض وإحيائها بالماء وإخراج النبات . وفي ذلك - أيضاً - إيماء إلى أن شأن (القرآن المجيد) في إحياء النفوس ، شأن الماء النازل لإحياء الأرض ؛ فمنها

(١) الآية ٤ ، ٥ .

(٢) الآيات ٦ - ١١ .

(٣) من هذا الباب ما جاء في تصوير من اتبع هواه وأعرض عن الحق في قوله تعالى: (ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا أخلد إلى الأرض واتبع هواه . . .) سورة الأعراف ، الآية ١٧٦ .

ما ينتفع به ومنها ما لا يكون كذلك . ولهذه العلاقة نظائر في السياق القرآني (١) .
ومن هذه المعاني الدقيقة نستطيع أن ننفذ إلى وجه وثيق من وجوه ارتباط القسم
وعناصره بصدر هذه السورة ، ووجه اتصال آيات هذا الصدر بكثير من المعاني ذات
العلاقة بالقسم في نظم معجز وبديع .

وللقسم - بالإضافة إلى ارتباطه بالجزء الخاص من السورة التي ورد فيها -
ارتباط بالسياق العام للسورة كلها ، وذلك أن السمة الغالبة على هذا السياق هي
الإنذار والوعيد الشديد ، وهذا واضح من ابتدائها بقول سبحانه : « ق والقرآن
المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . . . » (٢) ، ومضيها في بيان دلائل
صدق هذا الإنذار ، وعاقبة الأمم المكذبة وتحقيق وعيد الله فيها (٣) ، والحديث عن
اطلاعه سبحانه على وساوس النفس وحركاتها وسكناتها وفي ذلك ما فيه من التهديد
والوعيد (٤) ، ثم فيما ورد من وصف ذلك الوعيد (٥) ، ويتبع ذلك إشارة سريعة إلى
مصير المؤمنين (٦)؛ لأن السياق سياق إنذار ووعيد للمكذبين ، ولهذا لا يليث أن يعود
مرة أخرى إلى الحديث عن مصير الأمم السابقة التي كانت أشد منهم بطشاً والفت
إلى الاعتبار بآلهم، والإشارة إلى آيات الله في خلق السموات والأرض ، وتسلية

(١) انظر على سبيل المثال ما تقدم في قوله تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تتطقطون) ص ٤٨٧ من هذا البحث . ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى : (والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع * إنه لقول فصل * وما هو بالهزل . . .) الآيات ١١-١٧ من سورة الطارق . ففي المقسم به في هذه الآيات استدلال على صحة البعث بما يكون بين السماء والأرض من علاقة الإحياء ، وفي المقسم عليه إثبات لأمر ذي صلة بالقرآن ، وعلى هذا فقد ربط القسم بين ذلك الاستدلال وهذا الإثبات على نحو ياثل العلاقة التي ذكرناها .

(٢) انظر الآيات : ١ - ٥ .

(٣) انظر الآيات : ٦ - ١٥ .

(٤) انظر الآيات : ١٦-١٨ .

(٥) انظر الآيات : ١٩-٣٠ .

(٦) انظر الآيات : ٣١-٣٥ .

الرسول ﷺ (١)، ثم يعود السياق - أيضاً - إلى وصف يوم البعث ، وتحتتم السورة بقوله سبحانه : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾ (٢)؛ فيربط هذا الختام بين القرآن والوعيد .

وعلى هذا فإن للقسم بالقرآن في صدر سورة ذات سياق يتسم بالإذار والوعيد علاقة بهذا السياق من جهة أن القرآن هو المتضمن لهذا الوعيد، وهو الذي يذكر به من يخاف هذا الوعيد كما أشارت إليه خاتمة السورة .

أما وصف القرآن بـ (المجيد) في هذه السورة وارتباطه بسياقها؛ فهو صلة بظاهرة عامة في السياق القرآني ؛ وذلك لأن للفظ (المجيد) علاقة بسياسي النذارة والبشرارة معاً؛ لأن من معانيه: العظيم وهي صفة اقتدار على تحقيق المنذر به، والكريم وهي صفة رحمة يستبشر بها عباد الله الصالحون .

وإذا تتبعنا الموضع التي ورد فيها هذا اللفظ فإننا نجد أنه قد ورد - في غير سورة ق - ثلاثة مرات في سوري هود والبروج ؛ ونجد أن السياقات التي ورد فيها لا تخرج عن أن تكون سياق بشارة وندارة معاً؛ فقد ورد هذا اللفظ في سورة هود في سياق بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رَسْلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالَ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ...﴾ (٣) ومضى السياق بعد ذلك في حكاية القصة إلى قوله تعالى حكاية عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتِي أَللَّهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شِيخًا إِنْ هَذَا لَشِيءٌ عَجِيبٌ * قَالَوْا أَتَعْجَبُينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَرِبْرَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٤) ثم وصل بالحديث عن هذه البشرى والرحمة الحديث عن الوجه الآخر لصفة (المجيد) وهو العظمة التي يقتدر بها على إنزال العذاب بالمنذرين به ، فحكت الآيات بعد ذلك قصة

(١) انظر الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

(٢) الآية ٤٥ . وانظر الآيات : ٤١ - ٤٥ .

(٣) سورة هود ، الآية ٦٩ .

(٤) سورة هود ، الآية ٧٢ ، ٧٣ .

تعذيب قوم لوط^(١) . وواضح في هذا السياق من سورة هود اجتماع البشرة والنذارة في قصة واحدة وارتباط وصف المجيد بها .

ثم تجد لفظ (المجيد) يرد في سورة البروج مرتين في سياق واحد يجمع بين البشرة والنذارة أيضاً ، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ * إِنْ بَطَشَ رِيشَ رِبَّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لَمَا يَرِيدُ * هَلْ أَتَكَ حَدِيثَ الْجَنُودِ * فَرَعُونَ وَثَمُودُ * بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ^(٢) . ويلاحظ في هذه السورة أنها ذات سياق شديد الوعيد والتهديد لأصحاب الأخدود .

وإذا كان هذا هو سياق هذا اللفظ في القرآن كله : فإن لمجيئه في هذا الموضع من سورة ق وصفاً للقرآن المقسم به علاقة بما جاء فيها من النذارة والبشرة ، وبخاصة ما فيها من الوعيد الشديد للمكذبين .

ويكفي أن نلحظ في الآيات التي ورد في سياقها لفظ (المجيد) في كل من سورتي هود والبروج ، بعض الأساليب والتراكيب والمواقف التي ورد نظيرها في سورة ق المفتتحة بالقسم بـ (القرآن المجيد) ؛ فتأمل على سبيل المثال ماحكى عن امرأة إبراهيم عليه السلام من مثل قولها: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتِي أَلَّدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^(٣)؛ فنظيره في صدر سورة ق: ﴿بَلْ عَجِيبُوا أَنْ جَاءُهُمْ مِنْذُرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَتَّنَا وَكَنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(٤)، فشدة تماثيل في الأساليب والتراكيب والدلائل ، وثمة

(١) انظر الآيات : ٧٤ - ٨٣ من سورة هود .

(٢) سورة البروج ، الآيات ١١ - ٢٢ .

(٣) سورة هود ، الآية ٧٢ .

(٤) سورة ق ، الآية ٢ .

تعجب من أمر ذي صلة بقدرة الله تعالى وعظمته التي يعبر عنها لفظ (المجيد) في أحد معنييه ، وتأمل مجيء (المجيد) في كلا السياقين .

ودع ذا ، وتأمل مجيء وصف (المجيد) في سياق سورة البروج الذي تقدم ، وما صاحبه من تراكيب وأساليب ومواقف لها نظائر في صدر سورة ق ، فانظر على سبيل المثال إلى قوله سبحانه: « ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالَ مَا يَرِيدُ »^(١) كيف قرن فيه بين هذا الوصف وبين اقتداره سبحانه على فعل ما يريد ، وارتباط ذلك بموقف تعجب امرأة إبراهيم عليه السلام وتعجب الكافرين من البعث ، لأن لكل منهما ارتباطاً بالمجيد الفعال لما يريد . ثم انظر كيف حكي موقف الكافرين في قوله : « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ »^(٢) على نحو يشبه في تركيبه ما حكى عنهم في صدر سورة ق : (بل عجبوا . . .) الآية .

وهذا يشهد بأن ثمة وسائل خفية وروابط قوية بين الألفاظ والتركيب والأساليب في السياقات المتماثلة في القرآن الكريم^(٣) .

وثمة جانب آخر تظهر فيه صلة القسم بسياق السورة ، وذلك أن المقسم عليه في قوله تعالى: « بَلِ عَجِيبُوا أَنْ جَاءُهُمْ مُنذَرٌ مِّنْهُمْ . . . »^(٤) الآية ، يتضمن طلب إنزال الملائكة لأنه - كما يقول الطبرى - يعني أنهم لم يكذبوا الرسول ﷺ لعدم يقينهم بصدقه ولكنهم كذبوه تعجباً من كونه منهم أي من كونه بشراً لا ملكاً^(٥)؛ فلما كان القسم متضمناً لهذا المعنى ورد بعده ذكر قوم لوط في سياق الإخبار عن تكذيب الأمم

(١) سورة البروج ، الآية ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة البروج ، الآية ١٩ .

(٣) ويكشف جميع ما تقدم في هذا الجانب عن وجود علاقات دقيقة وعميقة بين مواطن متعددة من القرآن العظيم ، حتى إنه ليتمكن القول بأن هذه الوسائل والروابط والسيارات والعلاقات من الخفاء والغنى والتنوع والتدخل والتماسك بحيث لا يمكن تبيان بعض ملامحها إلا بعد طول التأمل والتبصر والتدبر ، ومع ذلك لا يظفر إلا بقليل من كثير يظل يتراءى للناظر يجذبه إلى المزيد من البحث والتبني . وهذا دليل من دلائل إعجاز هذا القرآن المجيد .

(٤) انظر : تفسير الطبرى ٩٣/٢٦ .

السابقة في قوله تعالى : « كذبت قبليهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمد * ععاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعد »^(١) ، لعلاقة قوم لوط بطلب إزال الملائكة وما ترتب على هذا الطلب من إزال الهلاك بهم .

ولاريب أن لذكر كل من هذه الأقوام مناسبة مع الموقف القسمى ، ولكننا لم نلحظ هنا إلا وجه مناسبة ذكر قوم لوط لهذا الموقف .

ومن وجوه التناسب بين القسم وسورته مناسبته خاتمتها؛ وذلك أنه قد ذكر في أولها التنويه بشأن القرآن وأقسم به على مقولات الكافرين ثم جاءت الإشارة إلى تلك المقولات مع الأمر بالتذكير بالقرآن، في قوله عز وجل : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يغاف وعيد »^(٢) ، ويلحظ بين القسم الذي صدرت به السورة وبين خاتمتها تقابل بديع ؛ ففي القسم بيان تكذيب المشركين يقابلها في الخاتمة تسلية الرسول ﷺ في قوله سبحانه : « فاصبر على ما يقولون... »^(٣) ، وفي القسم في صدر السورة إنكار للبعث في صورة الاستبعاد في قوله : (ذلك رجع بعيد)، يقابلها في الخاتمة إثبات للبعث وجعل مناديه من مكان قريب في قوله سبحانه : « واستمع يوم يناد المنداد من مكان قريب »^(٤) .

فانظر إلى هذا التناست البديع بين القسم الذي ورد في أول السورة وبين آخرها .

ومما سبق نستطيع أن نقف على خصوصية مجيء عناصر القسم في هذا الموضع على النحو الذي جاءت عليه، وتناسبها مع كثير من مقتضيات السياق والمقام في الموقع الخاص، وفي السياق العام للسورة ، بل في سياقات قرآنية عامة ، ولايزال في الموضوع حديث لمتأمل .

(١) سورة ق ، الآيات ١٢ - ١٤ .

(٢) الآية ٤٥ .

(٣) الآيات ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) الآية ٤١ .

الفصل الثاني

القسم بلفظ الكتاب

الصورة الثانية من صور القسم بأسماء القرآن الكريم هي موضوع هذا الفصل ، وهي الصورة التي جاءت بلفظ (الكتاب)^(١) ، وقد وردت في موضعين من القرآن الكريم ، كما أشرت إلى ذلك في صدر هذا الباب .

وقد وقع هذان الموضعان في صدر سورتين متتاليتين في القرآن الكريم ، هما : سورة الزخرف ، وسورة الدخان ، واشتركا في كثير من خصائص التركيب ، وخصوصيات الموقع .

ومن أظهر وجوه هذا الاشتراك اتحاد صورة المقسم به في الموضعين ؛ في لفظه وهو (الكتاب) ، ووصفه وهو (المبين) ، وفي وقوع القسم فيهما بعد الحرفين المقطعين (حـ) .

وعلى هذا فصورة القسم هنا - في مجملها - مغایرة للصورة المقسم بها فيما جاء بلفظ (القرآن) ؛ لأن الأوصاف التي وصف بها المقسم به هناك قد تنوّعت ، وكذلك الحروف المقطعة التي وقع بعدها القسم فإنها في الموضع السالف متّوّعة .

ولعل اتحاد صورة المقسم به في اللفظ والوصف في موضعين الزخرف والدخان ، وتكرر هذه الصورة فيهما بعد (حـ) - يشير إلى علاقة خاصة بين هذين الحرفين وتلك الصورة المخصوصة التي أقسم بها .

ومن ناحية أخرى فإن اتحاد الصورة المقسم بها في الموضعين قد يشير إلى أنّ ثمة تماثلاً بين الأمرين المقسم عليهما فيهما ، وبين السياقين الخاصين اللذين وردا فيهما ، وبين السياقين العامين في السورتين ، ويفيد هذا الاحتمال أن السورتين متّجاورتان في النص القرآني ، والتجاور قرينة التماثل .

ومن أظهر وجوه التماثل بين الموضعين كون القسم فيهما من باب القسم بالشيء

(١) في المراد بالكتاب أقوال ذكرها المفسرون ، ولكن أظهرها - كما سيأتي بيانه - أن المراد به القرآن الكريم ، وهو ما يكاد ينعقد إجماع المفسرين عليه ، ولهذا عد البحث القسم بالكتاب المبين قسماً باسم من أسماء القرآن الكريم .

على شأن من شؤونه ؛ فبين طرفي القسم في كل منها من التماشل ما سماه المفسرون (اتحاد المقسم به والمقسم عليه) ووصفوا - لأجله - المقسم به والمقسم عليه بأنهما من واد واحد ، وذكروا أن ذلك من البلاغة عند العرب .

وبالإضافة إلى ماسبق فإن الموضعين يلتقيان في كونهما - كغيرهما من مواضع القسم بأسماء القرآن الكريم - صادرين من الله تعالى ، ويلتقيان كذلك في توجيه الخطاب فيهما إلى الرسول ﷺ وسائر المخاطبين بهذا القرآن وبخاصة المنكرين للرسالة .

وستتناول - فيما يأتي - موضعى القسم بهذه الصورة في سوري الزخرف والدخان في موقعيهما من السورتين ، لنقف على وجه اختصاصهما بها ، معتدلين في ذلك بالعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في كل ، وعلاقة القسم بالمقام ، والسياق الخاص والعام ، ووجه اتساق القسم مع جميع ذلك في كل من الموضعين ، والخصوصيات والدلائل البلاغية لسائر التراكيب والأساليب فيهما .

الموضع الأول : القسم بـ (الكتاب المبين) في صدر سورة الزخرف :

قوله تعالى : **﴿ ح * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في ألم الكتاب لدينا لعلني حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفعاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾** (١).

يقسم الله تعالى في هذا الموضع بالكتاب المبين ، واختلف المفسرون في المراد به؛ فذهب بعضهم إلى أنه القرآن الكريم (٢) ، وذهب آخرون إلى أن المراد به جميع الكتب المنزلة على الأنبياء ؛ على أن الكتاب اسم جنس ، وقيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد بالكتاب الكتابة والخط ، أقسم بها لكثرة منافعها (٣) . والأظهر والأشهر عند أكثر المفسرين أن الكتاب المبين المقسم به هنا هو القرآن الكريم .

أما وصف المقسم به بالمبين ؛ فعلى معنى : المبين الذي أبان بركته وهداه ورشده ، والذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة من أمور الدين وأحكامه وفرائضه (٤) ، أو على معنى: **البَيِّن الواضح** في معانيه وألفاظه لأنه نزل بلغتهم وأساليبهم (٥) ، واللُّفْظ يحتمل المعنيين ، والكتاب الموصوف بهذا الوصف بين في نفسه ، مبين لغيره ، من جميع الوجوه .

(١) سورة الزخرف ، الآيات ٥-١ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٩/٢٥ ، وال Kashaf ٤٧٧/٣ ، و زاد المسير ٣٠٢/٧ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٥ ، روح المعانى ٦٣/٢٥ .

(٣) انظر : التفسير الكبير ١٩٢/٢٧ ، ٢٢٧/٢٧ ، ٢٣٧/٢٧ ، و تفسير القرطبي ٦١/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، روح المعانى ٦٣/٢٥ .

(٤) تفسير الطبرى ٣٠/٢٤ ، و تفسير البغوى ١٣٣/٤ ، وال Kashaf ٤٧٧/٣ ، والتفسير الكبير ١٩٣/٢٧ ، و تفسير القرطبي ٦١/١٦ ، و تفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، و روح المعانى ٣٦/٢٥ .

(٥) انظر : الكشاف ٤٤٧/٣ ، والتفسير الكبير ١٩٢/٢٧ ، و تفسير ابن كثير ١٢٢/٤ ، و تفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، و روح المعانى ٦٣/٢٥ .

والجواب المؤكد بهذا القسم هو - كما ذكر بعض المفسرين^(١) - قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون » لكن لا على أن مرجع التأكيد جعله كذلك - كما قيل - بل ما هو غايته التي يعرب عنها قوله تعالى : « لعلكم تعقلون » فإنها المحتاجة إلى التحقيق والتأكيد لكونها منبئه عن الاعتناء بأمرهم وإقام النعمة عليهم وإزاحة أعدائهم ، أي جعلنا ذلك الكتاب قرآنًا عربياً لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتفقروا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طرق البشر ، وتعرفوا حق النعمة في ذلك وتنقطع أعداركم بالكلية »^(٢) .

والمعنى - كما يقول الطبرى - « إنا أنزلناه قرآنًا عربياً بلسان العرب إذ كنتم أنتم أيها المنذرون من رهط محمد ﷺ عربياً ... لتعقلوا معانيه وما فيه من مواضعه ولم ينزله بلسان العجم فيجعله أعجمياً ، فتقولوا نحن عرب وهذا القرآن أعجمي لأنفقة معانيه »^(٣) . فالضمير في قوله جعلناه يرجع إلى القرآن الكريم وإن لم يجر له ذكر لدلالة المعنى عليه^(٤) . واضح من نص الطبرى أن معنى قوله : (جعلناه) : أنزلناه ، وهو ما ذكره غيره من المفسرين ، وقيل معناه : سميناه ووصفناه ، وقيل : بينما ، وقيل : صيرناه^(٥) .

وقوله سبحانه : (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) إما أن يكون معطوفاً على الجملة المقسم عليها فيكون من جواب القسم ، وإما أن يكون مستأنفاً مقرراً لما قبله من علو شأن القرآن الذي أفاده الإقسام به^(٦) ، والأقرب إلى السياق أن يكون

(١) انظر : الكشاف ٤٧٧/٣ ، والتفسير الكبير ١٩٢/٢٧ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وتفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وروح المعاني ٢٥/٦٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وروح المعاني ٢٥/٦٤ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٥/٢٩ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٦١/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ .

(٥) انظر : تفسير البغوي ١٣٣/٤ ، تفسير القرطبي ٦١/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ .

(٦) انظر : تفسير أبي السعود ٣٩/٨ ، وفتح القدير ٤/٥٤٧ .

من جواب القسم لأنه معطوف على قوله : (إنا جعلناه . . .) ، ولأن الجملتين قد ربطتا - بالإضافة إلى أداة العطف - بالضمير في (إنه) أي : القرآن ، وباتفاقهما في إثبات أمور ذات صلة بالقرآن الكريم .

ومعنى قوله : (أم الكتاب) : أصل الكتاب الذي منه نسخ هذا الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ؛ فالقرآن مثبت عند الله تعالى في هذا اللوح، كما قال تعالى : « بل هو قرآن مجید * في لوح محفوظ »^(١) ، وقال تعالى : « إنه لقرآن كريم * في كتاب مكnoon »^(٢) ، وقيل : أم الكتاب هي الآيات المحكمات لقوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب . . . »^(٣) « ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم »^(٤) ، والأول - وهو كونه اللوح المحفوظ - أقرب إلى السياق لأن الحديث هنا عن إثبات أمور تتعلق بالقرآن الكريم كلها لا بسورة منه كما دل عليه الربط بين هذه الجملة وسابقتها، ويعيده أيضاً قوله (الدين) وما تبعه من التعظيم والترشيف في قوله : (لعلى حكيم) .

ومعنى قوله : (لعلى) : لذو علو ورفعة ، وقيل رفيع الشأن على سائر الكتب لكونه معجزاً بينها ولكونه عالياً عن وجوه الفساد ، وقيل : ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل^(٥) . وقوله : (حكيم) معناه : محكم ممنوع من الباطل واللبس والزيف ، أو قد أحكمت آياته ثم فصلت فهو ذو حكمة ، أو : محكم بكونه في أعلى درجات

(١) سورة البروج ، الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة الواقعة ، الآية ٧٧ ، ٧٨ . وانظر هذا الرأي في : تفسير الطبرى ٣٠/٢٤ ، وتفسير البغوى ٤٧٧/٣ ، والكساف ١٣٣/٤ ، وزاد المسير ٣٠٢/٧ ، وتفسير القرطبي ٦٢/١٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٧ .

(٤) البحر المحيط ٥/٨ .

(٥) تفسير الطبرى ٣٠/٢٤ ، والكساف ٤٧٧/٣ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، وتفسير ابن كثير ١٢٢/٤ .

الفصاحة والبلاغة وصحة المعاني ، وقيل : حاكم للمؤمنين بالجنة وللكافرين بالنار ، وحاكم على سائر الكتب^(١) . والمقصود من وصفه بذلك الإخبار « عن منزلته وشرفه ، أي : أوكذبتم بالقرآن يا أهل مكة ؟ فإنه عندنا لعلي شريف محكم من الباطل »^(٢) « أي : منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفتاه وهو مثبت في ألم الكتاب هكذا »^(٣) .

ويأتي هذا القسم - كما هو واضح - في سياق إثبات أمور ذات صلة بالقرآن الكريم ، فيقسم الله تعالى بالكتاب المبين - وهو القرآن - مؤكداً أنه جعل قرآناً عربياً ليعقله المخاطبون به من مشركي العرب ، وأنه ذو مكانة رفيعة وقدر عظيم عند منزله الذي أرسل به نبيه محمدأ عليه السلام . ويعقب ذلك الإشارة إلى تكذيبهم بهذا الكتاب المبين والرسالة التي تضمنها ، وربط ذلك بالإخبار عن كثرة الرسل في الأمم السابقة و موقف أقوامهم منهم ، المائل لوقف هؤلاء المشركين في قوله سبحانه :

﴿أَفَنْضَرَبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ ﴾^(٤) ، وعليه فإن القسم وارد في سياق إثبات الرساله كما هو الشأن في الأقسام السابقة .

وفي السياق ما يشير إلى أن الخطاب هنا موجه إلى المتزل عليهم هذا الكتاب المبين ، وبخاصة المسرفين الذين كذبوا به ؛ فقد تكررت ضمائر الخطاب الموجهة إليهم في قوله: (العلم - تعلقون - أفنضرب عنكم - أن كنتم) ثم قال مسمياً المخاطبين :

(مسرفين) .

ويدل على اختصاص المسرفين بهذا الخطاب أيضاً مضمون القسم ، لأن معناه : إذا كان القرآن عربياً ، وأنتم عرب ؟ فقد عقلتموه ، وعقلتم ما فيه من دلائل صدقه

(١) انظر : تفسير البغوي ١٣٣/٤ ، وزاد المسير ٣٠٢/٧ ، وال Kashaf ٤٧٨/٣ ، والبحر المحيط ٥/٨ ، و تفسير ابن كثير ١٢٢/٤ .

(٢) تفسير البغوي ١٣٣/٤ .

(٣) الكشاف ٤٧٨/٣ .

(٤) الآيات : ٧ - ٥ .

وإعجازه وجلال مصدره لأنه كتاب مبين عن ذلك بلسانكم ، فإن لم تفعلوا علم أن ذلك لم يكن لأمر في هذا (الكتاب المبين) وإنما لما في نفوسكم من الإسراف في الكبriاء والحسد ، ولهذا قال بعد القسم : (أفنضرب عنكم الذكر صفعاً أن كنتم قوماً مسروفيـن) . وبهذا يلتقي هذا النسق اللغوي في دلالته مع دلالـة القسم في الموضعين السابـقين الواقعـين في صدر سوريـي (ص) و (ق) .

ومن هذا يتضح أن القسم بالكتاب بوصف كونه مبيـناً إنما يراد به - في هذا السياق - الإشارة إلى أن في هذا الكتاب نفسه ما يـبين عن براـهـين صـدقـه وـعن كـونـه عـلـيـاً حـكـيـماً ؛ فـفي ذـكـرـ المـقـسـمـ عـلـيـهـ - بـعـدـ أـنـ يـكـونـ المـقـسـمـ بـهـ قـدـ أـلـمـحـ إـلـيـهـ وـمـهـدـ لـهـ وـدـلـ عـلـيـهـ - ما يـجـعـلـهـ أـكـثـرـ تـمـكـنـاًـ وـتـأـكـيدـاًـ .

وعلى هذا فإن بين المقسم به والمقسم عليه من التـنـاسـبـ ما يـبـلغـ درـجـةـ الـاتـحـادـ ، وـقدـ لـخـ المـفـسـرـونـ ذـلـكـ وـنـسـبـواـ إـلـيـهـ حـسـنـ الـقـسـمـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـضـعـ وـبـرـاعـةـ تـرـكـيـبـهـ ؛ـ يـقـولـ الزـمـخـشـريـ :ـ «ـ أـقـسـمـ بـالـكـتـابـ الـمـبـيـنـ وـهـوـ الـقـرـآنـ ،ـ وـجـعـلـ قـوـلـهـ :ـ (ـ إـنـاـ جـعـلـنـاـ قـرـآنـاـ عـرـبـيـاـ .ـ .ـ .ـ)ـ جـوـابـاـ لـلـقـسـمـ ،ـ وـهـوـ مـنـ الـأـيـانـ الـحـسـنـةـ الـبـدـيـعـةـ لـتـنـاسـبـ الـقـسـمـ وـالـقـسـمـ عـلـيـهـ وـكـونـهـمـاـ مـنـ وـادـ وـاحـدـ ،ـ وـنـظـيرـهـ قـوـلـ أـبـيـ تـامـ :ـ

* وـثـنـيـاـكـ إـنـهاـ إـغـرـيـضـ * «ـ (ـ ١ـ)ـ .ـ

ووجه المناسبـةـ بـيـنـ عـنـصـرـيـ الـقـسـمـ هـنـاـ -ـ كـمـاـ شـرـحـهـ اـبـنـ المـنـيـرـ -ـ «ـ أـنـهـ أـقـسـمـ بـالـقـرـآنـ ،ـ وـإـنـاـ يـقـسـمـ بـعـظـيمـ ،ـ ثـمـ جـعـلـ المـقـسـمـ عـلـيـهـ تعـظـيمـ الـقـرـآنـ بـأـنـهـ قـرـآنـ عـرـبـيـ مـرـجـوـ

ـ بـهـ أـنـ يـعـقـلـ بـهـ الـعـالـمـونـ :ـ أـيـ يـتـعـقـلـواـ آـيـاتـ اللـهـ تـعـالـىـ ،ـ فـكـانـ جـوابـ الـقـسـمـ مـصـحـحاـ

ـ لـلـقـسـمـ ،ـ وـكـذـلـكـ أـقـسـمـ أـبـوـ تـامـ بـالـثـنـيـاـ وـإـنـاـ يـقـسـمـ الشـعـرـاءـ بـهـثـلـ هـذـاـ لـلـإـشـعـارـ بـأـنـهـ فـيـ

ـ غـاـيـةـ الـحـسـنـ ،ـ ثـمـ جـعـلـ المـقـسـمـ عـلـيـهـ كـونـهـاـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـحـسـنـ لـأـنـهـ هـيـ إـغـرـيـضـ ،ـ وـهـوـ

(١) الكشاف ٤٧٧/٣ . وانظر : تفسير البيضاوي ص ٦٤٦ ، والبحر المحيط ٥/٨ . وقام بيت أبي تام قوله : * ولا توم وبرق وميض * والإغرض - كما في شرح التبريزـي - « الطـلـعـ ،ـ وـقـيلـ إـنـ الـبـرـ يـسـمىـ إـغـرـيـضـاـ » . انظر ديوان أبي تام بشرح التبريزـي ٢٨٧/٢ .

من أحسن تشبيهات الثناء ، فجعل المقسم عليه مصححاً للقسم «^(١)».

ومن هذا تظهر قيمة الاتحاد بين المقسم به والمقسم عليه في تأكيد المضمن الذي يقصد القسم إلى إثباته ؛ لأنه يتبع لكل من عنصري القسم أن يؤكّد الآخر ، فالمقسم به يهدّ للمقسم عليه ، والمقسم عليه يؤكّد ما أفاده المقسم به فيكون - كما ذكر ابن المنير - مصححاً له ، وكلاهما يؤكّدان المضمن الواحد الذي اتفقا في الدلالة عليه .

ويرى الرازى أن « القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف »^(٢) ، ولهذا ذكر في تفسيره لهذا الموضوع أن « هذا النوع من الكلام يدل على تعظيم القرآن ؛ فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه : أستشفع بك إليك ، وأقسم بحقك عليك »^(٣) .

ومعنى هذا أن في مجيء القسم على هذا النحو من التركيب الذي يتحد فيه المقسم به والمقسم عليه - ما يشير إلى عظمّة الأمر المقسم عليه ، « ففي الإقسام بالقرآن على علو قدره عنده تعالى براعة بديعة وإيذان بأنه من علو الشأن بحيث لا يحتاج في بيان إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره ، بل هو بذاته كاف في الشهادة على ذلك من حيث الإقسام به كما أنه كاف فيها من حيث إعجازه ، ورمز إلى أنه لا يخطر بالبال عند ذكره شيء آخر أولى منه بالإقسام به »^(٤) .

وعليه فإن القسم بالكتاب المبين في هذا الموضوع على كون القرآن عربياً مبيناً وكونه عظيماً عند الله تعالى وعليها حكيمًا ، يشير إلى أنه ليس ثمة ما يؤكّد هذا المقسم عليه أولى من القسم بالكتاب نفسه موصوفاً بالوصف المناسب للمقسم عليه وهو كونه مبيناً ، وفي ذلك تعظيم للقرآن من الوجهة التي عني القسم بإثباتها وهي الإبارة وما يتبعها من صفات العلو والحكمة .

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (بهامش الكشاف ٤٧٧/٣ ، ٤٧٨) .

(٢) التفسير الكبير ٢٣٩/٢٧ .

(٣) المصدر السابق ٢٣٧/٢٧ .

(٤) تفسير أبي السعود ٣٩/٨ . وانظر : التحرير والتنوير ١٥٩/٢٥ .

ويرى الألوسي أن البراعة في نحو هذا التركيب - زيادة على مافيه من رعاية المناسبة - : تتمثل في « التنبية على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه)١(». ومن هذا يظهر أن التركيب يفيد أيضاً في تعظيم شأن المقسم به ، وعلى هذا فإن في هذا الاتجاه دلالة على تعظيم طرفي القسم (المقسم به والمقسم عليه) من جهة أن المقسم به هو أعلى مايقسم به على المقسم عليه ، وأن المقسم عليه أعظم وأفخم من أن يؤكد بغيره .

وفي اتحاد المقسم به والمقسم عليه دلالة أخرى ، وهي أن هذا التركيب يتبع للأمر المقسم عليه المراد توكيده ، وهو غالباً ما يكون موضع شك وإنكار ، أن يقع موقع مالاشك فيه ولا إنكار ، وهو المقسم به الذي استقر في العرف اللغوي لهذا الأسلوب أنه أمر واضح مؤكد لغيره؛ ففي وقوع ماجرت العادة على القسم عليه موقع المقسم به - سواء أكان المقسم عليه هو نفسه أم غيره - إيماء إلى أنه من الوثاقة والظهور بحيث يصلح أن يؤكد به غيره ، وهذا أبلغ في تأكيده من مجرد القسم عليه .

ولعل هذه الخصوصيات والدلالات الدقيقة في هذا النوع من القسم هي التي جعلت « من البلاغة عندهم كون القسم والمقسم عليه من واد واحد »)٢(.

ولما كان القسم واقعاً في سياق إثبات الرسالة ، ومخاطباً المسرفين المذنبين استكباراً وحسداً؛ اشتمل جوابه - بالإضافة إلى دلالات التوكيد التي أفادتها علاقة المقسم به بالقسم عليه - على كثير من عناصر التوكيد وخصائص التراكيب التي اقتضتها أحوال السياق والخطاب .

فأكيد قوله سبحانه : (إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون) بـ (إن) ، وبمجيء ضمير المظاهرة المتصل بها في قوله : (إنا) ، ويتكرار هذا الضمير في قوله : (جعلنا) ، وعبر فيه عن القرآن بضمير الغائب إشعاراً ببعد منزلته ومكانته ، ثم صرخ

(١) روح المباني ٢٥/٦٤ .

(٢) نظر الدرر ١٧/٣٧٨ .

به بعد الإضمار في قوله: (قرأنا) فكان ذكره على هذا النحو كالتفسير بعد الإبهام . ثم قال : (العلمون تعلقون) فأفاد أنه جعل معقولاً متمكناً في العقول ؛ لأن التعبير بـ (العل) مؤكّد لمضمون الجملة إذا كانت - كما فسرها الرازى^(١) - بمعنى : لكي ؛ ففي الكلام على هذا النحو ما يشبه الضمان الشرطي ، إذ كان المعنى : إذا كنا قد جعلناه عربياً فقد عقلتموه ، وقد تقدم ذكر طرف من هذه الدلالة . ولا يفهم من (العل) إذا كانت فيها دلالة الترجي أن المرجو بها غير متحقق الواقع ؛ لأن « القادر إذا عبر بأداة الترجي حق مایقع ترجيه ليكون بين كلامه وكلام العاجز فرق »^(٢) .

ولأن هؤلاء المشركين كانوا ينكرون تعظيم القرآن « عناداً ، وإن كانوا يقررون بذلك في بعض الأوقات ؛ قال مؤكداً لذلك ، وتنبيهاً على أنه أهل لأن يقسم به ويزداد في تعظيمه لأنه لا كلام يشبهه ، بل ولا يدانيه بوجه : (وإنه) أي القرآن ، وقدم الظرفين على الخبر المقترب باللام اهتماماً بهما ليفيد بادىء بدءه أن علوه وحكمته ثابتة في الأم وأن الأم في غاية الغرابة عنده (في أم الكتاب) ... وزاد في شرفه بالتعبير بلدى التي هي لخاص الخاص وأغرب المستغرب ، ونون العظمة فقال مرتبأ للظرف على الجار ليفيد أن أم الكتاب من أغرب الغريب الذي عنده (لدينا) على ما هو عليه هناك (على) .

ولما كان العلي قد يتفق علوه ولا تصحبه في علوه حكمة ، فلا يثبت له علوه ، فيتهرور ببنيانه وينقص سفوله ودنوه ؛ قال : (حكيم) أي بلين في كل من هاتين الصفتين راسخ فيما رسوخاً لا يدانيه فيه كتاب فلا يعارض في علي لفظه ، ولا يباري في حكيم معناه ...^(٣) .

وعلى هذا فقد اجتمع في المقسم عليه من عناصر التوكيد وخصوصيات التراكيب ما يفيد تأكيد مضمون القسم ، وهو شرف الكتاب المبين وعظمته وعلو شأنه ، وكل

(١) انظر : التفسير الكبير ٢٣٩/٢٧ .

(٢) نظم الدرر ٣٧٩/١٧ .

(٣) نظم الدرر ٣٨٠/١٧ .

ذلك دال على كونه حقاً من عند الله تعالى ، وهو ما يهدي إلى الإيمان بالرسول ﷺ ورسالته ، وهذه هي مقاصد هذا القسم ، وهو في ذلك كغيره من مواضع هذا النوع من القسم (أعني القسم بالقرآن الكريم) .

ويرد القسم في هذا الموضع عقب الحروف المقطعة ، كالأقسام السابقة ؛ فقد جاء قبله من هذه الحروف حرفان هما : (حم) ، وللمفسرين في تفسيرهما - في هذه السورة وفي السور الأخرى التي افتتحت بهما - أقوال منها : أنها حروف مقطعة من أسماء الله تعالى ؛ فهي إما أن تكون من (الرحمن ، والرحيم) ؛ الحاء والميم منها ، وإما أن تكون الحاء والميم من (الرحمن) على أن (الر) و (حم) و (ن) هي حروف الرحمن ، أو أنها مفتاح كل اسم له - سبحانه - مبدوء بالحاء أو الميم . وقال بعضهم : معناها : حُمَّ الأمر ، أي : قضي الأمر . وقيل : هي اسم ، فهي عند بعضهم اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، وقيل : هو اسمه الأعظم ، واستدل القائلون بالاسمية بقول الشاعر :

يدركني (حم) والرمح شاجر . . . فهلا تلا (حم) قبل التقدم
وقول الكميـت :

وجدنا لكم في آل (حم) آية . . . تأولها مناتقي ومعرب وفيها أقوال غير ذلك ، والذي ذهب إليه جمهور المفسرين هو أنها من حروف التهجي كسائر ما افتتحت به السور القرآنية (١) .

وثمة ما يربط بين القسم بالكتاب المبين وذكر هذين الحرفين اللذين افتتحت بهما السورة ؛ لأن هذا الكتاب المبين - كما يرى سيد قطب - « في صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين . وهذا الحرفان كبقية الأحرف في لسان البشر - آية من آيات

(١) انظر هذه الآراء وغيرها في : مجاز القرآن ١٩٣ / ٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٦٥ / ٤ ، وتفسير الطبرى ٢٦ / ٢٤ ، ٢٧ ، وتفسير البغوى ٩٠ / ٤ ، وزاد المسير ٢٠٦ ، ٢٠٥ / ٧ ، وتفسير ابن كثير ٩٠ / ٤ ، وفتح القدير ٤٨٠ / ٤ .

الخالق ، الذي صنع البشر هذا الصنع ، وجعل لهم هذه الأصوات . فهناك أكثر من معنى وأكثر من دلالة في ذكر هذه الأحرف عند الحديث عن القرآن »^(١) . ومعنى هذا أن السياق يربط في هذا الموضع بين المعجزة في خلق النطق والأصوات التي هي آلة البيان ، وبين المعجزة البينية وهي الكتاب المبين المنظوم من جنس هذه الحروف .

ويؤيد وجه الصلة الذي ذكره سيد قطب هنا أن له نظائر في النظم القرآني ؛ فقد جاء الربط بين تعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان في قوله سبحانه: «الرحمن» علم القرآن « خلق الإنسان « علمه البيان »^(٢) .

ويرى ابن عاشور أن المقصود بوصف الكتاب بأنه عربي - في جواب هذا القسم في قوله سبحانه: (قرآنًا عربيًّا) - « غرضان : أحدهما التنويه بالقرآن ومدحه بأنه منسوج على منوال أوضح لغة ، وثانيهما التورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلامًا بلغة غير لغته ، وهذا تأكيد لما تضمنه الحرفان المقطعان المفتتحة بهما السورة من معنى التحدي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بثله »^(٣) . وهذا رابط آخر بين القسم وما سبقه من الحروف المقطعة .

ويمكن النظر إلى وجہ آخر من التناوب بين القسم هنا ومجيء الحروف المقطعة قبله - من جهة ما في هذه الحروف من خفاء معانيها لأنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وما يقابلها في القسم من الوضوح المستفاد من ذكر الكتاب المبين فهذا ضرب من التناوب يقوم على الربط بين أمرتين متقابلتين ، وظهور من تأمله خصوصية وصف الكتاب في هذا القسم بالبين . ومن هذا يتضح أن للقسم علاقة بالموقع الخاص الذي ورد فيه .

والقسم بالكتاب المبين على ذاته في صدر هذه السورة ذو صلة بما جاء من تكرار الإشارة إلى الكتاب في السورة التي سبقتها وهي سورة الشورى ، وبخاصة في قوله

(١) في ظلال القرآن ٣١٧٦/٥ .

(٢) سورة الرحمن ، الآيات ١ - ٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١٦١/٢٥ .

سبحانه : « وَكُذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا إِيمَانٌ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مِنْ نَشَاءِ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
أَلَا إِلَى اللَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورُ »^(١) .

ووجه ذلك - كما يقول البقاعي - أنه « لَمَّا قَدِمَ آخِرُ تِلْكَ أَنَّهُ جَعَلَ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ
نُورًا يَهْدِي بِهِ مِنْ يَشَاءُ ، وَكَانَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي السُّورَةِ الْمَاضِيَّةِ مَا لَهُ مِنْ الْجَلَالَةِ بِأَنَّهُ
تَنْزِيلٌ لَهُ^(٢) ، وَخَتَمَ بِأَنَّهُ لَا أَمْرٌ يَخْرُجُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ يَرْدِهُمْ عَنْ غَيْبِهِمْ وَكَانُوا
يَمْكُرُونَ أَنْ يَرْجِعُوا ، فَاقْتَضَى الْحَالُ غَايَةَ التَّأكِيدِ ، وَكَانَ إِقْسَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ
إِعْلَامًا بِجَلَالَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَتَنبِيَّهًا عَلَى النَّظَرِ فِيمَا أَوْدَعَهَا مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي
أَهْلَهَا لِإِقْسَامِ بَهَا - افْتَنَحَ هَذِهِ بِتَعْظِيمِ هَذَا الْوَحْيِ بِإِقْسَامِ بَهِ حَثًّا عَلَى تَدْبِرِ مَا فِيهِ
مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي أَوْجَبَتْ أَنْ يَكُونَ قَسْمًا ، ثُمَّ تَعْظِيمَ أَثْرِهِ »^(٣) .

ويقول ابن الزبير - في شرح جانب آخر من هذه الصلة : « لَمَّا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ
بِأَمْتَحَانِ خَلْفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي شَكِّهِمْ فِي كِتَابِهِمْ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا
الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ »^(٤) وَوَصَّى نَبِيُّهُ^(٥) بِالْتَّبْرِيِّ مِنْ سِيَّءِ
حَالِهِمْ وَالْتَّنْزِهِ عَنْ سُوءِ مَحَالِهِمْ فَقَالَ : « ... وَلَا تَتَبَعَ أَهْوَاءِهِمْ وَقُلْ آمِنْتُ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ... »^(٦) ، الْآيَةُ ، وَتَكَرَّرَ الشَّنَاءُ عَلَى الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ كَقَوْلِهِ :
« وَكُذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ... »^(٧) ، وَقَوْلُهُ : « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ... »^(٨) وَقَوْلُهُ : « وَكُذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا

(١) سورة الشورى ، الآية ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال : سورة الشورى ، الآيات ٣، ٧، ١٣، ١٥، ١٧، ٥١، ٥٢ .

(٣) نظم الدرر ٣٧٧/١٧ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ١٤ .

(٥) سورة الشورى ، الآية ١٥ .

(٦) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(٧) سورة الشورى ، الآية ١٧ .

ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان...^(١) إلى آخر السورة - أعقب ذلك بالقسم به ، وعند الثناء عليه فقال : « حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون *...* ».^(٢)

ولعل ما يشير إلى دقة الصلة بين هذا القسم وأخر السورة التي سبقته ذلك التناغم البديع بين وصف القرآن الكريم في المقسم عليه بال العلي الحكيم في قوله سبحانه : (وإنه في ألم الكتاب لدينا علي حكيم) ، وبين مجيء هذين الوصفين - متوالين أيضاً - في صفة الله تعالى ، في سياق الحديث عن كيفية اتصال وحيه سبحانه بالبشر في قوله تعالى في آخر سورة الشورى : « وما كان ليشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ».^(٣)

وكما اتصل القسم بأخر السورة التي سبقته ، وبالسورة كلها من جهة مافيها من الإشارة إلى الكتاب وإنزاله ووجه النعمة في ذلك ، وما يتصل به من الأمور ؛ اتصل بما جاء بعده - في صدر سورة الزخرف - من الجهة نفسها ؛ وذلك أن صدر هذه السورة قد بسط الكلام في إثبات أهم القضايا التي تضمنها هذا الكتاب ، فكان في إثبات الرسالة والبعث والوحدانية^(٤) ، ثم عقب على ذلك بقوله سبحانه : « ألم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ».^(٥) وهي إشارة إلى أنهم لم يؤمنوا بما جاء في هذا الكتاب حتى كأنهم قد أتوا كتاباً من قبله فهم لا يدعونه إلى مافي هذا الكتاب المبين .

و واضح مما سبق أن القسم متمكن في الموقع الذي وقع فيه تمكنأ يؤيده الارتباط

(١) سورة الشورى ، الآية ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) انظر : نظم الدرر ٣٨١/١٧ ، ٣٨٢ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٥١ .

(٤) انظر : الآيات ٦ - ٢٠ من سورة الزخرف .

(٥) سورة الزخرف ، الآية ٢١ .

الوثيق بين القسم وماسبقه من جهة ، وبين القسم ومالحقه من جهة أخرى ، وأن القسم بوقوعه هذا الموقع يربط بين سياقين متماثلين لكل منهما وجه اتصال بضمونه ودلالته وعناصره .

والقسم - فوق ذلك كله - ذو علاقة بالسياق العام للسورة التي وقع في صدرها ، وأول مايلتفت إليه من ذلك أن السورة قد عنيت كثيراً بالتنويه بالقرآن الكريم وحكاية مقولات المشركين ومطاعنهم والرد عليها ^(١) ، وهو أظهر فيما جاء بلفظ الكتاب خاصة ، وهو اللفظ المقسم به هنا ، وقد كثر مجيء هذا اللفظ ومشتقاته في السورة ^(٢) .

وما يشير إلى هذه المناسبة إشارة واضحة أن الوصف الذي وصف به المقسم به في صدر السورة يشيع في السورة شيوعاً يلحظ معه التلاؤم البديع بين القسم وسياقه العام ؛ فالمشرك يوصف في هذه السورة بأنه كفور (مبين) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادَهُ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾^(٣) ، ويوصف مانسب إلى الله تعالى من الإناث بأنه ﴿... يَنْشَا فِي الْخَلِيلِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرٌ مُّبِينٌ﴾^(٤) ، ووصف بهذا الوصف الرسول ﷺ في قوله سبحانه : ﴿بَلْ مَتَعْتَ هَؤُلَاءِ وَآبَاءِهِمْ حَتَّى جَاءُهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾^(٥) ، ووصف به ضلال الكافرين في قوله : ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ﴾^(٦) ، وجاء هذا الوصف فيما حكي عن فرعون - وهو يستهزئ بموسى عليه السلام - في

(١) انظر على سبيل المثال : الآيات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٤-٣٠ ، ٦٢-٥٧ ، ٧٨-٨٣ .

(٢) ورد ذلك في الآيات : ٢ ، ٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٨٠ . وهو أكثر من لفظ القرآن ومشتقاته ، الذي لم يرد إلا في آيتين هما : ٣١ ، ٣ .

(٣) الآية ١٥ .

(٤) الآية ١٨ .

(٥) الآية ٢٩ .

(٦) الآية ٤٠ .

قوله سبحانه : «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيَّنُ»^(١) ، ووصف الشيطان بأنه عدو مبين في قوله جل وعز : «وَلَا يَصُدُنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مَّبِينٌ»^(٢) ، وأخبر عن عيسى عليه السلام - بأنه قد جاء بالبيانات وبأنه إنما جاء مبيناً ، في قوله سبحانه : «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جَئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يَبْيَنُ لَكُمْ . . .»^(٣) .

وشيوع هذا الوصف في السورة ، وهو الوصف الذي وصف به المقسم به ، يدل على أن لفكرة الإبانة شأنًاً عظيمًاً وأهمية خاصة في هذه السورة ، وفي ضوء هذا يمكن تفسير خصوصية اختيار وصف المقسم به بهذا الوصف ، كما يمكن أن يشير شيوع لفظ الكتاب في السورة إلى خصوصية تسمية المقسم به بهذا الاسم في هذا الموضع ، وكل ذلك يوضح وجه بناء الصورة المقسم بها في صدر هذه السورة : (الكتاب المبين) .

وبعد ؛ فقد وقفنا في الصفحات السابقة على كثير من دلالات التراكيب وخصوصيات العناصر اللغوية في بناء هذا القسم ، وعلاقتها بعضها ببعض ، وقيمة هذه العلاقة في تأكيد المضمون الذي يقصد القسم إلى إثباته وتحقيقه ، ووجه اختصاص القسم بالموقع الذي ورد فيه ، وصلته الدقيقة بسياقه الخاص ، والسياق العام في السورة التي ورد فيها . ولا يزال في كل جانب من هذه الجوانب من الدلالات والخصوصيات في هذا الموضع مالو فرغت لتأمله دراسة مستقلة لوسعته ، ولكن حسبنا - في هذا البحث - أن ندل بما ذكر على مالم يذكر .

(١) الآية ٥٢ .

(٢) الآية ٦٢ .

(٣) الآية ٦٣ .

الموضع الثاني : القسم بـ (الكتاب المبين) في صدر سورة الدخان :

قوله تعالى : « حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربكم إنه هو السميع العليم * رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين »^(١).

يقسم الله تعالى في هذا الموضع بـ (الكتاب المبين) ، وهي الصورة التي ورد القسم بها في الموضع السابق في سورة الزخرف ؛ وعليه فقد اتحدت صورة المقسم به في الموضعين . وقد تقدم أن الكتاب المبين هو القرآن الكريم . وثمة تشابه واضح بين هذا الموضع وسابقه ، فبالإضافة إلى اتحاد المقسم به ، تمايز الموضعان في مجيء القسم فيهما بعد الحرفين المقطعين : (حم) ، وقد تقدم تفسيره ، وتمايزاً - أيضاً - في كون المقسم عليه فيما ذا صلة بالقرآن الكريم ، أي أن المقسم به والمقسم عليه - كما قال الزمخشري في الموضع السابق - من واد واحد .

وقد اختلف في تعين الذي وقع عليه القسم ؛ فقال بعض المفسرين هو قوله سبحانه : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) والضمير في (أنزلناه) للكتاب المبين^(٢).

والليلة المباركة هي ليلة القدر في قول الأكثرين^(٣) . « وقد أنكر بعض النحوين أن هذه الجملة جواباً للقسم ؛ لأنها صفة المقسم به ، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسم »^(٤) ، ولهذا ذكروا أن الجواب هو قوله : (إنا كنا منذرين)^(٥) ، وإليه

(١) سورة الدخان ، الآيات ١ - ١٠ .

(٢) انظر : تفسير الطبرى ٦٤/٢٥ ، وال Kashaf ٤٩٩/٣ ، و Zad Al-Musir ٣٣٦/٧ ، و Tafsir Al-Bayan ٦٥٥ ، وفتح القدير ٤/٥٧٠ .

(٣) انظر : تفسير الطبرى ٦٤/٢٥ ، و Tafsir Al-Bayyini ١٤٨/٤ ، و Zad Al-Musir ٣٣٦/٧ ، و Tafsir Ibn Kathir ١٣٧/٤ .

(٤) انظر : Tafsir Al-Qurtubi ٢٥/١٦ ، وفتح القدير ٤/٥٧٠ .

(٥) انظر : المصادر السابقين .

ذهب ابن عطيه فلا يحسن - عنده - وقوع القسم على (إنا أنزلناه . . .)؛ لأنه من القسم بالشيء على نفسه، وإنما هو اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب^(١). على أن بعض المفسرين قد عدّ : (إنا كنا منذرين) جواباً ثانياً للقسم بغير عاطف^(٢). وقيل : هو جملة مستأنفة مقررة للإنزال ومعللة له على معنى : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار^(٣).

وأرى أنه من جواب القسم ، ولا حاجة مع الاستئناف إلى عاطف لأنه رابط بين هذه الجملة وسابقتها على المعنى الذي ذكر ، أما كونه - وحده - جواباً وما قبله اعتراض فلا يؤيده مضيّ السياق بعده في الحديث عن تلك الليلة المباركة في قوله سبحانه : (فيها يفرق . . .)، فذلك يدل على أن قوله: (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ليس اعتراضاً لأن معتمد الكلام عليه فيما يلحق ، ويضاف إلى ذلك جواز وقوع القسم بالشيء على نفسه ، بل هو - كما ذكر المفسرون في الموضع السابق - من الأساليب البدعة لتناسب طرفي القسم .

وجملة (فيها يفرق كل أمر حكيم) إما أن تكون صفة أخرى لتلك الليلة بعد وصفها بـ (المباركة) ، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها^(٤). قوله : (أمراً من عندنا) في موقع نصب على الحال ، أو على معنى : يفرق كل أمر فرقاً وأمراً، أي : نأمر أمراً بتبيان ذلك وتفصيله^(٥)، فهو قول متصل بالجملة السابقة .

(١) انظر : البحر المحيط ٣٢/٨ ، وتفسير أبي السعود ٥٨/٨ ، وفتح القدير ٤/٥٧٠ ، وروح المعاني ١١٢/٢٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٥٨/٨ ، وفتح القدير ٤/٥٧٠ .

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ص ٦٥٥ ، وتفسير أبي السعود ٥٨/٨ ، وفتح القدير ٤/٥٧٠ ، والتحرير والتتير ٢٧٩/٢٥ .

(٤) فتح القدير ٤/٥٧٠ .

(٥) انظر : معاني القرآن للفراء ٣٩/٣ ، وتفسير الطبرى ٦٥/٢٥ ، وتفسير البغوى ٤/١٤٩ ، وزاد المسير ٣٣٨/٧ .

ويرى الزمخشري أن قول الله تعالى : (إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم) « جملتان مستأنفتان ملفوظتان فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى : (إنا أزلناه في ليلة مباركة) كأنه قيل : أزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً لأن إزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم » (١).

ويفهم من نصه أن في الجمل الأربع من قوله : (إنا أزلناه) إلى قوله : (إنا كنا مرسلين) - كما يقول ابن عاشور - « محسن اللف والنشر ؛ ففي قوله : (إنا أزلناه في ليلة مباركة) لف بين معنيين ؛ أولهما : تعين إزال القرآن ، وثانيهما : اختصاص تنزيله في ليلة مباركة ، ثم علل المعنى الأول بجملة (إنا كنا منذرين) ، وعلل الثاني بجملة (فيها يفرق كل أمر حكيم) » (٢).

أما قوله سبحانه : (إنا كنا مرسلين) فقيل : هو بدل من قوله : (إنا كنا منذرين) ، وقيل : جواب ثالث للقسم ، وقيل : مستأنف (٣).

وليس ثمة مايدعو إلى وصف بعض الجمل المتقدمة بأنها جواب أول أو ثانٍ أو ثالث ؛ لأنها جمل اتصل بعضها ببعض ، فتلك الروابط التي ذكرها المفسرون - على اختلاف أنواعها : من نعت ، وبدل ، واستئناف ، ولغ ونشر ، وغير ذلك - تصل بين تلك الجمل على نحو يجعلها كالجملة الواحدة ، وهذا الارتباط يشير إلى أن هذا الجزء من الكلام (من قوله : إنا أزلناه ، إلى قوله : إنا كنا مرسلين) هو المقسم عليه في هذا القسم ، ويعيده أنه الجزء الأكثر صلة بالمقسم به .

وقد اشتغلت جمل المقسم عليه على غير واحد من أساليب التوكيد والتعظيم التي تزيده قوة وتحقيقاً ، ففي الجملة الأولى وهي قوله : (إنا أزلناه في ليلة مباركة) التأكيد بإإن ، وضمير العظمة في اسمها وخبرها ، واسمية الجملة ، وفيها التعبير عن

(١) الكشاف ٥٠٠/٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٩/٢٥ .

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ص ٦٥٦ ، وتفسير أبي السعود ٥٩/٨ ، وفتح القدير ٤/٥٧٠ .

القرآن بالضمير في قوله : (أَنْزَلَنَا) وهذا أسلوب من أساليب التعظيم ، وفي الجملة تنكير كلمة (ليلة) لتعظيمها ، ووصفها بالبركة - كما يقول ابن عاشور - للتنويه بها والتشويق إلى معرفتها^(١)، وفي ذلك زيادة تفخيم لشأن القرآن الكريم الذي نزل فيها .

والجملة الثانية : (إِنَّا كُنَّا مُنْذَرِينَ) تقع موقع الإستئناف لأنها - كما تقدم - معللة للإنزال ، والإستئناف من الواقع التي يؤكد فيها الكلام ، ولهذا اشتغلت الجملة على التأكيد بإن ، وعلى ضمير العظمة في اسمها ، وجاء فيها التأكيد بفعل الكون الدال على ثبوت الأمر ورسوخه ، ودخل هذا الفعل على ضمير العظمة أيضاً ، ثم تكرر التعظيم في قوله بلفظ الجمع : (منذرين) .

وفي قوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم) تنويه بشأن تلك الليلة التي أنزل فيها الكتاب المبين ، وفيه تفخيم لهذا الكتاب من جهة أنه من الأمور الحكيمية التي تكون في تلك الليلة . وزاد من هذا التفخيم تنكير لفظ الأمر في قوله (أمراً من عندنا) ، والتعبير بالعندية المشعر بعلو شأنه ؛ فهو - كما يقول أبو السعود - «بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية»^(٢) . أما قوله : (إِنَّا كُنَّا مُرْسَلِينَ) ؛ ففيه من المؤكدات إن ، وضمير العظمة ، وفعل الكون ، وضمير العظمة المتصل به (كنا) ، والتعبير بصيغة الجمع في قوله (مرسلين) ، واسمية الجملة .

وكل هذه المؤكدات التي اشتغلت عليها جمل المقسم عليه تزداد دلالتها التحقيقية بوقوعها جواباً للقسم ؛ وذلك أن من شأن القسم بالكتاب المبين أن يؤكد المقسم عليه جملة ، ومن ثم يقع هذا التأكيد على جميع خصوصيات التراكيب في الجمل المكونة لهذا الجواب .

وينشأ عن هذا سؤال هو : ما الغرض من ورود الكلام على هذا النحو المؤكد غاية التأكيد ، وما دلالته في هذا الموقع ؟

(١) التحرير والتنوير ٢٧٧/٢٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥٩/٨ .

والإجابة تقتضي الوقوف على المقسم له في هذا الموضع؛ فالواضح من السياق أن الخطاب يوجه إلى النبي ﷺ، وإلى المخاطبين بهذا القرآن: مؤمنين وكافرين، وأن للكافرين مزيد اختصاص بهذا الخطاب؛ فأما دلالة السياق على كون الخطاب في هذا الموضع موجهاً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام^(١) ففي قوله سبحانه - عقب القسم - : (رحمة من ربك...) الآية ، وأما دلالته على عموم الخطاب للناس كافة فمأخذة من قوله سبحانه - عقب الآية السابقة - : (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين) ، وأما دلالة السياق على أن للكافرين زيادة اختصاص به فواضحة في قوله تعالى - بعد الآيات السابقة دون فصل - : (بل هم في شك يلعبون) ، فهذا يدل على أن السياق معنى - فيما مضى منه - بهذه الفئة الشاكة اللاحية .

والغرض من التأكيد القسمي وما صاحبه من المؤكدات يختلف باختلاف المخاطب؛ فهو للرسول ﷺ تثبيت وتسليمة وتأييد ، ويلحظ هنا ما صاحب القسم في هذا الخطاب من خصائص التعبير المماثلة للدلالة التي تعبر عنها تلك المؤكدات؛ فقد جاء فيه لفظ الرحمة والرب في قوله : (رحمة من ربك) وهذا لفظان مناسبان لمعنى التسلية والتلطيف ، وجاء فيه إظهار الرب في موضع الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقول : رحمة منا ؛ فأظهره - كما يقول الزمخشري - « إيداناً بأن الريوبينة تقتضي الرحمة على المربوين »^(٢) ، وأضيف في هذا الخطاب لفظ الرب إلى ضمير الرسول ﷺ ، وقد مضى بيان اختصاص هذا النوع من الإضافة - لما فيه من التشريف والتفخيم - بمواضع التسلية والتأييد في تفسير القسم باسم الرب تعالى مضافاً إلى ضمير الرسول ﷺ . واضح هنا أن اللغة المعبّر بها تناسب في كثير من خصوصياتها الغرض من هذا الخطاب .

(١) من المعلوم أن الرسول ﷺ مخاطب بجميع القرآن ، ولكن المقصود هنا تحديد عناصر الخطاب على النحو الذي يهدى إليه السياق في هذا الموضع خاصة .

(٢) الكشاف ١/٣٥٠ ، وانظر : تفسير البيضاوي ص ٦٥٦ ، وتفسير أبي السعود ٨/٥٩ .

أما التأكيد للمؤمنين ؛ فلزيادة اليقين ، ويعکن أن تلحظ الإشارة إلى هذا الغرض من السياق نفسه ؛ فإن الآية التي تفيد عموم الخطاب للناس : مؤمنهم وكافرهم قد ختمت بقوله : (إن كنتم موقنين) فهذا يفيد - بالإضافة إلى التعرض بموقف الكافرين - التأكيد على أن هذا الكلام مؤكّد ومثبت لضمونه لمن كان موقناً .

ثم جاءت الإشارة إلى الغرض من هذه المؤكّدات بالنسبة للمكذبين في قوله : (بل هم في شك يلعبون) ، فإن من احتواهم الشك احتواه الظرف للمظروف ، وهم - مع ذلك - يلعبون ، مفتقرّون إلى جميع تلك المؤكّدات .

وهكذا نجد أن السياق يومئـ إلى أغراض المؤكـدات التي تضمنها ، وهذا ضرب من بناء الكلام عجيب ، تشير فيه خصائص التركيب إلى دلالاتها وأغراضها .

ولainحصر الغرض من هذه المؤكـدات في موافقة مقتضيات الخطاب ؛ لأن لهذه العناصر المؤكـدة - أيضاً - قيمة في تحقيق مضمون السياق وهو التنويه بالقرآن العظيم والاحتفـاء به ، وإثبات كونه حـقاً من عند الله تعالى ، وذلك محقق للرسالة التي ورد القسم في سياق إثباتـها ؛ فقسم الله تعالى بالكتاب المـبين ، وما تبعـه في المـقسم عليه من المؤـكـدات يقع في سياق التنويـه بالقرآن وعـظمـة إـنـزالـه ، وعـظمـة النـزارـة وعـظمـة الرـسـالـة ، وكل ذلك يعني أن المـقصـودـ من القـسم - في مجلـمه - إـثـباتـ الرـسـالـة من طـريقـ إـثـباتـ عـظمـةـ الـكتـابـ المـبـينـ الـذـيـ يـهـدـيـ إـلـىـ مـنـزـلـهـ سـبـحـانـهـ .

ولما كان القـسمـ هناـ فيـ سـيـاقـ إـثـباتـ الرـسـالـةـ كانـ المـقـسـمـ بـهـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ لأنـهـ يـنـاسـبـ هـذـاـ السـيـاقـ مـنـ جـهـةـ أـنـهـ مـعـجـزـةـ الرـسـالـةـ وـدـلـيـلـهـ ، وـقـدـ فـصـلـ هـذـاـ الجـانـبـ فيـ المـوـاضـعـ السـابـقـةـ المـقـسـمـ فـيـهاـ بـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ .

أما مـجيـءـ صـورـةـ المـقـسـمـ بـهـ فـيـ هـذـاـ المـوـضـعـ عـلـىـ نـحـوـ صـورـتـهـ فـيـ المـوـضـعـ السـابـقـ خـاصـةـ ؛ فـمـرـجـعـهـ إـلـىـ أـنـ المـقـسـمـ عـلـيـهـ فـيـ المـوـضـعـيـنـ يـكـادـ يـكـونـ وـاحـداـ ، لأنـ مـعـنـىـ قولـهـ سـبـحـانـهـ فـيـ مـوـضـعـ الزـخـرـفـ : «ـ إـنـاـ جـعـلـنـاـ قـرـآنـاـ عـرـبـيـاـ . . . »^(١)ـ كـمـاـ ذـكـرـ

المفسرون - إنما أنزلناه ، وكذلك فإن القسم في كل من الموضعين معنى بإثبات أمر ذات علاقة بالتنويه بشأن القرآن الكريم .

والتماضي بين هذا الموضع وموضع الزخرف الذي سلف في صورة المقسم به والمقسم عليه يفضي إلى تماضي في بعض وجوه العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في كل من الموضعين ؛ ولكن ثمة - مع ذلك - علاقات خاصة بين طرفي القسم في هذا الموضع .

ومن العلاقات الخاصة بين طرفي هذا الموضع أن في القسم بالكتاب المبين على تعظيم إِنْزَالِهِ وَمَا فِيهِ مِن النذارة والرسالة - تعرضاً بأولئك المكذبين الذين هم في شك يلعبون ، من جهة أن هذا الكتاب المقسم به مبين عن وجه الحق الذي لا يبقى معه شك لمحير ، وأنه - كما يشير إليه المقسم عليه - عظيم محظى بتنزيله في ليلة مباركة يكون من عظم شأنها ما أُعْرِيتَ عَنْهُ الآياتُ مَا يُظْهِرُ فِي أَمْرِهِ هَذَا الْكِتَابُ مَا لَا يَهُونُ مَعَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْلَّهُو وَاللَّعْبِ (١) .

وهذه العلاقة تشير إلى وجہ بناء القسم على هذا النحو الذي يتتسق فيه طرفاہ مع السياق الخاص الذي ورد فيه ، وهو ما يفسر فروق الصياغة في المقسم عليه بين هذا الموضع والذي سبقه ، تلك الفروق ذات العلاقة بالسياق الخاص لكل قسم .

أي أن بناء المقسم عليه في الموضع السابق كان ذا علاقة بسياقه الخاص الذي وصف فيه المخاطبون بأنهم قوم مسرفون ؛ لأن ذلك الكتاب المبين المقسم به - وهو العربي الذي يعقلونه لكونه بلغتهم - يشهد بإسرافهم في الكبراء والحسد ، فكان إثبات كونه عربياً وتجيده في المقسم عليه متصلة بوصفهم بالإسراف في ذلك السياق ، على حين جاء بناء المقسم به مع المقسم عليه في هذا الموضع (الدخان) مناسباً للسياق الذي وصفوا فيه بأنهم (في شك يلعبون) على النحو الذي مضى بيانه .

أما العلاقات التي تماضي مامضي في قسم الزخرف ؛ فمنها اتحاد المقسم به

(١) من الملاحظ هنا أنه أضرب عن المعنى بـ (بل) في قوله : (بل هم في شك يلعبون) ، ويکاد هذا الأسلوب يطرد عقب القسم بالقرآن الكريم في جميع مواضعه التي سبقت .

والمقسم عليه ، وقد تقدم ذكر خصوصية هذا الاتحاد وقيمه في تأكيد مضمون القسم الذي يتواتي إثباته ، ودلالته على تعظيم طرف القسم ومن ثم تعظيم المضمون القسمى من الجهات التي تم تفصيلها ، وتقدم كذلك بيان قيمة مثل هذا التركيب في الإشارة إلى أن الأمر المقسم عليه من الظهور والوضوح بحيث يمكن الإقسام به ، وفي ذلك تعويل على ماجرى عليه العرف اللغوى من كون المقسم به - في الغالب - أمراً ظاهراً من شأنه أن يؤكّد غيره ، وفي جميع هذه الوجوه ما يظهر براعة هذا النوع من الكلام الذي يكون فيه المقسم به والمقسم عليه من واحد واحد .

وبين القسم بالكتاب المبين ومجيء الحرفين المقطعين (حم) علاقات خاصة تفسر وجه اقترانهما ، وقد سبق بسطها في الموضع السابق : فنكتفي من ذلك بما ذكر هناك .

وفي هذه العلاقة ما يوثق الصلة بين القسم وسياقه الخاص الذي ورد فيه ، وقد تقدم في هذا الموضع ما يوضح علاقة القسم بموقعه الخاص في صدر سورة الدخان ، ذلك الموضع الذي عنيت فيه السورة - على وجه الخصوص - بإثبات قضية الرسالة ، وبخاصة لأولئك الشاكين اللاعبيين .

والملاحظ في هذا السياق الذي أقسم فيه بالقرآن الكريم أنه قد تضمن الإشارة إلى السماء والأرض في قوله سبحانه : (رب السموات والأرض وما بينهما) ، ومجيء هذه الإشارة في مثل هذا السياق ذو علاقة بكون القرآن نازلاً من السماء إلى الأرض ، وهذا هو المقسم عليه في هذا الموضع . وقد أشرت في غير موضع إلى أن هذا الارتباط بين ذكر القرآن الكريم والسماء والأرض يتكرر في غير موضع من القرآن الكريم ، وبخاصة في مواضع القسم (١) .

(١) انظر على سبيل المثال : ماورد من ذلك في تفسير القسم بـ (القرآن المجيد) في صدر سورة (ق) ، ص ٤٩٦ من هذا البحث . وتأمل قوله تعالى : (والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل) سورة الطارق الآيات ١٢-١١؛ فقد أقسم بالسماء والأرض في صورة من صور العلاقة بينهما على أن هذا القرآن قول فعل وما هو بالهزل . ولا يخفى على المتتبع اطراد هذه العلاقة في البيان القرآني .

ومن ناحية أخرى تتقدّم صورة القسم مع ما تقدمت الإشارة إليه في الموضع السابق ، من كثرة التنويه بالقرآن وحكاية مقولات المشركين فيه ، في سورة الزخرف التي سبقت هذه السورة ، وما صاحب ذلك من شيوخ لفظ الكتاب ، ووصف المبين فيها .

ويرى البقاعي أن افتتاح سورة الدخان - ومنه القسم - يناسب ما ختمت به سورة الزخرف على وجه الخصوص ؛ وذلك أنه « لما ختمت الزخرف ببشرارة باطنة وندارة ظاهرة ، وكان ما بشر به سبحانه من علم العرب وسلامتهم من غوايل ما كانوا فيه مستبعداً افتحت هذا ^(١) بمثل ذلك مقتضاً عليه فقال : (والكتاب) أي الجامع لكل خير (المبين) أي البين في نفسه ، الموضع لما تقدم من دقيق البشرارة لأهل الصفاء والبصرة ، واضح النذارة بصربيع العبارة ^(٢) ».

وكما يناسب القسم السياق الذي مضى في آخر سورة الزخرف ، وفي سورة الزخرف كلها ، يناسب أيضاً السياق القرآني الذي مضى في عدة سور سبقت سورة الدخان ، وفي ذلك يقول ابن الزبير : « لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه ، وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنًا عربياً إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله : (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون) ^(٣) وتعلق الكلام بعد هذا ببعضه ببعض إلى آخر السورة ، افتتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض ، وهو التعريف بوقت إزالته إلى سماء الدنيا فقال تعالى : (إنما أنزلناه في ليلة مباركة) ثم ذكر من فضلها فقال : (فيها يفرق كل أمر حكيم) فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إزالته إلى سماء الدنيا ، وتقدم الأهم من ذلك في السورتين قبل ، وتأخر التعريف بوقت إزالته إلى سماء الدنيا إذ

(١) أي الكلام الذي بدأ به سورة الدخان .

(٢) نظم الدرر ٢، ١١٨ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية ٤٤ .

ليس في التأكيد كالمتقدم «^(١)».

وفي كلام ابن الزبير ما يكشف عن دقة وقوع هذا القسم في صدر سورة الدخان ، فهو واقع في موقع يناسب السياق الذي تقدمه في السور السابقة في القضية المحدث عنها ، بل إنه يقع في الترتيب - من حيث الأهمية - في المكان اللائق به .

وتحمة علاقة بين ما جاء في صدر هذه السورة (الدخان) من القسم بالكتاب المبين والاحتفاء بتنزيله على نحو يظهر الجد في أمره ، وبين ما جاء في سياق السورة من ذكر كثير من مواقف أولئك المستهزئين الذين وصفتهم الآيات بعد القسم بأنهم (... في شك يلعبون) : فقد جاء الحديث عن مقولاتهم الدالة على وقوفهم موقف الاستهزاء من الرسول ﷺ ورسالته ، ومن ذلك قوله سبحانه : « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ^(٢) »، وتبع ذلك عرض لقصة قوم فرعون الذين وقفوا موقفاً مماثلاً من الآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السلام ^(٣) ، ثم عادت الآيات إلى الحديث عن استهزاء المكذبين من قوم النبي ﷺ بما جاء في هذا الكتاب من الإخبار عنبعث ^(٤) ، وعقب على ذلك بما يدل على أن هذا الموقف موقف من يظن أن الأمر غير قمين بالجد والاهتمام؛ فقال سبحانه: « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * مخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ^(٥) »، وأتبع ذلك بالوعيد الشديد لهذه الفتنة المستهزلة ^(٦).

وتلا ذلك ذكر أشد هؤلاء استهزءاً وأبعدهم عن الجد ، وهو أبو جهل الذي روى

(١) نظم الدرر ٣/١٨ ، ٤ .

(٢) سورة الدخان ، الآية ١٤ . وانظر الآيات : ٩ - ١٧ .

(٣) انظر الآيات : ١٧ - ٣٣ .

(٤) انظر الآيات : ٣٤ - ٣٧ .

(٥) الآية ٣٨ ، ٣٩ .

(٦) انظر الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

عنه أنه «كان يأتي بالتمر؛ فيقول: تزقمو فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد»^(١)، وهو الذي قال : «أيوعدنني محمد ؟ والله إني لأنني أعز من بين جبليها»^(٢)، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآيات التي وردت في هذه السورة في قوله سبحانه: «إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطنون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سوء الحجيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ماكنتم به تقترون»^(٣).

فهذه المواقف الدالة على استهزاء أصحابها بآيات الله تعالى ووعده ووعيده الذي حواه الكتاب المبين ذات صلة بما افتتحت به السورة من القسم المشتمل على إظهار الجد في شأن الكتاب المبين والرسالة التي تضمنها ، وهذا وجه من وجوه العلاقة بين القسم والسياق العام للسورة التي ورد فيها .

وكما شاع وصف (المبين) في سورة الزخرف لكونه الوصف الذي وصف به المقسم به في صدرها ، شاع هنا أيضاً في سياق سورة الدخان وصف (المبين) الذي وصف به كذلك المقسم به في صدرها : فأول ذلك وصف الدخان به في قوله سبحانه : «فأرتفع يوم تأتي السماء بدخان مبين»^(٤) ، ثم وصف به الرسول ﷺ في قوله تعالى: «أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين»^(٥) ، ووصف به ماجاء به موسى عليه السلام من الآيات بأنه سلطان مبين في قوله عز وجل : « وأن لا تعلوا على الله إني آتكم بسلطان مبين»^(٦) ، وقال سبحانه في وصف مافي هذه

(١) لباب النقول في أسباب النزول ص ١٩٠ .

(٢) أسباب النزول ، للواحدي ص ٤٣٦ .

(٣) سورة الدخان ، الآيات ٤٣ - ٥٠ .

(٤) الآية ١٠ .

(٥) الآية ١٣ .

(٦) الآية ١٩ .

الآيات من الإبابة والمحجة : « وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ »^(١) . وهذا تناسق بديع بين وصف المقسم به وما في السورة من شیوع هذا الوصف .

ولما كان القسم بالكتاب المبين في مطلع السورة مشيراً إلى أن فيه من الوضوح والإبابة ما يدفع إلى اليمان به لكونه عربياً نزل بلسانهم ، وكان ذلك وارداً في سياق تعظيمه وتكريره بما أشار إليه من إزاله في أعظم الأوقات وأشرفها - ختمت السورة بالإشارة إلى أن هذا القرآن إنما جعل قرآنًا عربياً بلسان الرسول المبعوث ليتذكرها وليتذروا ، فقال سبحانه : « إِنَّمَا يُسَرِّنَا هُنَّا بِلِسَانِكَ لِعَلَمْنَاهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » فارتقب إنهم مرتابون^(٢) . وهذا تناسب بديع بين القسم في مطلع السورة والخاتمة التي ختمت بها .

وما يزيد هذا التناسب روعة وفخامة أن السياق في أول السورة - عقب القسم - قد انتقل من الإخبار عن شكلهم في ذلك الكتاب المبين إلى الأمر بارتقاب العذاب ؛ فقال سبحانه : « بَلْ هُمْ فِي شَكٍ يَلْعَبُونَ » فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين^(٣) ، وانتقل مثل هذا الانتقال في خاتمة السورة أيضاً - بعد ذكر الغاية من كونه مبيناً - معبراً بالفعل نفسه : (فارتقب إنهم مرتابون) . فهذا التناجم العجيب يصل السياق الذي ورد فيه القسم في أول السورة بآخرها ، على نحو يربط بين دلالات السياقين ويوثق صلة القسم وعناصره بسياق السورة كلها .

وبعد ، فقد أثبتت الصفحات السابقة وجه اختيار عناصر هذا القسم في هذا الموضع وصلتها بالقسم عليه ، ومناسبتها للمقام والخطاب ، وللسياق الخاص الذي وردت فيه ، وللسياق العام في سورتها ، بل مناسبتها أيضاً للسياق الذي تقدم في بعض السور التي سبقتها مما له صلة به ضمنون القسم . وكل ذلك يشير إلى أن صورة

(١) الآية ٣٣ .

(٢) الآية ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) الآية ٩ ، ١٠ .

القسم تتسمى مع كل ذلك اتساقاً تماماً يكشف عن دقة اختيارها في الموقع الذي جاءت فيه ، ولا يزال في كل جانب من هذه الجوانب ما يضيق المقام عن رصده وإثباته .

الباب الرابع
القسم بأسماء المخلوقات

يتناول هذا الباب القسم بأسماء المخلوقات في القرآن الكريم، وقد جاء هذا النوع من القسم القرآني على ضربين ، اقتضيا تناوله في فصلين :

الفصل الأول : قسم الله تعالى بأسماء المخلوقات : ولكثرة مواضع هذا النوع، اخترت منه للدراسة قسم الله تعالى بأشرف مخلوقاته وهو عمر الرسول ﷺ ، وقسمه سبحانه بـ «السماء ذات الحبك» ، وبـ «النجم إذا هوى» ، وـ «موقع النجوم»؛ فهذه مواضع أربعة دللت بها على النحو الذي يمكن أن تدرس على هديه الموضع الأخرى من هذا النوع.

الفصل الثاني : قسم المخلوقين بالمخلوقات : ولم يرد إلا في موضع واحد، وهو قسم السحرة بعزة فرعون فيما جاء من قصتهم مع موسى عليه السلام في سياق سورة الشعرااء.

وأسقف فيما أتناوله في الفصلين من مواضع، على عناصر الأسلوب فيها ، وعلاقتها بعضها ببعض، وخصوصية اختيار الصورة القسمية في تأكيد المقسم عليه، وعلاقتها بالموقع الخاص للقسم، وبالسياق العام للسورة التي ورد فيها، إلى غير ذلك من خصوصيات بناء الأسلوب في موقعه المختلفة.

الفصل الأول

قسم الله تعالى بأسماء المخلوقات

الموضع الأول : القسم بعمر الرسول ﷺ :

قوله تعالى : « لِعُمرَكَ إِنَّهُمْ لَفِي سُكُرٍ تَهُمْ يَعْمَهُونَ » (١) .

يرد هذا القسم في سياق ما جاء من قصة لوط عليه السلام في سورة الحجر : وذلك أن الملائكة جاءوا إليه عليه السلام لإهلاك قومه ، « وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبَشِّرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضِحُونَ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُنُوْنَ * قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَاكُ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلَمْ * لِعُمرَكَ إِنَّهُمْ لَفِي سُكُرٍ تَهُمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخْذُهُمْ الصِّحَّةَ مُشَرِّقِينَ ... » (٢) .

والقسم هنا صادر من الله تعالى يخاطب به نبيه محمدًا ﷺ : روى الطبرى عن ابن عباس قوله : « مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا سَمِعْتُ اللَّهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ » : قال الله تعالى ذكره : (لِعُمرَكَ إِنَّهُمْ لَفِي سُكُرٍ تَهُمْ يَعْمَهُونَ) (٣) . وقال الزجاج : « هَذِهِ الْآيَةُ آيَةٌ عَظِيمَةٌ فِي تَفْضِيلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُ قَسْمٌ بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَذَلِكَ أَكْثَرُ التَّفْسِيرِ » (٤) ، ويقول ابن العربي : « قَالَ الْمُفَسِّرُونَ بِأَجْمَعِهِمْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى هَا هِنَا بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ ، أَنْ قَوْمَهُ مِنْ قَرِيشٍ فِي سُكُرٍ تَهُمْ يَعْمَهُونَ وَفِي حِيرَتِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » (٥) ، ويقول ابن القيم : « أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ السَّلْفِ وَالخَلْفِ - بَلْ لَا يَعْرِفُ عَنِ السَّلْفِ فِيهِ نِزَاعٌ - ، أَنَّهُمْ أَقْسَمُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَيَاةِ رَسُولِهِ ﷺ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِهِ أَنْ يَقْسِمَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ بِحَيَاتِهِ . وَهَذِهِ مَرْيَةٌ لَا تَعْرِفُ لِغَيْرِهِ » (٦) .

(١) سورة الحجر ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٦٧ - ٧٣ . وانظر القصة كاملة في الآيات : ٦١ - ٧٧ .

(٣) تفسير الطبرى ٣٠/١٤ ، وانظر : تفسير البغوى ٥٥/٣ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ ، والتبيان في أقسام القرآن، ص ٢٦٩ ، والدر المنشور ٨٩/٥ ، ٩٠ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١٨٣/٣ .

(٥) أحكام القرآن ١١٣٠/٣ ، وانظر : تفسير القرطبي ٣٩/١٠ .

(٦) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ .

وهذا هو رأي جمهور المفسرين ^(١) .

وخالف الزمخشري إجماع المفسرين ^(٢) ؛ « فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط وأنه من قول الملائكة ، فقال : هو على إرادة القول ، أي قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام : لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » ^(٣) .

ولم ير ابن العربي مانعاً من أن يكون القسم هنا بحياة لوط عليه السلام وقال - معقباً على رأي الجمهور - « وهذا كلام صحيح ، ولا أدرى ما الذي أخرجهم عن ذكر لوط إلى ذكر محمد ، وما الذي يمنع أن يقسم الله بحياة لوط ، وبلغ من التشريف ماشاء ، فكل ما يعطي للوط من فضل ؛ ويتوجه من شرف فلمحمد ضعفاه ؛ لأنه أكرم على الله منه . أو لا تراه قد أعطى لإبراهيم الخلة ، ولموسى التكليم ، وأعطى ذلك لمحمد ، فإذا أقسم الله بحياة لوط فحياة محمد أرفع ، ولا يخرج من كلام إلى كلام آخر غيره لم يجر له ذكر لغير ضرورة » ^(٤) .

ومن هذا يتضح أن من يرى أن القسم هنا بحياة لوط عليه السلام يعول في ذلك على مجيء هذا القسم في سياق قصة لوط عليه السلام ، فلا يسوغ عنده صرف الخطاب إلى محمد ﷺ ؛ وقد ردَّ ابن القيم على ذلك بقوله : « وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين ، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على مافهمه السلف » ^(٥) أي أن الخطاب هنا لرسولنا ﷺ .

وقال الألوسي - يرد هذا الرأي - « وهو مع مخالفته للمأثور محتاج لتقدير

(١) انظر المصادر السابقة ، وانظر كذلك على سبيل المثال : تفسير البيضاوي ص ٣٤٩ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٥٧١/٣) ، وفتح القدير ١٣٨/٣ ، وروح المعاني ٧٢/١٤ .

(٢) انظر الكشاف ٣٩٦/٣ .

(٣) انظر : التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ .

(٤) أحكام القرآن ١١٣٠/٣ . وانظر : تفسير القرطبي ٤٠ ، ٣٩/١٠ ، ١٣٨/٣ .

(٥) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ .

القول أي : قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك) الخ ، وهو خلاف الأصل - وإن كان سياق القصة شاهداً له وقارئه عليه فلا يرد ما قاله صاحب الفرائد من أنه تقدير من غير ضرورة ، ولو ارتكب مثله لأمكن إخراج كل نص عن معناه بتقدير شيء ؛ فيرتفع الوثوق بمعاني النص " (١) .

وما ذكره الألوسي هنا حسن ، غير أن القسم هنا يمكن أن يكون قسماً بحياة لوط عليه السلام صادراً من الله تعالى ، ولا يحتاج فيه إلى تقدير قول ، ويكون في القسم بلوط عليه السلام زيادة تعظيم وترشيف للرسول ﷺ من الجهة التي ذكرها ابن العربي ، ولكن هذا مردود بما أجمع عليه المفسرون وبما جاء في مأثور التفسير .

وما سبق يعرف أن القسم في هذا الموضع صادر من الله تعالى ، وأنه - وإن كان وارداً في سياق قصة لوط عليه السلام - قسم بحياة محمد ﷺ ؛ ومعنى هذا أنه قسم معترض في هذه القصة ، ولمجيئه في موقع الاعتراض دلالات سيأتي بيانها .

أما المقسم به في هذا الموضع فهو عمر الرسول ﷺ : (العَمْرُك) ؛ و « العَمْرُ » والعمُرُ يعني واحد ؛ فإذا استعمل في القسم فتح أوله لا غير ... ، وإنما آثروا الفتح في القسم لأن الفتح أخف عليهم ، وهم يكترون القسم بلعمرى ، ولعمرك ، فلما كثر استعمالهم إياه لزموا الأخف عليهم ... وقال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر ممحذف ، المعنى : لعمرك قسمي ، ولعمرك ما أقسم به ، وحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه » (٢) . وجملة القسم هنا - كما هو واضح - جملة اسمية ، ولم تأت كذلك إلا في هذا الموضع كما أشرنا إلى ذلك من قبل (٣) ، وفيما سواه جاءت جملة القسم في جميع القرآن الكريم على نسق الجملة الفعلية .

وتفسير المقسم به - كما أثبتته المفسرون - : وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في

(١) روح المعاني ٧٢/١٤ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ١٨٣/٣ ، ١٨٤ .

(٣) انظر ص ٤٦ من هذا البحث .

الدنيا ، وقيل : لعيشك ^(١) ، وقيل : معناه : « وحقك على أمتك ، تقول العرب : عمر الله لا أقوم ، يعنون : وحق الله » ^(٢) . والمشهور في العمر أو العمر أنه اسم ملدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح ^(٣) ؛ وعلى هذا فإن المقسم به هنا هو حياة الرسول ﷺ وبقاوته وعيشه ومدته التي قضاها في الدنيا ، فكل ذلك داخل في معنى المقسم به . ولم يرد في غير هذا الموضع القسم بالرسول ﷺ أو بما يضاف إليه ^(٤) .

أقسم الله تعالى بهذا على قوله : « إنهم لفي سكرتهم يعمرون » ^{﴿﴾} ، ومعنى قوله (سكرتهم) : ضلالتهم وجهالتهم ^(٥) ؛ شبه ذلك بالسكرة ^(٦) ، والسكرة - كما يقول ابن عاشور - « مشتقة من السكر - بفتح السين - وهو السد والغلق .

(١) تفسير الطبرى ٣٠/١٤ ، زاد المسير ٤٠٨/٤ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

(٢) زاد المسير ٤٠٨/٤ .

(٣) انظر : المفردات في غريب القرآن ص ٥١٨ ، وتفسير الخازن (ضمن مجمع التفاسير ٥٧١/٣) .

(٤) نقل الفيروز ابادي في كتابه (بصائر ذوي التمييز في طائف الكتاب العزيز ١٨ ٨/٦) عن المعيني في تفسيره : أن الله تعالى أقسم بخمسين شيئاً من ذات الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته وأحواله ، على تأويل بعيد لبعض آيات القسم بأسماء المخلوقات أو بالقرآن أو بالحروف المقطعة - عند من يرى كونها قسماً - ، ولغير ذلك من الآيات التي لا تشتمل على قسم ، ولقد سلك في جميع ذلك مسلكاً ظاهراً التكليف والغرابة لا يستند إلى شيء من التفسير بالتأثر ، بل يعارض كثيراً منه .

وقد لفتني محقق الجزء الخامس والسادس من الكتاب الأستاذ عبدالعزيز الطحاوى (في الجزء السادس ص ٨) لفتأن ^{إلى} كثيراً مما ورد في هذه البصائر لا يخلو من « شوائب الاسرائيليات التي تسربت إليها عن طريق النقل من كتب الأقدمين ، الذين أحسنوا النية فتقبلوا من الرواية والكتابين بدون تحزن ولا تدقيق ... » .

أقول : ولهذا لا يصح - عندي - أن الله تعالى أقسم برسوله صلى الله عليه وسلم أو بشيء مما يضاف إليه إلا في هذا الموضع الذي ذكرته ، وثمة موضع آخر يتحمل القسم وهو قوله تعالى : (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) سورة الزخرف الآية ٨٨ .

(٥) تفسير الطبرى ٣٠/١٤ ، وتفسير البغوي ٥٥/٣ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

(٦) إعراب القرآن ، للنحاس ، ٣٨٧/٢ .

وأطلقت هنا على الضلال تشبيهاً لغلبة دواعي الهوى على دواعي الرشاد بذهب العقل وغشيته ^(١) ، وقيل المراد : غوايتم أو شدة غلتهم التي أذهبت عقولهم وتقييدهم بين الخطأ الذي هم عليه والصواب الذي يدعون إليه ^(٢) . قال ابن القيم : « وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمرة ، كما قال القائل :

سکران : سکر هوی ، وسکر مدامۃ ومتى إفاقۃ من به سکران ؟ » ^(٣)
ثم قال سبحانه : « يعمهون ^{﴿يُعْمَلُونَ﴾} أي : يتربدون ويتحيرون ^(٤) ، والعمره - كما يقول الراغب - « التردد في الأمر من التحير » ^(٥) .

والتحدث عنهم هنا - كما هو واضح من النصوص السابقة - هم قوم لوط ، أي أن الضمائر في المقسم عليه لهم ، وهذا قول بعض المفسرين ^(٦) ، وذهب الطبرى إلى أن الضمائر هنا لقريش قوم الرسول ﷺ ، وهو مروي عن ابن عباس ^(٧) ، والخلاف في هذا متصل بالخلاف في العمر المقسم به، وترددہ بين الرسول ﷺ ولوط عليه السلام ؛ ولهذا ذهب البقاعي إلى أن المراد بذلك قوم لوط إن كان الخطاب للوط عليه السلام ، وقوم الرسول ﷺ إن كان الخطاب له عليه الصلاة والسلام ، ووصف الأخير بأنه هو الظاهر ^(٨) .

(١) التحرير والتنوير ٦٨/١٤ .

(٢) الكشاف ٣٩٦/٣ ، وتفسير أبي السعود ٨٦/٥ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٤) تفسير الطبرى ٣٠/١٤ ، وتفسير البغوي ٥٥/٣ ، وتفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ٥٢٠ .

(٦) انظر : المصادر السابقة للنصوص المشار إليها ، وانظر أيضاً على سبيل المثال : الكشاف ٣٩٦/٣ ، وزاد المسير ٤٠٩/٤ ، والقرطبي ٤٠/١٩ .

(٧) انظر : تفسير الطبرى ٣٠/١٤ ، والبحر المحيط ٤٦٢/٥ ، وروح المعانى ٧٣/١٤ .

(٨) نظم الدرر ١١/٧٥ ، ٧٦ .

والأقرب إلى السياق أن الحديث هنا عن قوم لوط عليه السلام ، ولاينتعه كون الخطاب لرسولنا ﷺ - كما أجمع عليه المفسرون - ، ومن جهة أخرى فإن خطاب الرسول ﷺ بهذا الكلام يجوز أن يدخل في المقصود به قومه من كفار قريش ، وعلى هذا فإن في السياق والألفاظ ما يتبع إرادة الفريقين معاً بجامع مخالفة الرسل والانغماس في الضلال ، وبجامع آخر يظهر من تشابه موقفي قوم لوط وكفار قريش فيما حكى من أحوالهم في هذه السورة خاصة ، وسيأتي بيانه في صلة القسم بسورته .

وقد جاء في هذه الآية : (لعمك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) من أساليب التوكيد ما قبل أن يجتمع في جملة قصيرة كهذه ؛ ففيها القسم بحياة الرسول ﷺ صادراً من الله تعالى - وذلك غاية في التوكيد وحده - ثم ترى فيها جواب القسم مؤكداً بـ : إن واللام ، وأسمية الجملة ، وتشبيه جهلهم وضلالهم بالسكر بجامع ذهاب العقل في كل ، وفيها الاستعارة التبعية في الحرف : (لفي سكرتهم) وهي تدل على تمكنهم من هذه السكرة تمكن الظرف من المظروف ، ثم ترى أن هذه السكرة قد أضيفت إليهم : (سكرتهم) في صورة لغوية تفصح عن تميز هذه السكرة وتفردها ، وتشير إلى اختصاصهم ب الجنس من السكرة لا يشاركون فيه أحد فهم فيه نوع وحدتهم ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم قد بلغوا في الضلال مبلغاً لا يبلغه أحد غيرهم ، ثم يتبع ذلك بوصف حالهم في هذه السكرة في قوله (يعمهون) أي : يتحيرون ، ويستعمل هنا الفعل المضارع للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم وعدم اعتدادهم بالنصائح مرة بعد أخرى ، وفي التعبير بالمضارع أيضاً استحضار لصورة المتحدث عنهم أمام المخاطبين تشهيراً بهذا الفعل الدني ومبالغة في اللفت إليه في صورة مشاهدة مستمرة .

ثم إذا فرغت من تتبع العناصر المؤكدة هنا رأيت الآية - فوق ذلك كله - واقعة موقعاً يضاعف من قوة هذه المؤكّدات ، وذلك أن لاعتراضها في قصة لوط عليه السلام دلالة على أهميتها ودرجة الاحتفاء بها ، والاعتراض من موقع تأكيد

الكلام^(١) ، وذلك أن المتكلم لا يخرج من كلام إلى كلام - قد يبدو في الظاهر خارجاً عنه - إلا لداع قوي ذي أهمية تستأهل أن يلتفت إليه^(٢) ، وأن يلتفت إليه المخاطب و يجعله عنده أولى بالاهتمام والإصغاء ، فإذا كان هذا شأن الاعتراض وحده فكيف وقد ضمنه ماسبق إياضاه من إجماع أقوى عناصر التأكيد ؟ !

وفي مجيء التعبير على هذا النحو الذي تتحدد فيه دلالة عناصر القسم المؤكدة وموقعه - وهو الاعتراض - لفت قوي جداً إلى بلوغ المتحدث عنهم الغاية في القبح والدناءة والبعد عن الصواب ، وذلك أن هذا القسم يأتي بعد أن ساقت الآيات قبله موقف قوم لوط - عليه السلام - من الملائكة الذين نزلوا في ضيافته ، وإصرارهم على محاولة الاعتداء عليهم ، وهو أمر مستقبح ومنكر في ذاته ، فكيف به وقد عزموا عليه مع من وجب له الإكرام والرعاية ، ثم كيف به وهو يصدر منهم في هذا الموقف مع هؤلاء الضيوف المخصوصين ، الذين علم من سياق القصة كونهم من الملائكة ؛ وفي هذا الخطاب أيضاً المبالغة في إظهار التعجب من ضلالهم الذي يتحираون فيه ، والمبالغة في الإنكار عليهم والإشعار بقبح صنيعهم .

ويقول سيد قطب في بيان الغرض من القسم في هذا السياق : « بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق خطاباً لمن يشهد ذلك المشهد على طريقة العرب في كلامهم بالقسم ... لتصوير حالتهم الأصلية الدائمة التي لا يرجى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة »^(٣) .

(١) قال ابن جني في باب الاعتراض : « وهو جار عند العرب مجرى التأكيد » .

انظر : الخصائص ٣٣٥/١ .

(٢) من البلاغيين من يسمى الاعتراض التفاتاً : انظر على سبيل المثال : نقد الشعر لقدماء ص ١٥٠ ، وإعجاز القرآن للباقلاني ص ٩٩ ، والعمدة لابن رشيق ٤٥/٢ ، والمصباح لابن مالك ص ٩٩ ، والرسالة العسجودية للصفاني ص ١٤٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢١٥ .

ويفهم من كلامه أنه يجعل الخطاب هنا لكل من يشهد ذلك المشهد ، وهو تفسير جيد ، ويستفاد منه أن هذا الحال الذي بلغوه ظاهر في الضلال بحيث يدركه كل أحد حتى ليصح أن يخاطب كل من يتاتي له الخطاب باللفت إليه في أسلوب يشبه التقرير، فكأن في قوله : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) - على عموم الخطاب - معنى : ألا ترى أنهم في سكرتهم يعمهون ، إنهم كذلك دون ريب .

وفي الآية أيضاً من دواعي التأكيد ما يتعلّق بالمخاطب الخاص وهو الرسول ﷺ ، وذلك أن الله تعالى يخاطبه بهذا الخطاب القوي المشتمل على ما يثير انتباه المخاطب، ويزيد من احتفائه بالكلام ، ويظهر اهتمام المتكلّم بكلامه - ليلفته عليه الصلاة والسلام إلى هذا الموقف العصيّ الذي واجهه لوط عليه السلام من قومه ، ولينبهه إلى مافيّه من الدلالة على أن في الأقوام السابقة من هم أبعد ضلالاً وكفرًا من قومه ﷺ ، تسلية له وتصبيحاً على ما كان يلقاه منهم من أذى .

وما في القسم من معنى التسلية له عليه الصلاة والسلام ذو صلة وثيقة بما جاء في أول هذه السورة من رمي كفار قريش الرسول ﷺ بالجحون ، وسؤاله أن يأتيهم الملائكة ، وهو ما جاء في قوله تعالى : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين »^(١) ، فهذا الموقف من جنس موقف قوم لوط في جرائمهم على رسول الله وملائكته ، وهذا يؤكد - أيضاً - كون المقسم عليه حديثاً عن الفريقيين معاً .

وتفسير ذلك - كما لحظه البقاعي - أن هذه الآية تؤكد على أن هؤلاء الكافرين في خطأ بعيد عن السنن في طلبهم إثبات الملائكة كما كان قوم لوط عليه السلام يقصدون الالتجاز بالفاحشة بين مكن من هلاكهم ، فشتان ما بين القصدرين ، وهيهات لما بين الفعلين ! فصار المعنى أن ما قدفوك به أول السورة بهم لا بك ، لأن من يطلب

إتيان الملائكة - مع جواز أن يكون حاله حال قوم لوط عليه السلام عند إتيانهم - هو المجنون » (١) .

وفي هذا ما يوضح الصلة الدقيقة التي تربط هذا القسم بالسياق العام للسورة التي ورد فيها ، وهي صلة تؤكد أن لكل قسم في القرآن موقعه الخاص الذي لا يمكن بحال أن يحل فيه غيره . وسنأتي على وجوه أخرى تربط هذا القسم بسورته .

ونعود إلى الغرض من القسم لنربط بينه وبين اختيار القسم بعمر الرسول ﷺ : فهذا القسم به قد اختير القسم به - كما تقدم في كلام بعض المفسرين - لتشريف الرسول ﷺ وتعظيمه وتكرمه ، وقد ذكر ابن القيم في كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » ذكر « القسم » بوصفه القسم الثاني عشر من الأقسام المختصة بالمعاني ، وقال في تعريفه : « وهو أن يقسم في كلامه بشيء لم يرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه وإنما يرید به بيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده » (٢) . وذكر من أمثلته هذه الآية التي يقسم الله تعالى فيها « بحياة نبيه ﷺ ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه » (٣) .

وفي كتاب « التبيان في أقسام القرآن » علل ابن القيم للقسم بعمر الرسول ﷺ بأفنه « عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لزيته على كل عمر من أعماربني آدم ، ولاريب أن عمره وحياته ﷺ من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات (٤) » (٥) .

وهذا حق : إذ لاشك في شرف الرسول ﷺ ومكانته عند الله تعالى حتى يقسم

(١) نظم الدرر ١١/٧٦ .

(٢، ٣) انظر : ص ١١٦، ١١٧ .

(٤) أي من الله تعالى ؟ أما من الخلق فلا يجوز القسم إلا بالله : بهذا علق على النص مصحح الكتاب ، انظر هامش ص ٢٦٩ من كتاب التبيان في أقسام القرآن .

(٥) انظر : ص ٢٦٩ .

به ويكرمه وبخصه بهذا الفضل العظيم ، ولكن هذا التعليل - وأمثاله مما مضى في كلام المفسرين - إنما يفسر وجه اختيار القسم بـ (عمر الرسول ﷺ) ، دون تفسير وجه اختصاص هذا الموقع بالقسم به ، وصلته بالقسم عليه في هذا الوطن .

ولتفسير العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في هذه الآية والسياق الذي ورد فيه القسم ، نتأمل الغرض الذي ذكره المفسرون في اختيار القسم بعمره ﷺ ، وهو التكريم والتعظيم ، في ضوء ارتباطه بالغرض الذي أشار إليه المقسم عليه ، وهو تسليمة الرسول ﷺ ، وذلك أن هذا العمر المكرم هو محل مشقة وجihad وإيذاء الرسول ﷺ في مواجهته لقومه ؛ فأقسم به على أنهم في سكرتهم يعمهون إذ يؤذونك ويعجابهونك بالتكذيب والاستهزاء ، وفيه تعريض بموقف هؤلاء الكافرين - مقابلًا بموقف قوم لوط - وأنهم في صنيعهم هذا في سكرة لا يدركون معها من هذا الذي يؤذون ويعذبون ، ولا يدركون على من يجترئون ، وأي جرم يفعلون ؟ ! ؛ فهم في هذه الجرأة عليك كقوم لوط في جرأتهم على رسول الله تعالى وملائكته .

ومن هنا فإن قيمة القسم بـ (عمر الرسول ﷺ) هنا لا تنحصر في مجرد تشريف المقسم به ، بل تتجاوز ذلك إلى جعل هذا التشريف وسيلة تسليمة للنبي ﷺ ، وتقريراً للمشركين الذين أمعنوا في إيذائه وهو من هو في رفعة قدره و شأنه عند الله تعالى ، وأن شأنهم في هذا شأن قوم لوط .

ونتأمل المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه في هذا المقام - أيضًا - في ضوء ما ذكر قبل قليل من قيمة وسائل التأكيد التي اشتملت عليها الآية في تشريح فعلة قوم لوط ، ومن يشابههم ؛ وذلك أن في القسم بعمر الرسول ﷺ - بما فيه من علو الشرف ورفعه المكانة - تعريضاً بخسفة مسلك قوم لوط وقومه ﷺ ودناءة فعلهم مع أنبياء الله تعالى ورسله .

وعلى هذا فالمناسبة بين طرفي القسم - من هذا الوجه - تقوم على التضاد بين الرفعة والشرف والنقاء والطهارة والخلق العظيم وهو ما يعبر عنه المقسم به ،

والانحطاط والخسنة والحقارة والخلق الحقير الدنيء وهو ما يشير إليه القسم عليه ، ليتم بذلك اللفت إلى الفرق الشاسع بين ذلك المثل الشريف من الحياة الرفيعة ، وهذا المثل الدنيء الحسيس من الحياة الوضيعة ، ولهذا جاء التعبير عن هذا الفرق الذي لا مجال فيه للموازنة والمقارنة في صورة ضمت أقوى الأساليب تأكيداً وترسيخاً ولفتاً وتنبيهاً .

ولهذه المقابلة التي هيأتها صورة الأسلوب القسمى غرض توجيهي يقوم على الترغيب في الاقتداء بالخصال الحميدة التي تسم العمر ببسمل الشرف والعلو ، والتحذير من الخصال الذميمة التي تهوي به إلى أدنى الدرجات وأحطها .

وقد جاء هذا القسم - كما ذكرنا - معتبراً فيما ورد من قصة قوم لوط - عليه السلام - في هذه السورة ، سورة الحجر ، وقد اختص به هذا الموقع دون غيره من الواقع التي وردت فيها هذه القصة في القرآن الكريم ^(١) ، وبخاصة ما ورد منها في سورة هود ^(٢) على الرغم من التشابه الكبير بين أحداث القصة وتفاصيلها في السورتين ، وسنقف هنا على بعض ما يفسر اختصاص القصة في سياق سورة الحجر بهذا القسم دون ماجاء منها في سورة هود .

وقد سبقت الإشارة إلى أن لهذا القسم وما فيه من وصف حال قوم لوط ، صلة بحال كفار قريش في سؤالهم إِنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ ، وهو ما ورد ذكره في أول سورة الحجر ، وتقدم بيان صلة القسم - من هذا الوجه - بالسياق العام للسورة ، ويمكن أن يعتمد بهذه الصلة في تفسير اختصاص القصة في سورة الحجر بهذا القسم .

(١) وردت قصة لوط - عليه السلام - في القرآن الكريم في الموضع التالية :

في سورة الأعراف ، الآيات ٨٠ - ٨٤ ، وسورة هود ، الآيات ٧٧ - ٨٣ ، وسورة الحجر ، الآيات ٦١ - ٧٧ ، وسورة الأنبياء ، الآيات ٧٤ ، ٧٥ ، وسورة الفرقان ، الآية ٤٠ ، وسورة الشعراء ، الآيات ١٦٠ - ١٧٥ ، وسورة العنكبوت ، الآيات ٢٨ - ٣٥ ، وسورة الصافات ، الآيات ١٣٣ - ١٣٨ ، وسورة الزاريات ، الآيات ٣١ - ٣٧ ، وسورة النجم ، الآيات ٥٣ - ٥٥ ، وسورة القمر ، الآيات ٣٣ - ٤٠ . وقد تفاوت عرض هذه القصة في كل من هذه السور بين الإيجاز والتفصيل .

(٢) انظر الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة هود .

على أننا نجد مثل ذلك أيضاً في سورة هود ، وذلك أن في أولها ذكر طلب كفار قريش إنزال الملك ، وهو قوله تعالى : « فَلَعْلَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلْكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(١) . وورود الحديث عن هذا الموقف الخاص من كفار قريش في صدر كل من السورتين يرسخ صلة هذه الأجزاء المسوقة من قصة لوطن في السورتين بالسياق العام في كل منها .

ومعنى هذا أن السياق العام في سورة هود يتبع - أيضاً - أن يرد فيه القسم الوارد في سورة الحجر . ولكن الناظر إلى الإخبار عن موقف كفار قريش في طلبهم هذا في كل من السورتين ؛ يدرك أن موقفهم في سورة الحجر أشد غلظة وأكثر جرأة على الرسول ﷺ ، وأكثر إبانة عن بعدهم عن الصواب ، وذلك أنهم هنا يرمونه بالجنة ، ويسألونه إثباتهم بالملائكة - على سبيل الاستهزاء - لتنزل بهم العذاب الذي يتوعدهم به ، قال تعالى : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لِمُجْنَّوْنَ * لَوْمَا تَأْتِنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ »^(٢) ؛ فلا يرجي من يصدر عنه هذا القول الاهتداء ، على حين كان سؤالهم لذلك في سورة هود أخف درجة مما في سورة الحجر ، وجاء كذلك بمعزل عن سؤال العذاب ؛ لأنَّه طلب لمجيء الملائكة مؤيداً لرسالته ، فهو أقل جرأة وتحدياً وأقرب إلى الاهتداء ، وإن كان الطلب نفسه في السورتين يدعو إلى الضيق والحزن الشديد .

وعلى هذا فإن طلب الكفار إنزال الملائكة في سورة الحجر من أجل إنزال العذاب ؛ جاء على نحو استوجب التحاد هذا الطلب في جرأته وقبحه، وعدم رعيه لمقام النبوة ولعظمة المرسل سبحانه - مع قوم لوطن ، فناسبه مجيء القسم في قوله تعالى :

(١) سورة هود ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) ، ولم يكن في سورة هود ما يدعو إلى ذلك لاختلاف جهة هذا الطلب ، وهذا يفسر العلاقة الدقيقة بين هذا القسم وقصة قوم لوط في سورة الحجر ، لأن في سياق هذه السورة ما يهيء لصدور هذا القسم واعتراضه فيما جاء فيها من هذه القصة .

وعiken النظر إلى وجده اختصاص القصة في سورة الحجر بمجيء هذا القسم - أيضاً - من خلال تأمل بعض الفروق التعبيرية بين أسلوبي عرض القصة في السورتين : هود والحجر . ومن ذلك أن هذا القسم الواصف لحال قوم لوط يأتي في قصة سورة الحجر عقب الجزء الخاص الذي يظهر فيه بلوغ قوم لوط منتهى السكرة والضلال ، فقد جاء بعد تكرر النهي من لوط عليه السلام في قوله : « قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضعون * واتقوا الله ولا تخزون » ^(١) وليس في قصة سورة هود مثل هذا التكرار في نهيه لهم ، بل اكتفى بذكر ذلك مرة واحدة في قوله سبحانه حكاية عن لوط : « ... فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد » ^(٢) ، وجاء في قصة الحجر بعد تكرر نهيه لهم قوله له : « ... أولم ننهاك عن العالمين » ^(٣) وهو قول يدل على تكرار نصيحة لوط لقومه وتكرار نهيه لهم عن الرذيلة حتى تكرر نهيه لهم عن الحيلولة دون ما يشتتهون ، أي أن ذلك يدل على أن هذا الفعل قد تكرر منهم واشتهر على الرغم من تكرار نصيحة لوط لهم ، وفي ذلك ما يزيد من بشاعة صنيعهم ، على حين كان لوط عليه السلام فيما حكته سورة هود يحاولهم بأسلوب أكثر تلطفاً ومداراة .

واختصاص قصة سورة الحجر بأسلوب التأكيد في النهي والمنع يتناسب مع مجيء خبر كونهم ملائكة مرسلين من الله تعالى - في أول القصة - لأن القصة في الحجر تبدأ

(١) سورة الحجر ، الآيات ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) سورة هود ، الآية ٧٨ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٧٠ .

بقوله سبحانه : « فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمرون ... »^(١) ، فكان هذا أدعى إلى أن يؤكّد نهيّه لهم ويبالغ في منعهم؛ استحياءً من الملائكة أو خوفاً من سوء ما يمكن أن يصيب قومه .

أما قصة سورة هود فقد جاء الإخبار فيها عن حقيقة هؤلاء الضيوف بعد حدوث محاولة قومه الاعتداء على ضيفه ، في قوله سبحانه : « قالوا يالوط إنا رسول ربّك لن يصلوا إليك ... »^(٢) ، ولهذا كان نهيّه ومنعه لهم أكثر احتياطاً ومداراة لأن موقفه النفسي في هذا السياق أكثر توتراً وهو ما عبر عنه بالأيات : « وما جاءت رسالنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيّ »^(٣) ، « ... أليس منكم رجل رشيد »^(٤) ، « قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد »^(٥) .

فلما كان بناء القصة في سورة الحجر يقتضي التشديد في التأكيد على نهيّهم ومنعهم ، وكان منهم - مع ذلك - التصميم على فعلهم ؛ كان هذا السياق أكثر ملاءمة لمجيء القسم على كونهم : في سكرتهم يعمهون ، وعلى هذا فقد هيأت هذه الخصائص التعبيرية التي وجدت في سياق القصة في سورة الحجر - في ترتيبها وأسلوبها - لظهور هذا القسم فيها دون سورة هود التي لا يناسب سياقها - مع مافيه من قوة التعبير عن ضيق لوط عليه السلام - ورود مثل هذا القسم ، لأن السياق في سورة الحجر يهيء - بما سبق في أول القصة من بيان حقيقة ضيف لوط وبما في عرض هذه القصة من الخصائص - للتعبير عن عظم بشاعة هذا الضلال وقوّة تمكّن المتحدث عنهم فيه .

(١) سورة الحجر ، الآية ٦١ - ٦٣ .

(٢) سورة هود ، الآية ٨١ .

(٣) سورة هود ، الآية ٧٧ .

(٤) سورة هود ، الآية ٧٨ .

(٥) سورة هود ، الآية ٨٠ .

وبهذا يتضح اختصاص هذا الموضع من سورة الحجر بهذا القسم من جهة الت المناسب بين هذا السياق الخاص من السورة والقسم في خصائص التعبير وطريقة العرض ، ومن جهة ارتباط هذا السياق بالسياق العام للسورة ، وعلى هذا يختص هذا الموضع بهذا القسم من جميع الوجوه .

ويأتي هذا القسم - أيضاً - متساوياً مع قسم آخر وارد في السورة وهو قوله تعالى : « فوريك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون » ، ويمكن النظر إلى ارتباط القسمين أحدهما بالأخر من جهة أنهما قد وردان معاً في سياق تسلية الرسول عليه، والتخفيف عنه ، والتلطف في خطابه ، ففي القسم بعمره عليه تحقيق لتكريم الله تعالى له ، وتفخيمه ل شأنه ، وفي إضافة اسمه سبحانه إلى ضميره عليه - أيضاً - تكريم وتفخيم ، وفي ورود هذين القسمين على هذا النحو من الت المناسب والترابط في التركيب والدلالة تناغم يقوى غرضاً ظاهراً من أغراض هذه السورة وهو تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويعد : فقد جاء هذا القسم مناسباً في عناصره وأساليبه للمقسم عليه ، وموضوع القسم ، والمخاطب به ، والمتحدث عنهم ، وجاء صورة ناطقة بالأمر المعبر به عنه ، وجاء كذلك مناسباً للسياق الخاص الذي ورد فيه ، والسياق العام للسورة التي ورد فيها ، وتناغم مع أغراض السورة وأساليبها وبخاصة مع القسم الآخر الوارد فيها .

الموضع الثاني : القسم بـ (السماء ذات الحبك) :

يأتي هذا القسم بعد قسم افتتحت به سورة الذاريات وهو قوله تعالى : « والذاريات ذروا * فالمحميات وقرأ * فالجباريات يسرا * فالمقسمات أمرا * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع * والسماء ذات الحبك * إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك »^(١)؛ فبعد أن أقسم الله تعالى بالصفات المتعددة على صدق البعث والجزاء ابتدأ قسماً آخر أقسم فيه سبحانه بمقسم به واحد هو : السماء ذات الحبك .

وقد أقسم الله تعالى بالسماء في خمسة مواضع من القرآن الكريم^(٢) ، واختلفت صورة المقسم به في كل منها ، وتنوعت قيوده وأوصافه ، باختلاف وتنوع الواقع ، والسياقات ، والعلاقات بين عناصر الأسلوب ؛ فتارة يرد القسم بالسماء وحدها – كما في هذا القسم والقسم الذي صدرت به سورة الطارق – وتارة يرد القسم بأسماء أشياء متعددة من بينها السماء – كما في بقية الموضع الخمسة وهي ثلاثة – أمّا القيود والأوصاف فترى السماء ذات حبك – كما في هذا القسم – وذات بروج كما في قوله تعالى : « والسماء ذات البروج »^(٣). وذات رجع كما في قوله سبحانه : « والسماء ذات الرجع »^(٤) ، وفي مواضع أخرى يقترن القسم بالسماء بذكر أمر متعلق بها تصله بها الواو كما في قوله سبحانه : « والسماء والطارق »^(٥) ، وقوله سبحانه : « والسماء وما بناتها »^(٦) ومن الأهمية بمكان بيان خصوصيات كل هذه الصور القسمية التي تذكر فيها السماء ، ووجه تنوعها ، وجهة

(١) سورة الذاريات ، الآيات ١ - ٩ .

(٢) على الترتيب : في سورة الذاريات ، الآية ٧ ، وسورة البروج ، الآية ١ ، وسورة الطارق ، الآية ١ ، وسورة الشمس ، الآية ٥ .

(٣) سورة البروج ، الآية ١ .

(٤) سورة الطارق ، الآية ١١ .

(٥) سورة الطارق ، الآية ١ .

(٦) سورة الشمس ، الآية ٥ .

اختصاص كل موقع بالصورة التي وردت فيه ، ويعنينا في هذا الموضع ما ورد فيه القسم بالسماء وحدها دون أن يكون معها مقسم به آخر ، ونبداً بما شرعنا فيه القول وهو القسم بـ (السماء ذات الحبك) .

والسماء المقسم بها هنا موصوفة بأنها (ذات الحبك) ، وفي تفسير هذا الوصف في اللغة يقول الفراء : « الحبك تكسر كل شيء ، كالرملة إذا مرت بها الريح الساكنة ، والماء القائم إذا مرت به الريح ، والدرع درع الحديد لها حبك أيضاً ، والشعرة المعدة تكسرها حبك ، وواحد الحبك : حبك ، وحبكة »^(١) وقال الطبرى في تفسيره : « والسماء ذات الخلق الحسن ، وعنى بقوله : ذات الحبك ، ذات الطرائق »^(٢) ، ويقول الزجاج : « جاء فى التفسير أنها ذات الخلق الحسن ، وأهل اللغة يقولون ذات الحبك ذات الطرائق الحسنة ، والمحبوب فى اللغة ما أجيد عمله ، وكل ما تراه من الطرائق فى الماء وفي الرمل إذا أصابته الريح فهو حبك »^(٣) ، وذكر ابن القيم مثل ذلك ثم قال : « والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يزيد الخلق الحسن . وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك حسنها واستواؤها ، وقال قتادة : ذات الخلق الشديد . وقال مجاهد : متقدمة البينان . وقال أيضاً : ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها ، كحبك الماء إذا ضربته الريح ، وكحبك الرمل ، وكحبك الشعر »^(٤) .

وكل ما تقدم يدل على أن المراد بالسماء هنا كل ما دخل تحت هذا اللفظ من معنى السماء المعروفة المعهودة بما فيها من طرائق وأطباقي ، ووصفها بأنها ذات الحبك بالمعنى الذي سبقت بذلك دلالة واضحة ، « وأطباقي السماء يقال لها

(١) معاني القرآن للفراء ٨٢/٣ .

(٢) تفسير الطبرى ١١٧/٢٦ .

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥٢/٥ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

طائق قال الله تعالى : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طائق »^(١) ، وهي السبع الشداد التي قال فيها سبحانه : « وينينا فوقكم سبعاً شداداً »^(٢) ، وعلى هذا فلا وجه لما ذهب إليه الفراهي من تخصيص معناها بالسحاب ؛ لأن السماء - كما يقول - تطلق على معانٍ منها السحاب ، وهو المراد عنده ، وقد استدلَّ على ذلك بأمور أخرى منها : أن القسم السابق كان بالرياح - يزيد قسم الذاريات - والمناسبة بين الرياح والسحاب أظهر ، وقد ذكرها معاً في مواضع ، وأن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه تقتضي ذلك ، وأنَّ الوصف بذات الحبك يدل عليه لأن السحاب يوصف به^(٣) .

والذي أراه أنَّ المراد به (السماء ذات الحبك) السماء كلها بما فيها من سحاب ونجوم وكواكب ومدارات و مجرات وطبق وخلق حسن شديد متقن ؛ لأنَّ اللفظ المقسم به يدل - في كلام المفسرين - على جميع ذلك ، وكذلك الوصف الذي أتبع به ، فمعنى المقسم به متعلق بكل هذه الأشياء ، لا بواحد منها ، على أننا يمكن أن نتأمل العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في ضوء الدلالة المطلقة للمقسم به ، أو في ضوء دلالته على واحد مما يشمله اللفظ المقسم به كالسحاب مثلاً ، ويكون هذا مقبولاً إذا وجدت المناسبة الخاصة بينه وبين المقسم عليه ، وتعدد العلاقات بين عنصري القسم يزيد من قوة تأكيد المقسم به للمقسم عليه .

وقوله تعالى : (إنكم لفي قول مختلف) هو المقسم عليه^(٤) . وفي تفسير

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٧ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٥٢ .

(٣) سورة النبأ ، الآية ١٢ .

(٤) تفسير الفراهي المسمى (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان - مخطوط) سورة الذاريات . نقلًا عن (القسم في القرآن الكريم) ، خالد سيفي - رسالة ماجستير - مكة المكرمة - جامعة أم القرى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ١٤٠٢ - ٢٣٦/٤ .

(٥) انظر : معاني القرآن للفراء ٨٣/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢٣٦/٤ ، والتبيان في أقسام القرآن ص ١٧٨ .

المراد به يقول الطبرى : « إنكم أية الناس لففي قول مختلف في هذا القرآن فمن مصدق به ومكذب »^(١) . وقيل : القول المختلف هو أقوالهم في القرآن وفي النبي صلى الله عليه وسلم من السحر والكهانة والشعر والجنون والكذب « وهو خرص كله . فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وأراؤهم ، وطراطئهم ، وأقوالهم ، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب »^(٢) .

وعلى هذا يكون الخطاب إما للناس كافة ، فيقسم لهم الله سبحانه على كونهم في قول مختلف في القرآن أو الرسول فمنهم المؤمن ومنهم الكافر وإما للكافرين وحدهم ويكون القسم هنا على كونهم في قول مختلف متناقض ، وفي ضمن هذا الجواب - كما يقول ابن القيم - بيان بطلان أقوالهم وتناقضها ، وتکذيب بعضها بعضاً ، بسبب تکذيبهم بالحق^(٣) . لكن الظاهر عند أبي حيان « أنه خطاب عام للMuslim والكافر كما أن جواب القسم السابق يشملهما »^(٤) يريد أنه لما كان القسم عليه - في القسم الذي تقدم وهو قوله سبحانه : « إنما توعدون لصادق * وإن الدين الواقع »^(٥) - شاملًا للمؤمنين والكافرين ، كان الخطاب الوارد في القسم الذي بعده شاملًا لهما أيضًا ، وهذا وجه يؤيده السياق . ويجوز أن يراد معه الوجه الآخر لصحة معناه ، ولا تعارض بينهما .

وأماماً قوله سبحانه : « يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أَفْكَ »^(٦) ؛ فمعناه : « يصرف عن القرآن والإيمان من صرف »^(٧) ، وقيل يصرف عن القول أي من أجله لأنهم كانوا يتلقّون الرجل إذا أراد الإيمان فيقولون له : سحر وكهانة فيصرف عن

(١) تفسير الطبرى ١١٨/٢٦ ، وانظر : معانى القرآن للفراء ٨٣/٣ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، وانظر : إعراب القرآن للنحاس ٢٣٦/٤ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٩ .

(٤) البحر المحيط ١٣٤/٨ .

(٥) سورة الذاريات ، آية ٦ ، ٥ .

(٦) معانى القرآن للفراء ٨٣/٣ ، وانظر : معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٥٢/٥ .

الإيمان »^(١) وذكر ابن القيم مثل هذا القول فهو يرى أن (عن) ههنا فيها طرف من معنى التسبيب أي : يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف^(٢) . أي من صرف عن الإيمان . وهذا على أن القول المختلف اختلفهم في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم إلى أقوال متضاربة ، فإن كان المعنى اختلاف الناس إيماناً وكفراً - كما سبق بيانه - كان المعنى : يصرف بسبب ذلك الإختلاف من صرف إما عن الإيمان إلى الكفر ، وإما عن الكفر إلى الإيمان . وعلى هذا يكون تفسير هذه الآية مبنياً على تفسير المقسم عليه فيكون داخلاً فيما أقسم عليه تعالى لعلاقته به .

وقد أكد المقسم عليه بمؤكّدات متنوعة : فبالإضافة إلى المقسم به ، أكدَه بـأيَّ ، واللام في (لـفـي) ، وجعل المخاطبين في القول مختلف كما يجعل الظرف في المظروف لتأكيد نسبته إليـهـم ، وعبر عن ذلك بالجملة الاسمية لبيان ثباتـهمـ علىـ هذاـ الاختلاف ورسوخـهمـ فيهـ .

ويرى البقاعي أنَّ الإـخـبـارـ عنـ وـهـيـ كـلـامـهـمـ قدـ أـكـدـ بالـقـسـمـ وـجـعـلـ «ـ مـقـسـمـاـ عـلـيـهـ لـبـالـغـتـهـمـ فـيـ تـأـكـيدـ مـضـامـينـهـ مـعـ التـنـاقـضـ بـفـعـلـهـ الجـمـيلـ وـصـنـعـهـ الجـلـيلـ ،ـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـهـمـ لـمـ يـتـخـلـقـواـ مـنـ أـخـلـاقـهـ الحـسـنـيـ بـقـوـلـ أـوـ فـعـلـ »^(٣) .ـ وـهـذـاـ الـلـحـظـ مـحـمـولـ عـلـىـ كـوـنـ الـمـقـسـمـ عـلـيـهـ اـخـتـلـافـ أـقـوـالـ الـكـافـرـينـ فـيـ الـقـرـآنـ وـفـيـ الرـسـوـلـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـتـضـارـيـهـ ،ـ إـذـ لـاـ تـرـتـبـطـ بـرـابـطـ وـلـاـ تـنـضـبـطـ بـضـابـطـ .ـ وـهـوـ مـلـحـظـ يـظـهـرـ قـوـةـ وـدـقـةـ الدـلـالـةـ الـتـيـ يـؤـديـهاـ التـوكـيدـ الـقـسـميـ وـمـاـ صـحـبـهـ مـنـ مـؤـكـدـاتـ فـيـ هـذـاـ السـيـاقـ .

ويختلف الغرض من هذه المؤكّدات باختلاف المخاطبين ، فإن أريد بذلك خطاب الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم وإخبارهم بأنهم في قول مختلف ؛ فيكون الغرض لفت المؤمنين والكافرین معاً إلى أنَّ اختلاف القول هو الموجب الرئيس لاختلاف الجزء الذي ورد ذكره في القسم الذي تقدم ، وهو قسم الذاريات وما تلاها من صفات ،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٣٦ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٩ .

(٣) نظم الدرر ١٨/٤٥ .

ولهذا احتفي به وأظهر في صورة مؤكدة . وإن أريد خطاب الكافرين وحدهم فيكون الغرض من تلك المؤكّدات قوة اللفت إلى حقيقة هامة وهي أن اختلافهم في الحق وهو طريق واحد أفضى إلى تفرق السبيل بهم إلى تلك المذاهب والأقوال المتناقضة الباطلة المتعارضة ، فأكّد هذه الحقيقة وأظهر أهميتها بوقوعها مقسمًا عليها أولاً ، ثم بما شمله الإخبار عنها من مؤكّدات .

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - في ما تقدم من تفسيرهما - تبدو غير ظاهرة ، فبين عنصري القسم من التباعد والاختلاف ما لا يدرك معه وجه الجمع بينهما في قسم واحد إلا بضرب من التأمل وإعمال الفكر ؛ فما الذي يربط بين السماء ذات الحبك وإثبات أن الناس جميعاً أو الكافرين منهم في قول مختلف ؟!

وقد تأمل بعض المفسرين العلاقة بين عنصري هذا القسم ؛ فذكروا وجهاً من الارتباط تختلف باختلاف تفسير المقسم به والمقسم عليه ؛ فمن ذلك ما ذهب إليه البيضاوي من تفسير لهذه العلاقة على جهة المشابهة بين المقسم به وهو السماء ذات الطرائق المختلفة والمتباعدة ، والمقسم عليه مراداً به اختلاف أقوال الكافرين وتناقضها وتباعد ما بينها ، وذلك قوله « ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بالطرائق للسموات في تباعدها واختلاف غaiاتها »^(١) .

وبمثل هذا ربط البقاعي بين القسم بالسماء ذات الحبك وإثبات اختلاف أقوال الكافرين وتباعدها فيما بينهم ، ثم فيما بينها وبين أفعالهم ؛ فقال : « ... (إنكم) يامعشر قريش (لفي قول) محبط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به إبطال الدين الحق (مختلف) كاختلاف طرائق السماء التي لا تكاد تنتظم ، ولا يعرف أولها من آخرها ، واختلاف هذه الأشياء المقسم بها من أول السورة واختلاف غaiاتها »^(٢) .

(١) تفسير البيضاوي ص ٦٩٠ .

(٢) نظم الدرر ٤٥١/١٨ .

وعلى هذا يكون القسم في هذا الموضع من القسم بالتشبه به على المشبه ، ويكون الأسلوب القسمي في القرآن الكريم في بعض مواضعه - ومنها هذا الموضع - مفيداً ما يفيده أسلوب التشبيه من الإتيان بمشبه به يشارك المشبه في وجه من الوجه ويترك بعد ذلك استنباط الغرض من اقترانهما في التركيب لمن يتأمل السياق والمقام الذي ورد فيه التشبيه . فالقسم في هذا الموضع يجمع في عنصريه بين أمرين يقوم بينهما من العلاقة ما يقوم بين عنصري التشبيه ، وهو ما يمكن أن نسميه قسماً تشبيهياً أو تشبيهاً قسماً ، ومن الملاحظ هنا أن الذي يجمع اسلوبي القسم والتشبيه هو كونهما يشتملان على عنصرين يؤتى بأحدهما لتأكيد الآخر وتحقيق معناه أيًّا كان الغرض المقصود بالقسم أو التشبيه . وهذا من تداخل الأساليب وتعاضدها في القرآن وخاصة ، وفي اللغة العربية بعامة .

ومن المفسرين من نظر إلى العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في هذا القسم من جهة أخرى مبنية على ما في (السماء ذات الحبك) من معنى الاتساق وجودة الحبك ودقة الانتظام ، وإشارة ذلك إلى اضطراب أقوال الكافرين واختلافها ؛ فقد ذكر سيد قطب أن الله تعالى « يقسم بالسماء المنسقة المحبوبة على أنهم في قول مختلف مضطرب لا قوام له ولا قرار ولا ثبات له ولا استقرار
.....

ويتضح اضطرابهم واختلافهم وما هم فيه من الأمر المريح : حين يعرض في ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيب »^(١) . واضح من هذا أن سيد قطب يبني العلاقة بين المقسم عليه والمقسم به على ما بينهما من التضاد ، وهو وجه يخالف الوجه الذي تقدم عند البيضاوي والبعاعي ، لكن السياق يقبله أيضاً ؛ لأن مفهوم المقسم به وهو (السماء ذات الحبك) كما يدل على الاختلاف والتباين يدل أيضاً على الاتساق وحسن التركيب . ومن هذا يتضح أن المقسم به قد أكدَ معنى المقسم عليه بكلام معنطيه على ما بينهما من تضاد ، وهذا نظر من البلاغة معجز ؛ فإنك

(١) في ظلال القرآن ٣٣٧٦/٦ .

كيفما قلبت اللفظ في القرآن وجدت له دلالة ومغزى رئيساً متصلةً بدلالة الأسلوب الذيبني فيه .

وغير خافٍ ما سبق أن تفسير العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه يختلف باختلاف تفسير المقسم به ، ولهذا فسر الفراهي العلاقة بينهما في هذا القسم معتمداً على كون المراد بالسماء السحاب ، فذهب إلى أن القسم بالسماء ذات الحبك « إشهاد بالسماء الشتوية التي تكثر فيها الرعد والصاعقة ، وكونها أظهر في الإنذار والتخييف يبين شناعة استمرارهم في غفلة وغرور واختلاف ظنون ، كما جاء في قصة عاد : « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض مطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم مجرمين »^(١) فلم ينتهوا عن غفلتهم وقد جاءهم العذاب ورأوا آيته في السماء المقطعة السحب ذات الحبك »^(٢) .

وليس ببعيد أن يكون بين عنصري القسم هنا هذه العلاقة التي ذكرها الفراهي ، بل إن المتأمل ليكاد يخرج من هذا بوجه آخر غير ما ذكر ، وذلك أن القسم بالسماء ذات الحبك (على معنى السحاب) في سياق ذكر اختلاف الناس في المقسم عليه ، فيه ما يشبه الإشارة إلى أن جزاءهم مختلف ، فقد يكون من جنس جزاء قوم عاد يوم أن رأوا السحاب فاختلقو في أمره بين الرحمة والعذاب ، وذلك للكافرين ، وقد يكون سقياً رحمة ونعمـة وذلك للمؤمنين .

واثمة وجه آخر من وجوه العلاقة بين عنصري القسم وذلك أن القول المختلف المقسم عليه بدلاته على الخير والشر والهداية والضلال إنما يكون من السماء لأن كل

(١) سورة الأحقاف ، الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ، للفراهي ، سورة الذاريات (مخطوط) . عن : القسم في القرآن الكريم ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

ذلك بقضاء الله وقدره النازل من السماء - كما يقول ابن القيم^(١) - وعلى هذا يكون قد أقسم على اختلاف الناس إلى مؤمنين وكافرين بالسماء ذات الحبك ، لأنها مصدر الخير والشر والهداية والضلال وهو القول لمختلف المقسم عليه . وعلى هذا يكون القسم هنا من باب القسم بالسبب على المسبب .

والقسم في هذا الموضع مناسب لسياقه الذي ورد فيه ، فقد تقدمه القسم بالذاريات وماتلاها في صدر السورة علىبعث والجزاء في قوله سبحانه : «إِنَّا توعدُونَ لصادقَ * وَإِنَّ الدِّينَ لِوَاقِعٍ»^(٢) فذكر سبحانه في جواب القسم السابق نوعي الجزاء للمؤمنين والكافرين ، وهذا القسم قسم على اختلاف أحوال الناس في موقفهم من الرسالة ، ولهذا جاء عقب بيان اختلاف الجزاء .

ومن مناسبة القسم لسياقه الخاص ما جاء عقبه من تفصيل أقوال وأعمال الكافرين والمؤمنين^(٣) ، فالسياق الذي ورد فيه هذا القسم يتحدث عن أحوال الفريقين وموافقهم وما أعد الله تعالى لكل فريق .

وثمة ملامح في هذا القسم تربطه بالسمات العامة لسياق سورة الذاريات ؛ ونستطيع أن نرى بعض ذلك في اختيار المقسم به وهو : (السماء ذات الحبك) وعلاقة هذا الاختيار بما شاع في السورة من ارتباط معنوي النذارة والبشرة ، فهما معنيان يجريان في السورة من أولها إلى آخرها ، ولإيجاز ذلك نشير إلى ما في الرياح والسحب والسفن والملائكة - وهي من موصفات الأمور المقسم بها في صدر السورة - من ارتباط بالنذارة والبشرة ؛ فإن كلاً من هذه الأمور يمكن أن يكون نذير شر أو بشير خير ، وقد ورد في سياق السورة ما يؤكّد ذلك فقد جاءت الملائكة لإبراهيم عليه السلام بالبشرى وكانت في الوقت نفسه تحمل العذاب لقوم لوط عليه السلام ، وكذلك شأن الأمور الأخرى في السورة فقد ذكر الله تعالى فيها كيفية هلاك

(١) في التبيان في أقسام القرآن : ص ٢٦٥ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥ .

(٣) انظر الآيات ١٠ - ١٩ من سورة الذاريات .

بعض الأمم بالفرق أو الريح أو الطوفان^(١) ... وهذا كله يشير إلى النسق العام الذي بنيت عليه السورة ؛ فجاء المقسم به (السماء ذات الحبك) متفقاً مع هذا النسق بما فيه من الدلالات التي تقدم ذكرها .

ومن كل ما سبق يتضح وجہ بناء هذا القسم على النحو الذي جاء عليه ، وصلة ذلك بالقسم عليه ، والمقسم لهم ، واتساقه مع السياق الخاص الذي ورد فيه من سورة الذاريات ، ومع النسق العام الذي بنيت عليه السورة كلها .

(١) راجع السورة بتأمل .

الموضع الثالث : القسم بـ (النجم إذا هوى) :

قوله تعالى « والنجم إذا هوى * ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى »^(١).

يقسم الله تعالى بهذا القسم في صدر سورة النجم ، وهو - كما نرى - قسم بالنجم مقيداً بالهوى في قوله : (والنجم إذا هوى) . والجواب المؤكّد بهذا القسم هو قوله سبحانه : (ما ضلّ صاحبكم وما غوى ...)^(٢) إلى قوله (إن هو إلا وحي يوحى) . أما ما جاء بعد هذه الآية من الحديث عن جبريل عليه السلام في قوله تعالى « علّمَه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * ... »^(٣) وما تلاه من آيات ؛ فمتفرع عن الجواب لتفصيل أمر الوحي وأحواله . والقضية الرئيسة المؤكّدة بالقسم هي إثبات أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن ليس من الضلال أو الغواية وليس من عند نفسه ، بل ما هو إلا وحي يتلقاه من الله تعالى بوساطة جبريل عليهما السلام .

و واضح من الآيات أنّ القسم فيها موجه إلى الكافرين الذين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالكهانة والسحر والجنون والشعر بعد سماعهم لما جاء به من الحق ، فـ « يحتمل أن يكون قوله (ما ضلّ) نفياً لقولهم : هو كاهن أو مجانون لأن الكهانة ... من مسيس الجن ، قوله : ما غوى) نفي لقولهم هو شاعر والشاعر يتبعهم الغاون »^(٤) . وعلى هذا يكون قد ردّ في الجملة الأولى من الجواب على كل مقولاتهم المتناقضة في الرسول صلى الله عليه وسلم وفي القرآن الكريم .

(١) سورة النجم ، الآيات ١ - ٤ .

(٢) ذكره الطبرى في تفسيره : ٢٧/٢٥ . أما الجملة التالية لذلك إلى قوله : (إن هو إلا وحي يوحى) فظاهر من السياق أنها من الجواب ، وقد ذكرت في غير موضع أن جواب القسم قد يكون جملة متعددة .

(٣) الآيات ٥ ، ٦ فما بعدها .

(٤) غرائب القرآن للنسابورى (بهامش الطبرى - ٢٧/٣٢) .

وقد اختلف المفسرون في تفسير النجم المراد هنا ، وأكثر ما ذكروا في ذلك قولان : (أحدهما) نجوم السماء . (والآخر) نجوم القرآن^(١) .

فأما الأول ، وهو النجم السماوي المعروف ؛ فقد خصه بعضهم بالثريا وهو قول مجاهد ، واختاره الطبرى « وذلك أن العرب تدعوها النجم »^(٢) وذهب بعضهم - وهو مروي عن ابن عباس - إلى أن المراد به « الرجم من النجوم ، يعني ما ترمى به الشياطين عند استراقهم السمع »^(٣) . وأما الآخر وهو نجوم القرآن فيراد به كل نجم من القرآن كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان ينزل منجماً أي مفرقاً .

وأختلف في المراد بقيد المقسم به وهو قوله (إذا هو) تبعاً لاختلاف المراد بالنجم ، فإذا كان المراد به النجم المعروف في السماء أو الثريا منه أو الرجم ، فالمراد بالهُوَيِّ فيه الطلع والغروب أو السقوط أو الانتشار يوم القيمة ، وإذا كان المراد به نجوم القرآن فهو يها نزولها^(٤) .

ويرى ابن القيم أن أظهر هذه الأقوال هو قول من ذهب إلى أنها الرجم التي ترمي بها الشياطين ؛ إذ « ليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هو ، ولا تسمية نزوله هوياً ». ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه . وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت . وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيمة . بل هذا مما يقسم الربُّ عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلاً ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث فإنه سبحانه إنما

(١) انظر تفصيل ذلك في : تفسير الطبرى ٢٧٩/٢٨ ، ٢٤/٢٧ ، ٢٥ ، والتفسير الكبير ٢٧٩/٢٨ ، وتفسير أبي السعود ١٥٤/٨ ، وروح المعاني ٤٥/٢٧ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٤/٢٧ .

(٣) تفسير البغوى ٤/٢٤٤ ، والتبیان في أقسام القرآن ص ١٥٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٥٤/٨ ، وروح المعاني ٤٥/٢٧ .

استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه »^(١) .

وأرى أن اللفظ يحتمل كل ما تقدم ذكره ، لأن القسم هنا بالنجم إذا هو ؛ فكل نجم تصح فيه هذه الصفة مقصود هنا ، وقد تقدم من التفسير ما يدل على جواز إطلاق هذا اللفظ بقيده وهو الهوى على مطلق النجم ، وعلى الشرياء منه ، وعلى الرجوم الساقطة على الشياطين ، أو المنتشرة يوم القيمة ، وعلى النجوم النازلة من القرآن . ولكل من هذه الأمور وجه اختصاص بالقسم عليه ، وفي السياق ما يجعل القول به أمراً مقبولاً كما سيأتي بيانه . وعلى هذا فالقسم هنا بالنجم إذا هو مطلقاً غير معين ، والمعاني التي ذكرها المفسرون إنما تؤخذ على وجه التمثيل لا التخصيص . وقد سلك ابن القيم نفسه هذا المسلك في تفسيره لكثير من الألفاظ المطلقة في

القرآن الكريم^(٢) . وكان الطبرى يذهب إلى هذا في غير موضع من القرآن^(٣) .

هذا تفسير المقسم به . أما المقسم عليه وهو قوله تعالى : « ما ضل أصحابكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى »^٤ ؛ فقد جاءت جملة الثلاث محققة للمضمون المراد إثباته بالقسم وهو كون القرآن وحيناً من عند الله تعالى ، وذلك من وجوه متعددة في تفسير الألفاظ المختارة فيها .

ففي قوله سبحانه (ما ضل أصحابكم وما غوى) رد شامل لكل ما وصف به الكافرون القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم كما سبق بيانه . وهذه الجملة وحدها كافية في الرد عليهم من جهة ما تضمنته من نفي الضلال والغواية وهما أمران تتعلق بهما أو بأحدهما كل تلك المقولات : من سحر وكهانة وجنون وشعر ، ومن جهة ما

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٢ . وما ذكره من أن المقسم به لابد وأن يكون أمراً ظاهراً غير منكر ولا مجحود ليس بعطرد في القسم القرآني لأن الله تعالى قد أقسم في غير موضع بالقرآن الكريم وبيوم القيمة وهو ما ينكره المخاطبون . والسر في اختيار المقسم به دلالته على المقسم عليه بما يكون بينهما من علاقات ، ولهذا فإن الله تعالى يقسم بالأمر الأكثر توكيداً وتحقيقاً وتبسيطاً للمقسم عليه سواء أكان هذا المقسم به ظاهراً مشهوراً أم منكراً مجحوداً .

(٢) انظر على سبيل المثال تفسيره للشاهد والمشهود في كتابه : التبيان في أقسام القرآن ص ٥٧ .

(٣) في تفسير الطبرى لبعض ألفاظ القسم مما يورده هذا البحث ما يؤيد ذلك .

تضمنه هذان النفيان (ما ضل ... وما غوى) من الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه على الهدى المنافي للضلال ، وعلى الرشاد المنافي للغى « فالهدى في علمه والرشاد في عمله ، وهذا الأصلان هما غاية كمال العبد ... ولا يشتبه الرشاد المهدى بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله ، وأعمامهم قلباً ، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية ... فالناس أربعة أقسام : (الأول) ضال في علمه غاو في قصده وعمله ... (الثاني) مهتد في علمه غاو في قصده وعمله ... (الثالث) ضال في علمه ، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر . (الرابع) مهتد في علمه راشد في قصده . وهؤلاء ورثة الأنبياء ... »^(١) ومعنى هذا أن إثبات صفتى الهدایة والرشاد للرسول صلى الله عليه وسلم تلقت أولئك المخاطبين إلى بعدهم هم عن الهدایة والرشاد وإلى أنهم هم الضالون الغاون ، ويزيد من تقریبهم التعبير عن الرسول صلى الله عليه وسلم بـ (صاحبكم) فإن فيه إذاناً بوقوفهم على أحواله وأقواله وأعماله التي يعرفون منها أنه بعيد عن الغي والكذب والضلال^(٢) ، وفي كل ذلك تأكيد لإقامة الحجة عليهم^(٣) . وعلى هذا يكون نفي هاتين الصفتين مؤكداً لصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر الوحي وهو الأمر المقسم عليه ، أي أن في بناء الجملة الأولى في الجواب على هذا النحو زيادة تقریر وتوکید للمقسم عليه .

وفي الجملة الثانية من المقسم عليه قال سبحانه : (وما ينطق عن الهوى) فنَزَّهَ نطقه صلى الله عليه وسلم عن الهوى ، « ولم يقل : وما ينطق بالهوى ؛ لأنَّ نطقه عن الهوى أبلغ ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمنَ نفي الأمرين ، نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه : فنطّقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال »^(٤) . فتأمل كيف

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٥٣ ، وتفسير أبي السعود ١٥٤/٨ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

أكدت هذه الجملة مضمون سابقتها بأسلوب مختلف عن الأول ، وكيف أن الجملتين تتعارضان في تأكيد المعنى المقسم عليه . ثم تأمل التعبير بالفعل المضارع في (ينطق) فإن في ذلك تأكيداً لنفي النطق عن الهوى على جهة الاستمرار . وأضف إلى ذلك اختيار لفظ (الهوى) وما فيه من التناغم البديع مع قيد المقسم به في قوله (والنجم إذا هوى) وما في ذلك من الإشارة إلى أن سقوط المرء مع هوى النفس وما تأمره به من سوء كسقوط النجم من مكانته العلية إلى الأرض مع هلاكه واحتراقه . وهذا من أبدع التناغم لفظاً ومعنى بين عنصري القسم .

ثم تلا ذلك في جواب القسم قوله سبحانه : (إن هو إلا وحي يوحى) أي ما نطقه إلا وحي يوحى . وقال بعضهم ما القرآن إلا وحي يوحى^(١) . واستحسن ابن القيم الأول لأنه يعم نطقه صلى الله عليه وسلم بالقرآن والسنّة^(٢) وقد بنيت هذه الجملة على أسلوب القصر وهو أبلغ وأكدر في تحقيق المراد (إن هو إلا وحي يوحى ...) ثم حقق هذه الحقيقة بقوله (يوحى) وذلك أنه « ر بما يقال للكلام الصادق الفصيح هو وحي أو سحر حلال فلما قيل يوحى اندفع التجوز »^(٣) ، وفي هذه الكلمة أيضاً إفاده الاستمرار التجدد^(٤) . وكما أكدت الجملة السابقة مضمون سابقتها ، فإن هذه الجملة تؤكّد أيضاً ما قبلها وهو قوله سبحانه (وما ينطق عن الهوى) لأن في إثبات كون ما يتلوه عليهم وحياً من الله تعالى - تأكيداً وتقريراً لنفي نطقه به عن هوى^(٥) . وهذا يزيد من تقرير المقسم عليه على وجه الإجمال .

وما سبق يتضح أن جمل المقسم عليه تؤكّد بتركيبتها ونظمها كون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وحياً من الله تعالى ، ووقعها - مع ذلك - موقع الجواب المقسم عليه يزيد من قوّة ذلك التوكيد الذي أفاده التركيب والنظم . وقد

(١) انظر : تفسير الطبرى ٢٧/٢٧ ، والتبیان في أقسام القرآن ص ١٥٤ ، وتفسير البيضاوي ص ٦٩٧ .

(٢) التبیان في أقسام القرآن ص ١٥٤ .

(٣) غرائب القرآن (بهامش الطبرى ٢٧/٣٣) .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود ٨/١٥٥ .

(٥) انظر : دلائل الإعجاز ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

احتفى القرآن بإبراز هذه القضية وتوكيدها على النحو الذي سبق لأهميتها عند جميع المخاطبين ، وبخاصة أولئك الذين خطبوا في هذا السياق فإنهم لما لم يجدوا في الموجى به من الذكر ما يقدح في ذاته من عيب أو نقص أو تناقض أو باطل ؛ جاؤوا إلى التشكيك في مصدره مع علمهم بزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وكماله في هداه ورشده ، فكان في إثبات حقيقة الوحي على نحو مؤكدة غاية التأكيد مبالغة في تقريرهم وتوبتهم على صنيعهم الذي لا يليق بالعقلاء .

وكل الذي تقدم - بما فيه من قوة التوكيد المشار إليه - لا يعدل ما يحققه البناء القسمي من دلالات تحقيقية تقوم على العلاقة بين المقسم به (النجم إذا هو) والمقسم عليه وهو إثبات كون القرآن وحيًا من عند الله تعالى وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ينطق بالحق بعيد عن الضلال والغواية ، وهذه العلاقة تتتنوع بتنوع المراد بالمقسم به ، ولهذا فإن طرق تحقيق المقسم عليه تتعدد وتتكاثر مع أن القسم واحد ، وهذا من دلائل الإعجاز في هذا الكتاب العزيز . ولبيان ذلك سأعرض بعضًا من هذه العلاقات التي أشار إليها المفسرون أو تأملتها في هذا الموضوع مالم يذكره المفسرون .

فمن ذلك ما ذكره الرازي في تفسيره للنجم ؛ فقد ربط بين كل واحد من التفسيرات المتعددة للنجم المقسم به ، والمقسم عليه ؛ فقال : « أمّا على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرائي لأن له علامة لا يلتبس بغيره في السماء ويظهر لكل أحد والنبي صلى الله عليه وسلم تقييز عن الكل بآيات بينات فأقسم به ، ... وعلى قولنا المراد هي النجوم التي في السماء للاهتداء ، نقول النجوم بها الاهتداء في البراري فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة ، وعلى قولنا المراد الرجوم من النجوم ، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والأنباء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض ، وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدل بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراءته فهو قوله تعالى : ﴿ يَسْ * وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ * إِنَّكَ مِنَ الْمَرْسُلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١) ماضلة ولا غواية ، وعلى قولنا النجم

هو النبات ، فنقول النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها والقوة العقلية أولى بالإصلاح ، وذلك بالرسل وإيضاح السبل ... »^(١) . وجميع هذه المناسبات ظاهرة بين طرفي القسم ، وهي مما يزيد في تأكيد المقسم به للقسم عليه ، وواضح فيها تبادل طرق الاستدلال بالقسم به على المقسم عليه وتنوع جهاته . وقد ذكر بعض هذه الوجوه أبو السعود والألوسي^(٢) .

أما ابن القيم فقد تحدث عن وجه واحد من وجوه العلاقة بين عنصري القسم هنا : لأنَّه يرى أنَّ المراد بالنجم في هذا القسم رجوم الشياطين من النجوم ؛ فيكون سبحانه « قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له على أنَّ ما أتى بِـالـرـسـولـ حـقـ وـصـدـقـ لـاـ سـبـيلـ للـشـيـطـانـ وـلـاـ طـرـيقـ لـهـ إـلـيـهـ ، بلـ قـدـ أـحـرـسـ بـالـنـجـمـ إـذـاـ هـوـ رـصـاـ بـيـنـ يـدـيـ الـوـحـيـ ، وـحـرـساـ لـهـ . وـعـلـىـ هـذـاـ فـالـإـرـتـبـاطـ بـيـنـ الـقـسـمـ بـهـ وـالـقـسـمـ عـلـيـهـ فـيـ غـاـيـةـ الـظـهـورـ . وـفـيـ الـقـسـمـ بـهـ دـلـيـلـ عـلـىـ الـقـسـمـ عـلـيـهـ .. وـبـيـنـ الـقـسـمـ بـهـ وـالـقـسـمـ عـلـيـهـ مـاـ لـاـ يـخـفـيـ ، فـإـنـ النـجـومـ تـرـمـيـ الشـيـاطـينـ آـيـاتـ مـنـ آـيـاتـ اللـهـ ، يـحـفـظـ بـهـ دـيـنـهـ وـوـحـيـهـ وـآـيـاتـ الـمـنـزـلـةـ عـلـىـ رـسـوـلـهـ ، بـهـ ظـهـرـ دـيـنـهـ وـشـرـعـهـ وـأـسـمـاؤـهـ وـصـفـاتـهـ وـجـعـلـتـ هـذـهـ النـجـومـ الـمـاـسـيـحـيـةـ خـدـمـاـ وـحـرـساـ لـهـذـهـ النـجـومـ الـهـاـوـيـةـ »^(٣) . وهذا من أدق وجوه التنااسب بين عنصري القسم لأنَّه بذلك يكون قد أقسم بأيات على آيات ، وبحارس على محروس ، فدل بذلك على عظمة الوحي وعظمته سلطان منزله ، وعلى سلامته من الزيادة أو النقصان ، وفيه إشارة تشبيه ما ذهب إليه الرازبي قبل قليل ، فإنَّ آيات القرآن ونجومه النازلة إلى الأرض تحمي أهلها من الشياطين كما تحمي تلك النجوم السماوية آيات القرآن في السماء . هذا على القول بأنَّ النجوم هي الرجوم الراصدة للشياطين .

(١) التفسير الكبير ٢٧٩/٢٨ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ١٥٤/٨ ، وروح المعانى ٤٥/٢٧ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٢ .

أما تقييد النجم بـ « إذا هو » وفائدة القسم به على هذا النحو ؛ فقد ذكر الرازى له تفسيراً ذا صلة بالمناسبة بين عنصري القسم على الوجه الذى ذكره فى العلاقة بينهما ؛ فقال : « النجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيداً عن الأرض لا يهتدى به السارى لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال ، فإذا زال تبين بزواله جاتب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبي صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم ... فإن قيل الاهتداء بالنجم إذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به إذا كان على أفق المغرب فلم يبق ما ذكرت جواباً عن السؤال ، نقول الاهتداء بالنجم وهو مائل إلى المغرب أكثر لأنه يهدى في الطريقين الدينى والدنيوى ، أما الدينوى فكما ذكرنا ، وأما الدينى فكما قال الخليل : (... لا أحب الآفلين)^(١) وفيه لطيفة ، وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمته وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة فإنه هاوٍ آفل »^(٢) .

ومعنى هذا أن وصف النجم بالهوى في القسم به وهو ما يجعله هادياً يوافق ويناسب ما تتحقق به الهدایة في الرسول صلى الله عليه وسلم من خفض الجناح والخلق الكريم ، بالإضافة إلى كون هذا القيد يشير إلى أن الهدایة به عليه السلام هدایة تشمل الطريقين الدينى والدنيوى وتهدى إلى الفطرة السليمة وتحمي من العقائد الفاسدة المنحرفة عن هذه الفطرة .

ويرى أبو السعود أن هذا القيد - بالإضافة إلى ما فيه من الدلالة على تمام الاهتداء ووقت تتحققه وهو وقت صعود النجم أو هبوطه - فيه كمال مناسبة « لما سيحكى من تدلى جبريل من الأفق الأعلى ودنوه منه عليهما السلام »^(٣) . وهذا يشير إلى وجه من المناسبة بين القسم به والمقسم عليه يوضحه سيد قطب بقوله :

(١) سورة الأنعام ، آية ٧٦ .

(٢) التفسير الكبير ٢٧٩/٢٨ ، ٢٨٠ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٥٤/٨ .

« وحركة تلاؤ النجم ثم هو يه ودنه . أشبه مشهد جبريل المقسم عليه ﴿ وهو بالافق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾^(١) وهكذا يبدأ التناسق والتوافق في المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى) وبهذا يكون المقسم به هنا قد اختير ليلاً تم أيضا صفة نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بوساطة جبريل عليه السلام .

ويتحدث ابن عاشور عن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه من جهة أخرى ، فيذكر أن « مناسبة القسم بالنجم إذا هوى أنَّ الكلام مسوق لإثبات أنَّ القرآن وحي من الله منزل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هوى مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله وهو من تمثيل العقول بالمحسوس »^(٢) .

أي أن المقسم به وهو نزول الوحي من السماء وهو أمر معقول يشبه نزول النجم من السماء وهو من الأمور المحسوسة ، وعلى هذا فيبين عنصري القسم مشابهة بجامع ما فيهما من النزول والإنارة والرفة . أما على كون المشبه هو جبريل فيكون هذا كما يقول ابن عاشور - من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس^(٤) ، وفي كلام الوجهين يكون المراد به النجم المعروف في السماء .

ويذكر الأستاذ عثمان أبو النصر تفسيراً آخر للمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ، فيذكر أن الله تعالى قد أقسم هنا « بالنجم » والنجم آية من آياته الدالة على قدرته ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ... ﴾^(٥) وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل ، فالنجم هداية

(١) الآيات ٧ - ١٠ من سورة النجم .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤٠٦/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٩٢ ، ٩١/٢٧ .

(٤) المرجع السابق ٩٢/٢٧ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٩٧ .

في الظلمات الحسية وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية ، والنجوم آياته المعنوية والحسية وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية ، والنجوم آياته المعنوية المرئية والقرآن آياته المتلبة فالشبه بينهما واضح والمناسبة قوية وكأنه تعالى يقول من قدر على خلق النجوم يزين بها السماء ويهدي بها في ظلمات الليل برأ وبحراً قادر بلا شك على إنزال القرآن يخرجنا به من ظلمات الغي والجهل إلى نور العلم والإيمان »^(١) . والشبه هنا آيات الكتاب كما نرى لا الرسول صلى الله عليه وسلم كما في نصّ الرازى .

ويلحظ الأستاذ عبد الكريم الخطيب وجهاً من المناسبة يشبه ما ذهب إليه الرازى في بعض جوانبه ، فيربط بين القسم بالنجم وقت هوية ووقوع هذا القسم على النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ماغوى ، ويرى أن في هذا إشارة إلى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم في ليل الجاهلية كما يظهر النجم الهادى في الليل البهيم ، وأنه والنور الذي معه لم يهتد به في الدور المكى من الدعوة إلى وقت نزول هذه السورة إلا القليل من الناس ، فكانَ القسم يشير إلى أنَّ هذا النجم الهادى يوشك أن يغرب ويغيب عن أفقهم فلا يهتدون به ، وأنَّ هذا النجم القطبي - وإن غاب عن الأعين - فإنه قائم في مقامه العالى ، فكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم - وإن غاب عن أعينهم نوره وهداه - فإنه قائم في قلوب المؤمنين^(٢) ... وثمة وجوه أخرى ذكرها الخطيب في تفصيل هذا التناصب لكنها بعيدة عن دلالة السياق^(٣) . وهذا الذى ذكره هنا تفصيل لما ذكره الرازى من أنَّ الله أقسم بالنجم على الرسول صلى الله عليه وسلم لما بينهما من مناسبة الاهتداء الحسى في النجم ، المعنوى فيه صلى الله عليه وسلم .

(١) القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم ، صحيفة دار العلوم ، المجلد ٤٩ ، ص ٤٠ .

وقد ذكر ابن القيم هذا الوجه من المناسبة في تفسيره للعلاقة بين موقع النجوم وآيات القرآن في قسم سورة الواقعة - الذي سيأتي بعد هذا - فالظاهر أنَّ الأستاذ عثمان قد حذوه في تفسير المناسبة في قسم سورة النجم هنا . (انظر التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٧) وراجع الموضع اللاحق .

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٥٨٦/٢٧ ، ٥٨٧ .

(٣) المصدر نفسه .

ويربط الدكتور إبراهيم عوض بين عنصري هذا القسم مستأنساً بما تدل عليه آيات السورة من جو التهديد والتعنيف ، فيرى أن هذا الجو « الذي يخيم على السورة يرشح أن يكون هذا القسم رمزاً على هوي الوثنية وأتباعها وتدھيهم في فضاء التاريخ كما يتدهى النجم الهدى بعد اخلاله من مداره الذي كان قد تمكن فيه على طول الأحقاب »^(١) ويكن أن يكون للقسم به - بوصفه رمزاً على هوي الوثنية - علاقة بالقسم عليه من جهة أخرى أكثر ارتباطاً بما دلّ عليه المقسم عليه في قوله : (ماضل صاحبكم وما غوى) فيكون المعنى أنه قد جاءهم بالحق الذي سيبعد كل ضلال وغواية ، وفيه إشارة إلى أن تلك العقيدة الوثنية المتهالكة ستلهي كما يهوي النجم الذي تمكن في مداره ، فيكون في القسم بالنجم إماح إلى دليل من دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المقسم عليه ، لأنّ هوي تلك العقائد الفاسدة بعد بقائهما زمناً ليس باليسير دليل على بطلانها ودليل على أنّ الذي أزالها لابد وأن يكون حقاً وصدقاً ووحياً من الله تعالى .

ويمكن أن يفهم الوجه السابق على نحو آخر يكون القسم بالنجم فيه على معنى الرجوم المرسلة على الشياطين ، فيكون في ذلك إشارة إلى الحق النازل من السماء الدافع لكل شيطان يحاول تغيير منهج الله في الأرض أو اتخاذ شريعة غير شريعته ، المزهق لكل باطل كان قبله أو استحدث بعده ، أي أن آيات الله تعالى التي نزلت من السماء تدفع الباطل وأتباعه من شياطين الجن والإنس كما تدفع النجوم الراجمة الشياطين المسترقية للسمع . وعلى هذا الوجه يكون في لفظ النجم توربة لطيفة لما فيه من الإشارة إلى نجوم القرآن والنجمون الراجمة للشياطين معاً .

وألمح هنا وجهاً آخر من العلاقة بين طرفي القسم تقدّمت الإشارة إلى طرف منه في بيان التناغم بين لفظي (هوي) و (الهوى) في قوله : (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى) ، ففي هذا التناغم ما يشير إلى صلة سقوط النجم وهوّه على نحو يستحيل فيه إلى كتلة من

(١) في مقالة له بعنوان : القسم بين القرآن والسنة ، مجلة المنهل ، العدد ٤٨ ، ذو الحجة ١٤١١ هـ ، ص ١٧ .

النار المحرقة الضارة بعد أن كان هاديا ونافعا ، بسقوط الإنسان في هوى النفس ، وذلك إماح بديع إلى أن اتباع الإنسان هوى نفسه يرديه ويسقطه في هاوية يصبح فيها ضاراً ومهلكاً لنفسه ولغيره ، وإلى أن ارتفاعه عن هوى النفس يعلى شأنه و يجعله كالنجم الباقي في السماء يهتدى به الناس ويجلونه ويقدرون مكانه العالى . وفيه إشارة ذكية إلى كفار قريش الذين نسبوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هواء وأنه جاء به من عند نفسه في بعض أقوالهم فيه ، على حين أنهم هم الذين حادوا عن الحق وسقطوا في هاوية الضلال .

واقرأ مابين في ضوء قوله تعالى في السورة نفسها - سورة النجم - :

﴿ ... إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفاس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾^(١) وقوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ ... إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بن ضل عن سبيله وهو أعلم بن اهتدى ﴾^(٢) ألا ترى كيف تشير هذه الآيات إلى تلك الدلالات التي يفيدها القسم بالنجم الهاوي على نفي الضلال والغواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم !!

ودع ذا واقرأ قوله سبحانه في آخر سورة النجم في سياق الحديث عن هلاك الأمم المكذبة بالحق : ﴿ والمُؤْتَفَكَةُ أَهْوَى ﴾^(٣) قال المفسرون : هي قری قوم لوط أسقطها الله تعالى بعد أن رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض بوساطة جبريل عليه السلام^(٤) . اقرأ هذا وأنت ترى هذا التناغم اللغظي البديع بين لفظ (أهوى) وماسبقه في صدر السورة من القسم بالنجم (إذا هوى) ، ومايشير إليه ذلك كله من بيان شأن من أعرض عن الحق ، وأنه اتبع هوى النفس فغوى فهو في الدنيا والآخرة

(١) الآية ٢٣ .

(٢) الآيات ٢٨ - ٣٠ .

(٣) الآية ٥٣ .

(٤) انظر : تفسير الطبرى ٤٧/٢٧ .

وليس أقرب إلى هذا المعنى من إيراد قصة قوم لوط في هذه السورة على النحو الذي ورد في الآية : (والموفكة أهوى) أليس هذا من التناسب البليغ مع القسم الذي صدرت به السورة لفظاً ومعنى ؟ ثم ترى أن لورود جبريل عليه السلام ضمناً في هذه الآية ارتباطاً بما جاء من الحديث في أول السورة بعد القسم بالنجم ماله من صلة بنزله بالوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ !

وهذا الارتباط الذي تراه ترى مثله في مجيء قوله سبحانه في السورة نفسها :

﴿ وأنه هو رب الشعري ﴾^(١) « والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ... وقد كان هناك من يعبد هذا النجم ... فتقرير أن الله هو رب الشعري له مكانه في السورة التي تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ﴾^(٢) . ولهذا علاقة بما سبقت الإشارة إليه من أن تقييد القسم بحال الهوى يفيد - بالإضافة إلى التنااسب - بيان أن النجوم مهما عظمت فإنها تهوى وتزول عن مدارها فلا يليق أن تكون معبودة من دون الله تعالى ، ولهذا يرى سيد قطب أن القسم بالنجم إذا هوى يمكن أن يكون ذا علاقة بنجم الشعري الذي ذكر في السورة نفسها بوصفه مربوياً لله تعالى^(٣) .

وكما يرتبط القسم بسورته فإنه يرتبط أيضاً بما جاء في آخر السورة التي قبله ، وذلك أنه « لَمَا ختَّمَ الطُّورَ بِأَمْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ^(٤) ... وذاك بعد تقسيمهم القول في النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كاهن وساحر ومجون^(٥) ، وكان لذلك تعلق بالشياطين ، وكانت الشياطين مباينة للقرآن بختلها وبينها بالرجوم من النجوم كما بين آخر الشعراء^(٦) ، افتتحت هذه بالحث على

(١) الآية ٤٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤١٨/٦ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ٣٤٠٦/٦ .

(٤) انظر الآيات ٤٨ ، ٤٩ من سورة الطور .

(٥) في الآيات ٢٩ - ٣٤ من سورة الطور .

(٦) في الآيات ٢١٠ - ٢١٢ من سورة الشعراء .

الاهتداء بهديه والاستدلال بدله واتباع أثره ، ولما كان من ذلك تسبيحه بالحمد في إدبار النجوم^(١) ، أقسم أول هذه بالنجم على وجه أعم مما في آخر تلك فعبر بعبارة تفهم عروجه وصعوده^(٢) لأنه لا يغيب في الأفق الغربي واحد من السيارة إلا وطلع من الأفق الشرقي في نظير له منها لما يكون عند ذلك من العبارة العالية ، والأذكار الذاكية ، مع ما فيه من عجيب الصنع الدال على وحدانية مبدعه من زينة السماء التي فيها ما توعدون والحراسة من المردة حفظاً لنجم الكتاب ، والاهتداء به في الدين والدنيا ، وغير ذلك من الحكم التي يعرفها الحكماء^(٣) .

وبعد ؛ فشمة وجوه أخرى من التناسب والتناسق بين عناصر هذا القسم وسياقه الذي ورد فيه ، في السورة التي قبله ، وفي السورة التي هو فيها ، كما أن ثمة وجوهاً أخرى من وجوه العلاقة بين هذا القسم وما أقسم به عليه ، وثمة أيضاً جوانب من البحث خطرت أثناء كتابة ما يتعلق بخصوصيات هذا القسم ، كارتباط افتتاح السورة هنا بالقسم بالنجم إذا هوى ، بواقع أخرى ورد فيها النجم في أوائل بعض السور^(٤) ، وكارتباط النجم في هذا الموضع من موقع القسم بغيره من مواقع هذا اللفظ في القرآن الكريم وبالسياقات التي يرد فيها ، وهي سياقات تتلاقى وتتجاذب من نواح متعددة ، وكل هذه الأمور ذات علاقة حميمة بدراسة مواضع القسم لأنها تفسر خصوصيات بناء القسم في الموضع الذي ورد فيه في ضوء ارتباطه بسياقه الخاص والعام ، كما تفسر سر تمايل أو اختلاف عناصر القسم في موقعه المتعددة من القرآن الكريم ، لكن بسط الحديث في جميع ذلك يحتاج إلى ما لا طاقة له في بحث كهذا ، فضلاً عن أن موقع النجم - المقسم بها في الموضع اللاحق - تستعجل نصيتها من البحث شافعة ذلك بقوله تعالى : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم^(٥) » .

(١) في الآية ٤٩ من سورة الطور .

(٢) ذكر المفسرون أن الفعل (هوى) يكون من هو هوى على وزن قبول بمعنى غرب ويكون من هو هوى على وزن دخول بمعنى صعد وعلا . انظر تفسير أبي السعود ١٥٤/٨ .

(٣) نظم الدرر ٤٠/١٩ .

(٤) كما جاء في أوائل التكبير والانتظار .

(٥) سورة الواقعة ، الآية ٧٦ .

الموضع الرابع : القسم بـ (موقع النجوم) :

قوله تعالى : « فلا أقسم بموقع النجوم * وإنك لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكتنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهاذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون »^(١).

يرد هذا القسم في أواخر سورة الواقعة ، وهو قسم من الله تعالى بموقع النجوم على علو شأن القرآن وتتنزيهه وتتنزيله من رب العالمين ، والمقصود من ذلك كله تأكيد ثبوت القرآن . ولا يخفى ما بين هذا القسم وسابقه من وجوه الشبه ؛ فإن المقسم به في الموضعين هو النجم ، والمقسم عليه فيما هو إثبات أن القرآن من عند الله تعالى وأنه وحيه الذي أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد كان من أساليب هذا الإثبات في الموضعين تنزيه القرآن ، بإثبات الهدى والرشاد للرسول المرسل به في الموضع الأول ، وبوصفه في هذا الموضع بما يعلى شأنه ويشهد على صدقه وصحة نسبته إلى الله تعالى ، كما سنرى . وهذا التشابه يدل على وجود ترابط وثيق بين المقسم بالنجوم وإثبات مصدر القرآن ، فهما أمران متلازمان في الموضعين . ومن التشابه كما هو واضح من السياق أن الخطاب في هذا الموضع كالخطاب في الموضع السابق في كونه موجهاً إلى الكافرين الذين كذبوا بهذا القرآن المقسم على صحته ونعتوه بالسحر أو الشعر أو الكهانة ، وعلى هذا فالغرض من القسم هنا كالغرض من القسم السابق .

لكن ثمة وجوهاً من الاختلاف بين الموضعين ، فبناء المقسم به مختلف في كل منها ؛ لأن القسم في الموضع السابق كان بالنجم إذا هو أي مقيداً بالهوى ، أما في هذا الموضع فإن القسم ليس بعين النجم ولكنه باسم مضاد إليه وهو موقعه ، كما أن لفظ النجم في هذا الموضع جاء بصيغة الجمع (النجوم) بخلاف الموضع السابق . وثمة فروق ظاهرة في صياغة جمل المقسم عليه في كل من الموضعين ، وذلك كله راجع إلى خصوصية موقع كل قسم في سياقه الخاص والعام .

والمراد بموقع النجوم المقصود بها في هذا الموضع لا يختلف كثيراً عن المراد بالنجم في القسم السابق؛ فقد اختلف فيه إلى ما اختلف في سابقه من إقوال أشهرها قوله : (أحدهما) نجوم القرآن؛ لأن القرآن كان ينزل نجوماً متفرقة . (والآخر) نجوم السماء؛ وفيه أقوال؛ فقد قيل إن المقصود بموقعها مساقطها أي مغاربها ، وقيل بل يراد بذلك المشارق والمغارب معاً وقيل المراد بموقعها منازلها وبروجها في السماء ، وقيل المراد انتشار النجوم يوم القيمة ، وقيل موقعها في اتباع الشياطين . وتفسيرها بنجوم السماء هو المختار عند أكثر المفسرين ، لكنهم اختلفوا في تفسير المرايا بواقعها على النحو الذي تقدم^(١) ، واختار الطبرى أن يكون المراد بذلك مساقط النجوم ومغاربها في السماء « وذلك أن الواقع جمع موقع والموقع من وقع يقع موقعاً »^(٢) واحتج بذلك أيضاً ابن القيم ، وأضاف أن الله تعالى يقسم بالنجم وظهورها وغروبها لما في الأحوال الثلاثة من الآية والعبرة ، و « أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمرايا منها الكواكب »^(٣) . وللهذه الكلمات دلالة هذا التفسير لأن الله تعالى قد أقسام بواقع النجوم ولم يذكر شيئاً بعينه فتخصيص ذلك بنجوم السماء أو بحال من أحوالها أو بنجوم القرآن غير وارد ، لاسيما وأن لكل واحد من هذه الأقوال وجهاً أو وجهاً من الارتباط بالقسم وسياقه .

والقسم هنا مصدر بـ (لا أقسام) ، وقد تقدم بسط الكلام في دلالة هذا التركيب في القسم القرآني . ونكتفي في هذا الموضع بذكر بعض الوجوه ذات العلاقة الخاصة بسياق القسم بواقع النجوم على إثبات مصدر القرآن ، فمن ذلك أن المعنى : ليس الأمر كما تزعمون ثم استأنف القسم^(٤) ، أي أن (لا) هنا « ردّ لما يقوله

(١) انظر : تفسير الطبرى ١١٧/٢٧ ، زاد المسير ١٥١/٨ ، والتفصير الكبير ١٨٨/٢٩ ، وتفسير أبي السعود ١٩٩/٨ .

(٢) تفسير الطبرى ١١٧/٢٧ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٤) انظر : تفسير الطبرى ١١٧/٢٧ .

الكفار في القرآن : إنه سحر وشعر وكهانه ^(١) ثم ابتدأ القسم بموقع النجوم على تمجيد القرآن ونسبته إلى رب العالمين ، فهذا الوجه مناسب للقسم عليه . ومن ذلك أن « هذا التلويع بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير في تقرير الحقيقة التي لاتحتاج إلى قسم : (إن لقرآن كريم) » ^(٢) وهذا على القول بأن هذا التركيب يقصد منه بيان أن الأمر المقسم عليه لا يحتاج إلى قسم لشدة ظهوره . ومن ذلك أيضاً ما ذكره البقاعي من أنَّ القسم بهذا الأسلوب نفي لضد ما أثبتته القسم من جهة ، وبيان لاستحقاقه القسم بأعظم من المقسم به على عظمته لمن علم ^(٣) ، من جهة أخرى ، أي أنَّ نفي (لا) لمقولات الكافرين في القرآن مما هو ضد ما أقسم عليه ثم تأكيد المقسم عليه بعد هذا النفي يجعله محققاً مؤكداً لأنَّ النفي قد تقدم دافعاً عن القرآن كل باطل وصفوه به ثم أعقبه في المقسم عليه إثبات حقيقته ، هذا على الوجه الأول في قول البقاعي ، أما على الوجه الآخر فيه زيادة تعظيم للمقسم عليه ببيان أنه يستحق أن يقسم عليه وأن يؤكد بأعظم من القسم بموقع النجوم من أنَّ هذا القسم - لو تعلمون - عظيم ، وفي هذا التفسير ربط بين معنى (لا أقسام) ومعنى الاعتراض بين المقسم به والمقسم عليه بقوله : (وإن لقسم لو تعلمون عظيم) وهو يدل على تناسب دلالات الأساليب التي بني عليها القسم .

وللاعتراض بين المقسم به والمقسم عليه بقوله : (وإن لقسم - لو تعلمون - عظيم) دلالات ومعانٍ متعددة ، لا سيما وأنَّ هذا الاعتراض قد تضمن اعتراضاً آخر في قوله (لو تعلمون) فاعتراض بين الصفة والموصوف ، وأصل الكلام : وإن لقسم عظيم لو تعلمون عظمه ، فهو على التقديم والتأخير . والضمير في قوله (وإن) يعود على القسم بموقع النجوم الذي تقدم هذا الاعتراض ^(٤) .

(١) زاد المسير ١٥١/٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤٧١/٦ .

(٣) انظر : نظم الدرر ٢٣٤/١٩ ، ٢٣٥ .

(٤) انر : تفسير الطبرى ١١٨/٢٧ ، زاد المسير ١٥١/٨ .

(٥) انظر المصادر السابقين ، المكان نفسه .

« وفائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام ، من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد ، وتعظيم المقسم به والمخبر به ، ورفع توهם خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك »^(١) ، وكثير من هذه الدلالات والمعاني تتحقق بهذا الاعتراض الذي وقع بين طرفي القسم في هذا الموضع ، فإن التنويه بشأن المقسم به – الذي أفاده الاعتراض – يزيد من قوة تأكيده للمقسم عليه ، وذلك أن المقصود بكلمة القسم في قوله : (وإنه لقسم) الاستدلال بالقسم به على المقسم عليه كما يقول الرازى : لأن « كل ما جعله الله قسما فهو في نفسه دليل على المطلوب وأخرجه مخرج القسم فقوله : (وإنه لقسم) معناه عند التحقيق ، إنه دليل وبرهان تفسير العلاقات والمناسبات بين هذا القسم وجوابه مايكشف بعض وجوه هذه العظمة ، ويبين بعض أسرار اختصاص القسم في هذا الموضع بهذا التنويه الذي لم يرد في غيره »^(٢) .

يقسم الله تعالى بهذا الأمر العظيم الذي نوه به ويدلاله وبرهانه على المقسم عليه ، يقسم بذلك على قوله « إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين » . وهذا المقسم عليه - كما نرى - عظيم الشأن ، فهو إثبات كون القرآن كريماً ؛ أي : كثير الخير والحسن ، لأن هذا الوصف يقتضيه « فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شيء أحسن »^(٣) وأفضله »^(٤) ، ويكتفى لبيان عظمة هذا الوصف أن الله تعالى قد وصف به نفسه

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٨ .

(٢) التفسير الكبير ٢٩ / ٢٩ .

(٣) لم يرد الاعتراض بهذا في غير هذا الموضع ، لكن التنويه بشأن المقسم بعبارات أخرى قد ورد في القسم القرآني كما في قوله تعالى : (هل في ذلك قسم لذى حجر) . سورة الناجر ، الآية ٥ .

(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ١٤٠ .

وكلامه وعرشه^(١) . ثم ذكر بعد ذلك أنه (في كتاب مكنون) وفسره بعضهم باللوح المحفوظ أو المصحف الذين بين أيدينا^(٢) ، والأرجح - كما يقول ابن القيم -^(٣) أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، المذكور في قوله تعالى : « في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام ببرة »^(٤) .

وقد أكدت الجملة الأولى كون القرآن كريماً بإن واللام واسمية الجملة ، وأكدت الثانية أنه (في كتاب مكنون) مستور عن الخلق « في ستار مصون لما له من النفاسة والعلو في السماء في اللوح المحفوظ وفي الأرض في الصدور المشرفة ، وفي السطور في المصاحف المكرمة المطهرة ، محفوظاً مع ذلك من التغيير والتبدل »^(٥) ، وكل هذا مما يزيد من تحقيق كونه تنزيلًا من رب العالمين وهو المقصود الكلي في هذا السياق . ثم ذكر أنه (لا يمسه إلا المطهرون) « ولما ذكر الذي منه صيانته أتبعه شرفه بشرف منزله وإنزاله على حال هو في غاية العظمة مسمياً له باسم المصدر للمبالغة ، ولأن هذا المصدر أغلب أحواله »^(٦) ، فقال (تنزيل من رب العالمين) : فاجتمع من وصف هذا الكتاب العظيم ما يقتضي أن يكون بمجرده مثبتاً لما لا تدركه العقول من كماله وكافيًّا في الإذعان لاعتقاده »^(٧) . والغرض الرئيس من تأكيد هذا المقسم عليه على هذا النحو الذي تقدم بيان الاحتفاء به وتحقيق الاهتمام به لاسيما في مخاطبة منكريه وناعطيه بتلك النوعات الباطلة ، ولزيادة هذا الاهتمام والاحتفاء والإثبات للقرآن أقسم عليه بموضع النجوم ، ويبلغ في

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٤٠ .

(٢) انظر : زاد المسير ١٥١/٨ .

(٣) في التبيان ص ١٤٠ ، ١٤١ . واحتج له عشرة وجوه .

(٤) سورة عبس ، الآيات ١٣ - ١٦ .

(٥) نظم الدرر ٢٣٧/١٩ ، ٢٣٨ .

(٦) المصدر السابق ٢٣٩/١٩ .

(٧) المصدر السابق ٢٣٩/١٩ .

ذلك بوصف هذا القسم بالعظمة ، وجاء هذا الوصف معتبراً بين المقسم به والمقسم عليه وهو ما يشير إلى أهميته ويلفت إلى أن له من المكان في هذا السياق ما جعله يستأهل أن يفصل به بين عنصري القسم مع أنهما كالمجملة الواحدة لا يفصل بينهما ، كل ذلك للمبالغة في تأكيد المقسم عليه وتعظيم شأنه .

والقسم بواقع النجوم مؤكّد للمقسم عليه من وجوه متعددة ؛ فأول ذلك أن بين عنصري هذا القسم من العلاقات والمناسبات ما يشبه كثيراً ما تقدم ذكره في القسم بالنجم إذا هو ، لأن القسمين - كما تقدم - يتماثلان في نوع المقسم به والأصل المقسم عليه ، وإن كانوا يختلفان في بناء كل عنصر من العنصرين ، ولاختلاف بنائهما خصوصيات توجب النظر إلى العلاقة بينهما في بعض الوجوه على نحو يختلف عما ذكره في القسم السابق . وتتنوع العلاقات بتنوع تفسير المقسم به .

وقد ذكر ابن القيم أن المناسبة بين ذكر النجوم في القسم - على أنها تعنى الكواكب - « وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه : (أحدها) أن النجوم جعلها الله يهتدي بها في ظلمات البر والبحر وأيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الجهل والغى . فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وأيات القرآن في الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدائيتين . مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن . والنجم آياته المشهودة المعاينة ، والقرآن آياته المتلوة المسموعة ، مع ما في موقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية وموقعها عند النزول »^(١) .

ويفسر البقاعي العلاقة بين عنصري القسم هنا في ضوء علاقة القسم بما تقدمه في السورة - سورة الواقعة - وذلك أنه « لما كان الكلام السابق في الماء الذي جعله سبحانه مجمعاً للنعم الدنيوية الظاهرة وقد رتب سبحانه لانزاله الأنواء على منهاج دبره وقانون أحكمه ، وبجعل إِنْزَالَ الْقُرْآنِ نَجْوَمًا مُفْرَقَةً وَبِوَارِقَةٍ مُتَلَّثِّةً مُتَأْلِّةً : قال : (بِوَاقِعِ النَّجْوَمِ) أَي بمساقط الطوائف القرآنية المنيرة النافعة المحبية للقلوب ،

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ١٣٧ ، وقد تقدم ذكر هذه المناسبة في القسم بالنجم إذا هو ، وتقدم التنبية على أسبقية ابن القيم إليها .

وينبئها الذي ينبني عليه ماينبني من الآثار الجليلة وأزمان ذلك وأحواله ، ويسلط الكواكب وأنواعها وأماكن ذلك وأزمانه في تدبيره على ما ترون من الصنع المحكم والفعل المتقن المقوم ، الدال بغيره الكواكب على القدرة على الطي بعد النشر والإعدام بعد الإيجاد ، ويطلوعها الذي يشاهد أنها ملحة إليه إلقاء الساقط من علو إلى سفل لا يملك لنفسه شيئاً ، لقدرته على الإيجاد بعد الإعدام ، وبآثار الأنواء على مثل ذلك بأوضح منه - إلى غير ذلك من الدلالات التي تضيق عنها العبارات ، ويقتصر دون عليها مديد الإشارات ، ولمثل هذه المعاني الجليلة والخطوب العظيمة جعل في الكلام اعتراضًا بين القسم وجوابه ، وفي الاعتراض اعتراضًا بين الموصوف وصفته ، تأكيداً للكلام ، وهنالك تناقض الأفهام تنبيهاً على أن الأمر عظيم والخطب فادح

(١) جسيم » .

ويلاحظ في هذا النص أن البقاعي قد جعل القسم (بموقع النجوم) قسماً بالنجوم النازلة من القرآن والنجوم السماوية في آن ، وربط بين الأمرين فذكر علاقتهما بالقسم عليه على نحو يكون فيه المقصود بالقسم به نجوم القرآن مضمداً معنى نجوم السماء ذات العلاقة بأنواع المطر ، وعلى هذا تكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه من وجوه : فآيات القرآن المنزلة - منجمة وفق ما تقتضيه حكمة منزله وتدميره - لإحياء القلوب ، وما لها من المنافع المتعلقة بمواقعها وأوقاتها ، تشبه الماء الذي ينزله الله تعالى من السماء بسبب ما جعله سبحانه من الأنواء المديدة المحكمة : فيحيي الله تعالى به الأرض بعد موتها ، و يجعل فيه من المنافع والآثار المتعلقة بمكانه وزمانه وأحواله^(٢) ، وفي كلا الأمرين من الحكمة وبدفع الصنعة ما يشهد بقدرة المنزل سبحانه وحكمته وكمال تدميره . هذا إلى ما في طلوع النجوم وغروبها ونزول الوحى وانقطاعه من الدلالة على الإيجاد بعد العدم والعدم بعد الإيجاد ، وفي ذلك

(١) نظم الدرر ٢٣٥/١٩ .

(٢) لهذا نظائر في القرآن الكريم سبق بيانها ، ونظيره في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثيل ما جاء به من الهدى والعلم بالغثث في قوله صلى الله عليه وسلم : « مثل ما يبعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا ... » الحديث .

انظر : الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلم ، ٤٥/١ .

إثبات للبعث بعد الموت ، وإذا ثبت البعث من هذا الوجه ثبتت صحة القرآن وصدقه فيما أخبر به من البعث وغيره ، وثبت كونه تنزيلاً من رب العالمين ، لأن البعث من خصائص الربوبية ، فانظر إلى تكاثر هذه المعاني وتعدد جهاتها ، وتناسبها مع سياق القسم - مع ذلك - وتأزرها في تحقيق المقسم عليه .

وإذا كان المراد بموقع النجوم منازل القرآن ونجومه التي تنزل وفق الواقع والأسباب ؛ فتكون المناسبة بين عنصري القسم هنا الاتحاد ، ويكون القسم هنا من باب القسم بالشيء على نفسه ، لبيان أن تحقيقه وتوكيده لا يتأتى إلا بالقسم به عليه إشارة إلى أنه من العظمة والعلو والشرف بحيث لا يقسم عليه بغيره . والعلاقة التحقيقية هنا تمثل في كون تنزيل القرآن وفق ما تقتضيه الأحداث ، وما فيه - مع ذلك - من العجازات البينات في أسلوبه ونظمه وأحكامه وأدابه وعمومه وخصوصه ، شاهداً بما لهذا القرآن من الصفات المحمودة الجليلة المقسم عليها ، وشاهدأً بعد ذلك أنه (تنزيل من رب العالمين) الذي يعلم بما له من صفات الربوبية وخصوصياتها ما يصلح حال مريوبية فيقدر لهم من نجوم القرآن وزمانها ومكانها ما يناسب حالهم . ثم ترى هذه الآيات المنزلات في نيف وعشرين عاماً ذات أسلوب واحد ، متماثل أولها وأخرها في سماته وخصائصه ودلائل علوه على كل كلام ، ولو رام ذلك بشر لما تأتى له أن ينسج على منوال واحد في بعض أوقات يومه ؛ فضلاً عن أن يتأتى له ذلك في زمن تتفاوت فيه الأفكار والقدرات ؛ فالقسم بموقع النجوم يشير - من هذا الوجه - إلى أن تنزيل القرآن نجوماً في المدة الزمنية التي نزل فيها مع ما فيه من دلائل الثبات والدوام على نسق واحد لا يتبدل ولا يتغير ، يشهد بأنه مما لا يمكن أن يتفق ببشر ، بل يشهد أنه لابد أن يكون تنزيلاً من رب العالمين .

والعلم الحديث يكشف جانباً مهماً من عظمة هذا القسم وعظمة البرهنة به على علو شأن القرآن وصدق نسبته إلى الله تعالى ؛ وذلك أن ما يذكره علماء الفلك والنجوم في عصرنا هذا من عجازات الكون ، وما فيه من الأجرام السماوية الضخمة ، وما بين هذه الأجرام من البعد الشاسع وما يربطها بعضها ببعض من نظام محكم دقيق ؛ وغير ذلك مما وصل إليه العلم الحديث في هذا الباب لا يمثل - على

أهميته - إلا يسير جداً من أسرار النجوم وخفافي الكون^(١) ، وذلك يوميء إلى أن مقاييس البشر قاصرة ونظرهم محدود في الحكم على الآيات القرآنية مكاناً ومكانة كما هو محدود في النظر إلى الآيات الكونية وأنهم لا يزالون يتخطبون في التخرصات والظنون ما لم يأتهم من الله هدى ونور يفسر لهم ما غمض ويكشف لهم ما خفي . وسبب من هذا وقع الاعتراف بين طرفين القسم بقوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

وقيل - في العلم الحديث - إن بعض النجوم تزول عن أماكنها وتغير مواقعها ، ولكن يبقى ضؤوها يشع في مواقعها السابقة دليلاً عليها ، وهذه ظاهرة علمية لم يكتشفها العلماء إلا في العصر الحاضر .

وإذا صح هذا الكشف وصح أن يفسر به قوله تعالى (فلا أقسم بواقع النجوم) على أنه قسم بواقع النجوم التي تظل تشع بعد أن غادرتها نجومها ، لتدل على وجودها فيها قبل ذلك ، إذا صح هذا فإن القسم بواقع النجوم - وفق هذا المعنى - يوميء إلى أن إيماننا بوجود هذه النجوم - مع أنها لا نراها - لأننا لانزال بما أوتيناه من وسائل الرصد والاكتشاف نرى ما خلفته وراءها من آثار ضوئها في مواقعها السابقة ؛ يوميء إلى أن هذا الإيمان الاستدلالي يلزمها بما هو أولى وأقوى حجة دليلاً وهو الإيمان بالله تعالى الذي ترى من آثار قدرته وحكمته ودلائل وجوده ما يشهد على ذلك أبين شهادة ويدل عليه أوضح دلالة ، وإن كنا لا نراه سبحانه ، لكننا نرى آياته الكونية وأياته القرآنية بما أودعه الله تعالى فيها من أسرار الهدایة والنور ، وأعظم ما نرى من ذلك كلامه المنزل لهداية العالمين ، وهو القرآن الكريم (المقسم عليه) المصنون في الكتاب المكnoon المنزّل على خاتم المرسلين من رب العالمين . وهذا من أدق وجوه التناسب بين القسم به والمقسم عليه .

(١) « يقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض . ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بأخر في المحيط الهادئ ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً . إن لم يكن مستحيلاً » . نقله سيد قطب في الظلال ٣٤٧٠/٦ عن كتاب : الله والعلم الحديث ص ٣٣ .

واختيار المقسم به - على هذا المعنى - يتتسق مع السياق الخاص الذي ورد فيه القسم ؛ فقد تحدثت الآيات - في سورة الواقعة - قبل هذا القسم عن دلالة كثير من الآيات والدلائل على وجود الله تعالى ؛ فجاء الاستشهاد بماه المذى يمنون ، والزرع الذي يزرعون ، والماء الذي يشربون ، والنار التي يورون^(١) ، وعقب على جميع ذلك قوله : (فسبح باسم ربك العظيم)^(٢) إشارة إلى أن جميع ذلك شاهد على وجود الله تعالى موجب لتسويقه ، ثم جاء القسم بموضع النجوم - بما فيه من الدلالات السابقة - مؤكداً لهذا المعنى من وجوه متعددة . ثم جاء بعد القسم أندوحة آخر يؤمن الناس بوجوده مع أنهم لا يرون إلا آثاره ، وهو الروح ، وصورت الآيات حالة الاحتضار وما يكون فيها من الأمور الغيبية التي يؤمن بها الناس ولا يرونها^(١) .

وخصوصيات ارتباط القسم بسنته لا تكاد تنحصر ، لكننا ندل على بعضها هنا . فمن ذلك أن ابتداء السورة بتحقيق الواقع وإثبات صدقها وجريان ذلك في السورة كلها ، تصريحاً وتلميحاً ؛ يتناصف مع ما تضمنه القسم - في بعض دلالاته - من إثبات البعث وتحقيقه ، وهذا يشير إلى توافق مضمون القسم مع النسق العام الذي جرت عليه السورة . ومن ذلك ما تقدمت الإشارة إليه في نص البقاعي من ارتباط الحديث عن المطر وأثاره وأحواله بالحديث عن موقع النجوم ذات العلاقة بالأنواء وأحوالها ، وانظر إلى هذا مستصحباً ما ذكرته قبل قليل من ارتباط القسم بما قبله في الاستدلال على وجود الله تعالى ، لترى كيف ارتبطت الآيات بعضها ببعض من وجوه متعددة ، وكيف نظم هذا القسم مع ما قبله من آيات السورة كمانظمت نجوم السماء بعضها مع بعض .

وغني عن البيان أن كثيراً من الوجوه التي تقدم ذكرها في تفسير علاقة القسم بالنجم إذا هو - في الموضع السابق - بالقسم عليه هناك ؛ يمكن قبولها في هذا الموضع للتماثل الذي أشرت إليه بين الموضعين في طرفي القسم فيهما ، ولذا اكتفي في هذا الجانب بما تقدم .

(١) انظر الآيات ٥٧ - ٧٣ .

(٢) الآية ٧٤ .

(٣) انظر : الآيات ٨١ - ٩٦ . وبها ختمت السورة .

وبعد ؛ فقد اتضح مما سبق بسطه في تفسير هذا القسم وبيان خصوصيات بناء الصورة المقسم بها فيه ، أن للقسم بـ (موضع النجوم) في هذا الموضع من مواضع القسم القرآني خصوصيات ذات علاقة بالقسم عليه ، والقسم له ، والمقسم سبحانه ، كما أن لذلك علاقة بالسياق الخاص الذي وردت فيه هذه الصورة المقسم بها ، وبالسورة التي وقعت فيها . وتبين من ذلك كله أن لهذه الألفاظ الموجزة المقسم بها في هذا الموضع من سورة الواقعة دلالاتٍ وعلاقاتٍ ومعانٍ لا تكاد تنحصر . وبين يدي ذلك وبعده لا يسعني - على الرغم مما كشف لنا في عصرنا الحاضر من أمر موضع النجوم - إلا أن أردد ما قاله أبو حيأن - وهو يتأمل ذلك الاعتراض المنوه بهذا القسم (وإنه لقسم لو تعلمنون عظيم) : « وفي إقسامه تعالى بموقع النجوم سر في تعظيم ذلك لا نعلمه نحن ، وقد أعظم ذلك تعالى » ^(١)

**الفصل الثاني
قسم المخلوقين بالخلوقات**

قسم المخلوقين بالمخلوقات

(قسم السحرة بعزة فرعون)

قوله تعالى : « فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِّيَّهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةُ فَرْعَوْنَ إِنَا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » (١) .

جاء هذا القسم في سياق ما جاء في سورة الشعراء من قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وبخاصة في ذلك الجزء من القصة الذي جمع فيه فرعون السحرة لمباراة موسى عليه السلام على مشهد من الناس « فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفَرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كَنَا نَحْنُ الْغَالِبُونَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمْنَ الْمُقْرِبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِّيَّهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةُ فَرْعَوْنَ إِنَا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحْرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ » (٢) .

وقد عد أكثر المفسرين قول السحرة (بعزة فرعون) قسماً أقساماً به في هذا الموقف ؛ قال الطبرى : « أقساماً بقوه فرعون وشدة سلطانه ومنعة ملكته إننا لنجن الغالبون موسى » (٣) ، وقال الزمخشري : « أقساماً بعزة فرعون وهي من أيام الجاهلية » (٤) ، وعلى هذا نص غيرهما ، وهم كثرون (٥) .

« وقال ابن عطيه بعد أن ذكر أنه قسم قال : والأخرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذ كانوا يعبدونه ؛ كما تقول إذا ابتدأت بعمل شيء بسم الله

(١) سورة الشعراء ، الآية ٤٤ .

(٢) الآيات : ٤١ - ٤٨ . وانظر القصة كاملة في الآيات ١٠ - ٦٨ .

(٣) تفسير الطبرى ١٩ / ٤٦ .

(٤) الكشاف ٣ / ١١٢ .

(٥) انظر على سبيل المثال: تفسير البيضاوى ص ٤٨٨ ، وتفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ٤٧٢ / ٤) ، والبحر المحيط ١٥/٧ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٨٥/٣ ، ونظم الدرر ٣٢/١٤ ، وروح المعانى

وعلى بركة الله ونحو هذا »^(١) ، وتبعه في هذا الرأي ابن عاشور^(٢) ، وعلى رأيهما يكون ورود هذا القول من السحرة على سبيل الاستعانة والتيمن ، وهو معنى دخول الباء في قولهم ، شأنه شأن البسملة . وذكر الشوكاني أن هذا القول يحتمل وجهين : أحدهما القسم ، والآخر أنه متعلق بمحذوف الباء سببية ، أي : نغلب بسبب عزته^(٣) .

ويؤكد المقام الذي يرد فيه قولهم : « **بِعَزَّةِ فَرْعَوْنِ إِنَا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** » أنه قسم أقسموا به : لأنه مقام تحد يقتضي تأكيد غلبتهم وانتصارهم ، وفيه أيضاً من دواعي التعبير بأقوى عناصر التوكيد - مما سيأتي بعد - ما يؤيد كونه قسماً ، وهو ما يكاد ينعقد عليه إجماع المفسرين .

ولم يرد في القرآن الكريم القسم بغير الله تعالى مسندًا إلى الخلق إلا في هذا الموضع ، وهو صادر عن السحرة قبل أن يؤمنوا ، وفيما عداه جاء هذا النوع من القسم مسندًا إلى الله تعالى ، وهو مما اختص به سبحانه ونهي الخلق عنه ، ومن جهة أخرى لم يخرج القسم المسند إلى المؤمنين في القرآن الكريم عن القسم بالله تعالى ، وفي الحالين لفت إلى الصورة المحائزية في القسم لتحذى ، وإلى الصورة المنهي عنها لتجنبها صورة قسم أُسندت إلى غير المؤمنين . ولعل في هذا تفسيراً لورود صورة من صور أقسام المjahلين في كتاب الله تعالى .

والقسم به في هذا الموضع هو (عزة فرعون) ، والمراد بالعزّة القوة وشدة السلطان والمنعـة والعظمة^(٤) ، والقسم عليه هو قولهم : « **إِنَا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** » .

(١) انظر : البحر المحيط ١٥/٧ ، وروح المعاني ٧٨/١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢٧/١٩ .

(٣) فتح القدير ٩٩/٤ .

(٤) انظر : الطبرى ٤٦/١٩ ، وتفسير النسفي ، وتنوير المقباس (ضمن مجمع التفاسير ٤٧٢/٤) ، وفتح القدير ٩٩/٤ .

وهذا القسم يصدر من السحرة عند إلقاء حبالهم وعصيهم ، أي أنهم قالوه مع شروعهم في ذلك ، والمعنى بهذا الخطاب موسى عليه السلام وجميع الحاضرين في ذلك الجمع ، كما سيظهر من تفسير أغراضه .

وفي الغرض من هذا القسم يقول البيضاوي : « أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفروط اعتقادهم في أنفسهم ، وإلتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر » ^(١) . أي أن هذا القول منهم - كما يقول البقاعي « قول واثق من نفسه مزمع على أن لا يدع باباً من السحر يعرف إلا أتى به » ^(٢) . وهذا يعني أن القسم يعبر في السياق عن قوة ثقة هؤلاء السحرة فيما يقسمون به وفي أنفسهم ، وقوة تكنهم في هذا الباب - أي السحر - ويقينهم بتحقق النصر لهم .

وقد زاد من الإشعار بقوة الثقة والتمكن واليقين تظافر المؤكّدات في المقسم عليه الذي جرى على لسانهم في ذلك الموقف ؛ ففيه إن المشدة ، واللام في خبرها ، وأسمية الجملة الدالة على ثبات هذا الأمر لهم ودوانه في كل وقت ، وتعريف الطرفين المشعر باختصاصهم بالغلبة .

ويمكن أن يكون من أغراض التوكيد القسمي هنا تخويف موسى عليه السلام ^(٣) وتوهين قوته « ليكون ماسيلقيه في نوبته عن خور نفس لأنهم يعلمون أن العزيمة من أكبر أسباب نجاح السحر وتأثيره على الناظرين » ^(٤) ، وعلى هذا يكون مجيء

(١) تفسير البيضاوي، ص ٤٨٨ ، وانظر : تفسير أبي السعود ٢٤٢/٦ ، وروح المعاني ٧٨/١٩ .

(٢) نظم الدرر ١٤ / ٣٣ .

(٣) انظر : روح المعاني ٧٨/١٩ ، والتحرير والتنوير ١٢٧/١٩ .

(٤) التحرير والتنوير ١٢٧/١٩ . وقد ذكر ابن عاشور هذا المعنى بوصفه غرضاً لقولهم : (إننا لنحن الغالبون) الذي جعله « استثناء عن قولهم (بعزة فرعون) كأن السامع وهو موسى أو غيره يقول في نفسه : ماذا يؤثر قولهم : (بعزة فرعون) ؟ فيقولون : (إننا لنحن الغالبون) وأراد بذلك إلقاء الخوف في نفس موسى ليكون ...) . وهذا لأنه يرى قولهم (بعزة فرعون) افتتاحاً للتين والاستعاة كالبسملة ولا يعدد قسماً .

المؤكّدات في جواب القسم للمبالغة في تخويفه عليه السلام ، رغبة منهم في زيادة التأثير في نفس الخصم .

ومع أن السحرة قد أرادوا بهذه التأكيدات إضعاف همة موسى عليه السلام تمهيداً للتغلب عليه ، فإن ذلك قد أصبح حجة لموسى عليه السلام : يقول الرازى : « فالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون ، وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى » (١) أي أنه - مع فرط ثقتهم في غلبتهم - قد غلبهم فكان ذلك أكثر دلالة على قوة ماجاء به موسى .

ولأمر كهذا اختيار في القسم المسند إلى السحرة هنا القسم بـ (عزة فرعون) ويبلغ في تأكيد جوابه ، لأن لهذا المقسم به - على وجه المخصوص - غرضاً هاماً في هذا السياق ، فمجيئه في القرآن في هذا الموضع يقوى دلالة المعجزة التي جاء بها موسى ؛ وذلك أنه يوضح مقدار إيمان السحرة بألوهية فرعون ومدى انقيادهم له ، حتى بلغ بهم ذلك حداً جعلهم ينسبون إليه عزة ، بل يقسمون بها على مهمات أمرهم ؛ ليكون إيمانهم بالله بعد ذلك ، وسرعة إذعانهم لمعجزة موسى عليه السلام ، وهو ما سيرد بعد القسم ، مقابلاً بما عندهم من قوة اليقين بألوهية فرعون وقوته ؛ أبلغ في إظهار قوة الحجة وقوة الحق وفعله العجيب الذي حولت به هذه القلوب الذاهبة في الباطل إلى جهة لا يرجى برأها - إلى قلوب مسلمة مؤمنة بالله الواحد الأحد تخر للحق ساجدة .

وعلى هذا فإن للقسم بـ (عزة فرعون) وما صحبه من المؤكّدات غرضاً يتعلق بتوكيد معجزة موسى عليه السلام وما وراءها من الحق ؛ فكأنه قسم على صحة

= والحق أنه احتاج إلى دلالة القسم في هذا التفسير الذي ذكره فقال في خاتمة نصه هذا : « وقد أفادت جملة (إننا لنحن الغالبون) بما فيها من المؤكّدات مغادرة القسم » . وما كان أغناه عن هذا كله لو اعتبر قولهم : (عزة فرعون) قسماً أقسموا به ، وهو الأولى .

نبوته ، وهذه هي الدلالة السياقية لهذا القسم . وفي هذا تفسير لاختيار نوع المقسم به و المناسبة لهذا الموقع .

والقسم به في هذا الموضع مناسب للقسم عليه ؛ يقول الألوسي : « هذا قسم منهم بعزمته - عليه اللعنة - على الغلبة ، وخصوصها بالقسم هنا ل المناسبتها للغلبة »^(١) ووجه المناسبة أنهم يشيرون بذلك إلى أن هذه العزة المخصوصة هي سبب نصرهم على موسى ؛ فكان في قسمهم بها تأكيد بأنسب الأمور لتحقيق القسم عليه .

وقد جاء بناء المقسم به على نسق يعدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة؛ فلم يقولوا : بعزمتك إنا لنحن الغالبون ، وإنما قالوا : بعزة فرعون ، مع كونه من سامي هذا القول ، بل هو مخاطب معتذّ به لدى السحرة ، وفي سر هذا العدول يقول أبو حيان : « وعدلوا عن الخطاب إلى اسم الغيبة تعظيمًا ، كما يقال للملوك أمروا رضي الله عنهم بكلذا فيخبر عنهم إخبار الغائب »^(٢) ، والمقام يقتضي التعظيم لأنهم في مقام إظهار عزته وقوته وعظمته .

وفي إضافة العزة إلى فرعون والقسم بها على هذه الصورة تنويه من السحرة بأنه صاحب عزة عرفت وذاعت حتى اقترنت باسمه ، وفي ذلك أيضًا تعريض لموسى وللناس المجتمعين بأنه هو الرب الذي يقسم بعزمته ويستعان بها ، لا إله موسى الذي يزعم ، ولعلهم لهذا السبب ذكروا الله تعالى بإضافته إلى موسى وهارون في سياق اعترافهم بالإيمان بعد ذلك فـ « قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون »^(٣) ، أي أنه لما أشعر قسمهم بعزة فرعون بالاعتراف له بالريوبية ؛ حرصوا على أن يقولوا (رب موسى وهارون) إشعاراً بعزله^(٤) عن مقام الريوبية .

(١) روح المعاني ١٩ / ٧٧ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ١٥ .

(٣) سورة الشعرا ، الآية ٤٧ ، ٤٨ .

(٤) يرى الرازى أن قولهم : (رب موسى وهارون) « عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون كان يدعى =

ويلح في الإضافة أيضاً الحرص على تسمية العزة التي يريدون بها الظفر والغلبة باسم صاحبها ؛ لأنهم لو قالوا : بعزة ربنا - مع قصدهم فرعون - لكان في ذلك مدخل لتوهم نسبتها إلى غيره ، ولكن في ذلك ما يقترح في حرصهم في هذا المقام على نسبة النصر إليه وإخلاص الولاء له . وفي التصريح باسمه في صورة هذا القسم تأكيد لحضوره وفاعليته فيما هم مقدمون عليه من الغلبة .

وفي تعريف فرعون في هذا القسم باسمه إظهار الحرص على التقرب إليه بعد أن وعدهم بذلك قبل القسم في قوله : « قال نعم وإنكم إذاً من المقربين » (١) ، وفي ذلك رعي لما اعتدو به من مقام الألوهية من جهة أن المعبد يقرب إليه ذاكريه ، وهو عندهم إلى ، وفيه أيضاً تقرب إليه من جهة الاعتداد بإنسانيته - وهو ما يرونـه من أحواله - ، وذلك لما علموه مما جبتـت عليه النفوس من حبـ من يجري على لسانـه ذكرـها بـخـير ؛ فإذا كانت النفـوس تـلـذ بـسـمـاع اسمـها في مقـام المـدـح ، فـفي مقـام الإـعـظـام أولـي (٢) . وفي مراعـة السـحـرة للـجـانـب الإـلـهـي والإـنـسـانـي من فـرعـون - كما يـشـيـ بهـ هـذاـ التـعبـير - تـهـيدـ خـفـيـ لـماـ سـيـؤـلـ إـلـيـهـ حـالـهـمـ منـ عـزـلـهـ عنـ الـرـبوـيةـ .

ويؤيد صحة ما تستشعره نفـوسـ السـحـرةـ منـ تـزـعـزـ يـقـيـنـهـمـ فيـمـاـ يـدـعـيهـ منـ الـرـبوـيةـ أنـهـ كـغـيرـهـ منـ النـاسـ الـذـينـ حـضـرـواـ مـوـاجـهـةـ مـوـسـىـ لـفـرعـونـ قـبـلـ ذـلـكـ (٣) - قدـ عـلـمـواـ «ـ بـأـنـ مـاـ ظـهـرـ مـنـ الـمـعـجزـةـ -ـ التـيـ مـنـهـاـ عـجـزـهـ عـنـ نـوـعـ أـذـىـ لـمـنـ وـاجـهـهـ بـاـ لـامـطـعـ »

الـرـبـوـيـةـ فـأـرـادـواـ عـزـلـهـ »ـ التـفـسـيرـ الـكـبـيرـ ١٣٥/٢٤ـ ،ـ وـانـظـرـ تـفـسـيرـ الـخـازـنـ (ـ ضـمـنـ مـجـمـعـ التـفـاسـيرـ ٤٧٢/٤ـ)ـ .ـ ويـقـولـ الـبـيـضاـوـيـ :ـ «ـ رـبـ مـوـسـىـ وـهـارـونـ إـبـدـالـ لـلـتـوـضـعـ وـدـفـعـ التـوـهـ وـإـشـعـارـ عـلـىـ أـنـ الـمـوـجـبـ لـإـيـانـهـ مـاـ أـجـراـهـ عـنـ أـيـدـيـهـماـ »ـ انـظـرـ :ـ تـفـسـيرـ الـبـيـضاـوـيـ صـ ٤٨٨ـ ،ـ وـتـفـسـيرـ أـبـيـ السـعـودـ ٢٤٣/٦ـ .ـ

(١) سـوـرـةـ الشـعـراءـ ،ـ الـآـيـةـ ٤ـ٢ـ .ـ

(٢) بـلـ إـنـ بـعـضـ الشـعـراءـ يـلـذـ بـذـكـرـ مـحـبـيـتـهـ لـهـ وـإـنـ كـانـ فـيـ مقـامـ الذـمـ ،ـ كـماـ فـيـ قولـ اـبـنـ الدـمـيـنـةـ :ـ لـنـ سـاعـنـيـ أـنـ نـلـتـنـيـ بـسـامـةـ لـقـدـ سـرـنـيـ أـنـ خـطـرـتـ بـيـالـكـ

(انـظـرـ :ـ مـعـاـدـ الـتـنـصـيـصـ عـلـىـ شـوـاهـدـ التـلـخـيـصـ ١٥٩/١ـ)ـ .ـ

(٣) انـظـرـ مـاـ حـكـتـهـ الـآـيـاتـ :ـ ١ـ٦ـ -ـ ٣ـ٥ـ .ـ

في مواجهته بأدناه - لم يدع لبساً في أنه مريوب مقهور ، وأن ذلك موجب لاتباع موسى عليه السلام »^(١) .

وقد وضح من الوجوه السابقة المفسرة لاختيار المقسم به والنسق الترثيبي الخاص الذي جاء عليه أن صورة القسم في هذا الموضع لاتناسب المقسم عليه فحسب ؛ بل ترتبط بأمور أخرى ذات صلة بالموقف القسمي ؛ فترصد بدقة صورة نفوس السحرة في ذلك الموقف في قوة تشبيتها بتحقيق الغلبة وتزلفها إلى فرعون مع ما تواريه هذه النفوس أيضاً من حقيقة اعتقادها في هذا الذي يزعم أنه إله وهم يرون من إنسانيته والبعد بينه وبين ما يزعم ما جعلهم مهبيئين - مع ما عندهم من قوة اليقين بالظفر - للإيمان بمعجزة موسى عليه السلام ، وبالإضافة إلى ذلك كانت صورة هذا القسم في مادتها وقوة التعبير فيها دليلاً قوياً ما جاء به موسى عليه السلام .

وقد جاء هذا القسم متمنكاً في سياقه الخاص الذي ورد فيه من سورة الشعرا ، وهو السياق الذي حكت فيه السورة قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وستقف على بعض جهات الربط بين القسم وهذا السياق .

ومن ذلك أنه قد ورد في هذه القصة - قبل القسم الذي ورد فيها - ما يشير إلى عظمة ملك فرعون وقوة سطوطه مقترباً بذكر الغلبة والحديث عنها ، وذلك ما جاء في الآيات المعبّر بها عن المواقف التي سبقت اجتماع الناس يوم الزينة لحضور المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام ، وذلك في قوله تعالى : « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنت مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا إِنَّا لَأَجْرَاءٍ إِن كُنَّا نَعْنَى الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لِمَنْ مُرْتَبِينَ »^(٢) ، « بالبناء للمفعول إشارة إلى

(١) نظم الدرر ٣٠/١٤ ، ٣١ ، ٣٠ . ويرى البقاعي أنه لأجل هذا المعنى جاء قوله تعالى : (وقيل للناس هل أنت مجتمعون) الآية ٣٩ ، ليتحقق الناس هل رجعوا عن دينه لما علم من أمر ظهور المعجزة .

(٢) سورة الشعرا ، الآيات ٣٨ - ٤٢ .

عظمة ملكه فقال : (فجمع) أي بيسر أمر له عندهم من العظمة »^(١) ، ثم قال حكاية عن القائل للناس ذلك : (لعلنا نتبع السحرة) ولم يقل : تتبع فرعون ، « وهذا مرادهم في الحقيقة وعبر بهذا كناية عنه لأنه أدل على عظمة الملك »^(٢) ، وذكروا هنا شرط الاتباع وهو الغلبة للسحرة ، ثم جاء التعبير عن حضور السحرة في قوله : (فلما جاء السحرة ...) « بالفاء إيداناً بسرعة حشرهم ، إشارة إلى ضخامة ملكه ووفر عظمته »^(٣) واقترن ذلك باشتراطهم الأجر إن كانوا هم الغالبين ، ذكروا الغلبة أيضاً منسوبة إليهم .

وعلى هذا فقد مهدت العناصر اللغوية في هذا السياق - بتأكيدها على إظهار عزة فرعون وعظمة ملكه وربط ذلك بالحديث عن الغلبة - مهدت لأن تكون هذه العزة هي المقسم به في القسم الوارد في هذا السياق وأن تكون الغلبة هي المقسم عليه ، وهذا نظم بديع تبدو فيه الآيات السوابق للقسم مهيئاً لعناصره التي سيشتمل عليها .

والقسم يناسب هذا السياق من جهة أخرى وذلك أنه سياق يتم فيه بين السحرة وفرعون التأكيد على أمر الغلبة وقد ناط به فرعون الأجر والتقريب لهم ؛ فانظر إلى قوله : (إن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين) وما فيه من تأكيد حصول الأجر الدال على يقينهم في غلبتهم ؛ لأن هذا قول من تحقق من مقدرته على ذلك فزاد من قوة اشتراطه وطمئنه في زيادة الأجر ، ومن ناحية أخرى فإن في قولهم (إن لنا لأجرا) بأنواع التأكيد دلالة على أنهم قد علموا من حال فرعون - فيما مضى من مواجهته لموسى عليه السلام - قوة رغبته واشتداد حبه للنصر على موسى ، فساقوا له هذا الشرط مؤكداً ليصدقه لهم ؛ ولهذا قال لهم معياراً عن صدق ظنهم الذي ظنوه فيه : (قال نعم وإنكم إذاً من المقربين) ومفصحاً عن قوة تلهفه على ذلك الأمر - بتأكيد

(١) نظم الدرر ٣٠/١٤ .

(٢) المصدر السابق ٣٠/١٤ .

(٣) المصدر السابق ٣٠/١٤ .

كلامه بالتصديق المؤيد لتوكيدهم أولاً في قوله : (نعم) ، ثم بتأكيد ما أملوه من زيادة الأجر وهو قوله : (وإنكم إذاً من المقربين) ، فأكيد بيان و (إذا) واللام .

وما شاع في هذا السياق التأكيد على الغلبة والفوز ظهرت فيه قوة التحدي وقوة المواجهة ولهذا جرى على لسان السحررة - عند إلقاء حبالهم وعصيهم - ذلك القسم المساوق لما ظهر في هذا السياق من قوة الحرص على الغلبة .

ومن ناحية أخرى فإننا لانجد ذكرأً لهذا القسم فيما ورد من تفاصيل القصة نفسها في سورة الأعراف (١) على مابينهما من تماثل : لأن السياق هناك أقل تأكيداً على قوة التحدي والاحتشد للمباراة ، على عكس قصة سورة الشعرا ، ويبدو ذلك من مقارنة العناصر اللغوية الواردة في سياق القصة في سورة الأعراف بما يقابلها في سورة الشعرا ؛ ولنأخذ على سبيل المثال ماجاء في الأعراف من حكاية الحوار بين فرعون والسحررة قبل المباراة وهو يقابل الجزء الذي ذكر قبل قليل ، وذلك قوله تعالى : « وجاء السحررة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم من المقربين » (٢) ، وواضح هنا أن عناصر التأكيد أقل مما جاء في الشعرا فمكان قول السحررة : إن لنا لأجراً ، قالوا : إن لنا لأجراً ، ولم يأت في رد فرعون عليهم قوله : (إذا) كما جاء في الشعرا ، وكذلك الشأن في كثير من عناصر التعبير بما سبق لقاء موسى عليه السلام لفرعون ، فإنه في الشعرا أكثر دلالة على الرغبة في التفوق والغلبة (٣) .

(١) انظر القصة كاملة في الآيات ١٠٣ - ١٢٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١١٣ - ١١٤ .

(٣) أشار الدكتور فاضل السامرائي إلى الفروق التعبيرية فيما ورد من القصة في سورتي الأعراف والشعرا ، و المناسبة ببناء القصة في كل من السورتين للسياق الذي وردت فيه . (انظر تفصيل ذلك في كتابه: التعبير القرآني ، ص ٢٨٩ - ٢٩٨) ، وقد ذكر في هذا الموضع من كتابه أن سياق القصة في الشعرا يتسم بأمرتين هما : التفصيل في الأحداث ، وقوة المواجهة والتحدي ، أما في الأعراف فقد بنيت على الاختصار وليس فيها ما في الشعرا من قوة المواجهة ، وعلى هذين الأمرينبني حديثه عن الفروق التعبيرية في الموضوعين ، انظر ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

فكل هذا يدل على أن سياق القصة في الشعراء أنسب لورود هذا القسم المحكي عن السحرة وأليق لما فيه من إشاعة جو يدل على قوة المواجهة بين الفريقين ، والقسم مناسب لما شاع في هذا السياق من عناصر التوكيد والتحقيق ؛ فهو يعتمد الدلالة العامة التي يثيرها السياق .

والذي ذكرته هنا من صلة قسم السحرة بالسمات الخاصة لسياق القصة في سورة الشعراء يشير إلى قوة اختصاص السورة بالقسم الذي ورد فيها ، وأنه لم يكن من المناسب حكايتها في سورة الأعراف، مع مابين أسلوبي القصة في السورتين من تشابه يبلغ حد الاتحاد في بعض الجمل^(١) .

وما شاع في القصة الواردة هنا في سورة الشعراء من الإشعار بقوة المواجهة بين الفريقين - بما في ذلك القسم الذي ورد في سياقها - يناسب مابنيت عليه سورة الشعراء من الحديث عن قوة إبانة آيات الله تعالى وإعراض المنذرين عنها مع وضوحها وقوة دلالتها على الحق ، وهو ماسبق ذكره في الموضع القسمي الآخر الذي ورد في هذه السورة^(٢) ، فجيء في سياق هذه السورة بقصة موسى مع فرعون في أسلوب يظهر أن اللقاء بينهما أكثر قوة وتحدياً ليكون إثبات المعجزة والآية أقوى وذلك يلائم سورة الشعراء التي تؤكد آياتها بين كل قصة وأخرى على : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَاءَ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»^(٣) .

ومن وجوه علاقة القسم بالسورة أيضاً أنه يأتي في سياق التعبير عن موقف العبدة من معبوداتهم وتنكيرهم لها بعد رؤية الحق ، وهو ياثل موقف المشركين من

(١) تابع القصة في الموضعين : في الآيات ١٠٣ - ١٢٦ من سورة الأعراف ، والآيات ٥١ - ١٠ من سورة الشعراء .

(٢) انظر ما ذكرته من ذلك ص ٣٤٥ من هذا البحث .

(٣) تكررت هذه الآية كثيراً في سورة الشعراء وقد ذكرت وجه هذا التكرار وصلته بالغرض الرئيس في السورة في الموضع المشار إليه هنا .

أصنامهم في نار جهنم ، وقد سبقت الإشارة إلى الصلة الدقيقة بين القسمين (١) .

والحق أن مasicب الكلام عليه في قسم المشركين الذي ورد في سورة الشعراً أيضاً وعلاقته بالسورة يعين يكثيراً في الوقوف على علاقة هذا القسم بموضوع السورة ونسقها العام ، فيكتفي به عن تكراره هنا .

غير أن مما يختص به قسم السحرة علاقته الخاصة بما جاء من تكرار قوله تعالى : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ؛ وذلك أن تكرار هذه الآية - المؤكدة لصفتي العزة والرحمة لله تعالى - في السورة بين كل قصة وأخرى على نحو يلفت المتأمل ؛ يتصل بما أعد إليه السحرة قبل أن يؤمنوا من إضافة هذه الصفة إلى غير مستحقها ، وذهب لهم في تأكيد نسبة هذه الصفة إليه إلى حد جعلهم يقسمون بها بوصفها ذات أثر فاعل مشهور ، فجاء تكرار ذلك في السورة مؤكداً نسبة هذه الصفة إلى الحق سبحانه ؛ ليلفت إلى عظمته وقوته سلطانه ومعجزاته التي جعلت أولئك السحرة - كما هو شأنها دائماً - ينتقلون في سرعة مذهلة إلى الإيمان به سبحانه واستشعار العظمة والعزة من موطنها الحقيقي ، لا كما كانوا يتوهمون أو يوهمنون .

وعلى هذا تتوثق الصلة بين القسم بـ (عزة فرعون) من أولئك السحرة وسياق السورة ، من خلال فكري الآية البينة المعجزة والعزة المطلقة لله ورسله ، وإلى نحو من هذا أشار البحث في علاقة قوله تعالى : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين » (٢) بسياق السورة .

وثمة أمر هام يلفت الانتباه ؛ وذلك أن هذه السورة قد تكرر فيها التأكيد على صفة العزة لله تعالى في قوله تعالى : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ثمان مرات (٣) في سياق عرض قصص الأنبياء السابقين مع أقوالهم ، ثم جاء بعد ذلك قوله

(١) انظر ص من هذا البحث .

(٢) سورة الشعرا ، الآية ٩٧ .

(٣) انظر الآيات : ٩ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٩١ .

سبحانه لرسوله ﷺ : (وتوكل على العزيز الرحيم) ^(١) ، فبلغ بهذه الآية ورود صفة العزة منسوبة إلى الله تعالى في هذه السورة تسعة مرات ، ولم يرد هذا الاسم الكريم في سورة من سور القرآن الكريم أكثر من وروده في هذه السورة ^(٢) ؛ وهذا أعجب العجب ، إذ يأتي القسم بـ (عزة فرعون) الواقع في هذا السياق - في ضوء ما شرح من علاقته بالسورة - في هذه السورة الحافلة بالاعتناء بإظهار أمر هذه الصفة وتأكيدها ، فيظهر من هذا وجه اتصال دقيق بين السياق العام للسورة والقسم الذي أُسند إلى السحرة .

ويفلت البقاعي إلى وجه آخر يوثق صلة القسم بالسورة وذلك أن في زيادة (إذا) في قول فرعون للسحرة : (وإنكم إذاً لم من المقربين) « زيادة في التأكيد لما يتضمن ذلك من إبعاده عن الإيمان مع وضوح البرهان ، تخفيفاً على المخاطب بهذا كله ﷺ تسلية له في الحمل على نفسه ألا يكون من يدعوهم مؤمنين ، وما بعد ذلك من مسارعة السحرة لإنكارهم - بعد ما ذكر من إقسامهم بعذته بغاية التأكيد - تحقيق الآية « فظلت أعناقهم لها خاضعين » ^(٣) ^(٤) أي أن موقف فرعون في عدم إيمانه مع وضوح البرهان له ، وإيمان السحرة السريع في ذلك الموقف بعد قسمهم بعزة فرعون قسماً لا يرجى بعده أن يذعنوا للحق ، كل ذلك فيه تسلية للرسول ﷺ فيما كان يجده من قومه مع وضوح آيات الكتاب المبين ، وعلى هذا يكون الموقف القسمي من

(١) الآية ٢١٧ .

(٢) قمت باستقراء ذلك في المعجم المفهرس لأنفاظ القرآن الكريم ، ص ٤٥٩ - ٤٦١ ؛ ولم أجد ذكر هذا الاسم الكريم في سورة من سور القرآن الكريم أكثر مما في سورة الشعرا .

(٣) يشير إلى قوله تعالى في أول هذه السورة : (طسم . تلك آيات الكتاب المبين . لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) الآيات ١ - ٤ من سورة الشعرا .

(٤) نظم الدرر ١٤ / ٣٢ .

المواقف الفاعلة في تحقيق أغراض السورة ، والتي من أهمها تسليته عليه الصلاة والسلام .

وبعد ؛ فقد وضح من كل ما سبق ما لهذا القسم - على قلة ألفاظه - من دلالات متعددة ، وعلاقات متنوعة مع المقسم عليه والمقسمين والمخاطبين ، والسياق الخاص الذي ورد فيه ، والsurah كلها .

الخانه

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلة والسلام على من ختمت به الرسالات ، وبعد :
فيطيب لي وقد وصل هذا البحث إلى نهايته أن الخص أهم قضيائاه ، ونتائجها ،
وتوصياته .

فمن أهم القضايا التي عرضها البحث قضية تحديد أسلوب القسم في اللغة والقرآن الكريم ، فقد تناولت في الفصل الأول من الدراسة النظرية تحديد مفهوم القسم وعناصره اللغوية ، وتبين من ذلك أن ثمة أساليب متعددة أدخلها النحويون والمفسرون وغيرهم من تحدث في هذه القضية ، أدخلوها ضمن مباحث القسم ، لما لها من صلة معنوية أو تركيبية بالأسلوب القسمي ، كالتوكيد بالأدوات ، والإخبار عن القسم ، والألفاظ الجارية مجرى القسم التي فيها معنى القسم ، وغيرها من الأساليب . والذي انتهيت إليه أن هذه الأساليب ليست من باب القسم ، ولكنها ذات صلة به من جهة معناها أو مبنها . أما صيغ ماعرف بالقسم المقدر : فقد تبين لي - بما في رأي ابن فارس والرضي ، ويتأملني للقرائن التي يقدر القسم من أجلها - مايكاد يقطع بكونها خارجة عن أسلوب القسم ، إلا أن الرأي الغالب عند علمائنا - رحمهم الله - وهو التقدير ، قد جعلني أعدّ وجود القسم في مثل تلك التراكيب احتمالاً لاينبع الاحتمال الآخر وهو عدم وجوده ، ولهذا اكتفيت في هذه الدراسة بتناول مالاختلاف في كونه قسماً ، وهو ماصرّح فيه بعناصر القسم .

وفي الفصل الثاني من الدراسة النظرية تتبع القيم البلاغية في دراسة العلماء وتفسيرهم لآيات القسم ، وانتهيت في ذلك إلى أن جهود العلماء في فهم دلالة الأسلوب وتفسيره من الوجهة البلاغية قد شابها تأثر واضح بالرد على شبّهات وجهت إلى القسم القرآني ، بل إن أكثر حديثهم عن آيات القسم كان عن تلك الشبهات والرد عليها ، غير أنهم - مع انصرافهم إلى هذا - وقفوا في مواضع متعددة على بعض خصائص التعبير في الأسلوب القسمي ، وكان لهم إسهام في ذلك من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، وأكثر ما كان ذلك عند المفسرين؛ لصلتهم المباشرة بتفسير آيات القسم . أما النحويون والبلاغيون فلم يكن لهم - على وجه الإجمال - جهد واضح في سبيل فهم الأسلوب ودلالته في القرآن الكريم ، وفي الوقت الذي شغل فيه النحويون بما يقتضيه النظر النحوي ، أخرج البلاغيون القسم من المباحث المتعلقة

بالبيان ومن ثم لم يكن في المصادر البلاغية ما يغنى الباحث من الناحية النظرية أو التطبيقية . ونستطيع أن نقول إن هذا البحث قد فتح باباً أوصده البلاغيون ، وقدم دليلاً عملياً على أن فكرنا البلاغي قابل للنماء والتتجدد .

أما الدراسات التي أفردت للقسم قديماً وحديثاً فكانت في مجالات أخرى غير البلاغة ، ومع ذلك فلم تخل - في بعض مواضعها - من إشارات ذات قيمة في التفسير البلاغي لأسلوب القسم .

وقد أفاد البحث من هذه الإشارات ونهاها وأضاف إليها حتى استقامت له طريقة واستبان له منهج في دراسة بلاغة القسم القرآني، وتحليل عناصره والكشف عن خصوصياته في سياقاته المختلفة .

وقد وقف البحث في هذا الفصل على القضايا الهامة التي تناولها العلماء من خلال تفسيرهم لآيات القسم ، ومن أهم تلك القضايا : لم أقسم الله تعالى ؟ وما سر القسم بالمخلوقات ؟ ثم البحث عن دلالة النفي قبل القسم في بعض مواضع القسم القرآني مثل : « فلا وربك » و « لا أقسم » .

والنتيجة الهامة العامة التي وصلت إليها هذه الدراسة هي الوقوف على كيفية التوكيد في أسلوب القسم ، فقد اتضح أنه أسلوب ينفرد بنسق خاص من التوكيد يقوم على علاقة وثيقة بين طرفي القسم ((المقسم به والمقسم عليه)) ، وما يكون بين عناصرهما من ارتباط واتصال من جهات متنوعة تختلف باختلاف هذه العناصر ، وبخاصة العنصر الأهم الذي يعدّ المؤكد في هذا الأسلوب وهو « المقسم به » ، إذ تختلف باختلافه جهات التوكيد القسمي ، فترتبط في بعض الموضع بالعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه وفي بعضها بالصلة بين المقسم وما يقسم به ، وفي موضع آخر بالعلاقة بين المقسم والمقسم له ، أو المقسم والمقام الذي يقسم فيه .

وقد كانت الدراسة التطبيقية في الأبواب : الثاني والثالث والرابع ، متتبعة للعناصر المؤكدة في أسلوب القسم في الموضع التي اشتغلت عليها فصول هذه

الأبواب ، وعنيت بتوكيد البحث عن العلاقة والتناسب بين المقسم به والمقسم عليه ، والربط بينهما ربطاً يتوصل من خلاله إلى خصوصيات اختيار المقسم به وصورته التي جاء عليها ، وعلاقة ذلك بالموقع الخاص للقسم ، وبالقسم له ، وبالمقام ، والسياق الخاص والعام في السورة التي ورد فيها القسم .

وقد وصلت الدراسة من ذلك إلى أن لكل عنصر من العناصر المقسم بها مقاماً خاصاً في النص القرآني كله ، وأن القسم بكل نوع من الأنواع المقسم بها ذو صلة مطرودة بهذا المقام ، فالقسم باسم الرب مثلاً قد ارتبط بمقام الحديث عن الإيمان والكفر ، وعن خصائص الريوبية ومقتضياتها من تأكيد البحث وغيره ، وما إلى ذلك مما له علاقة بمعاني هذا الاسم الكريم ، على حين ارتبط القسم باسم الجلالة بمقام الحديث عن قضايا الألوهية وما يتصل بها من العبادة وغيرها ، أو الحديث عن الوحدانية وإثباتها .

ثم توخت الدراسة أبعد من ذلك ، وهو البحث عن علاقة الصورة الخاصة التي يرد عليها المقسم به في كل نوع من الأنواع المقسم بها ، البحث عن علاقتها بالوضع الذي وردت فيه ، وبالقسم عليه ، وبالمحاطب بالقسم ، وبمقام القسم ، وسياقه ، وموضوعه ، وسياق السورة التي جاء فيها القسم ؛ فانتهت من ذلك إلى أن لكل صورة من هذه الصور علاقة وثيقة بموضوعها الخاص ، فللقسم باسم الرب مثلاً في صورة إضافته إلى ضمير المحاطب : (وربك) موضع ليست له في صورة القسم بلفظ (وربى) أو (وربنا) ؛ فال الأولى ترد في موقع التسلية والتأييد مع تأكيد الخبر المساق ، والثانية ذات صلة بمقارنة الخصوم وصرفهم عن الحاجة مع تحقيق المقسم عليه من طريق رسوخ ثقة المحاطب في المقسم الذي يخاطبه ، والثالثة ترد في مقام الاسترحام والتضرع . وكذلك ما أضيف اسم الرب فيه إلى اسم شيء من المخلوقات فإن له دلالة خاصة ، إذ لم يأت إلا في خطاب الخلق كافة ، شأنه في ذلك شأن القسم بالمخلوقات .

وانتهت الدراسة في هذا الجانب أيضاً إلى أن للقسم باسم الحالات في صورته التي ورد عليها وجه اختصاص بالموضع التي ورد فيها على تلك الصورة ، فقد جاء في موضع واحد مع الواو : (والله) وجاء في الموضع الباقي مع التاء : (تالله) وكانت هذه الصورة المقترنة بالباء ذات صلة بمعنى التعجب مع القسم ، ذات ارتباط وثيق بال موقف النفسي للقسم الذي يصدر منه القسم ، أو موقف نفسي يطلب من المخاطب أن يلتفت إليه ويشعر به ، فهي ذات صلة بالسياقات المشتملة على بعض الانفعالات المتعلقة بالمتكلم أو المخاطب أو المقام أو السياق . أما القسم بأسماء المخلوقات فقد جاء في الموضع التي ورد فيها متناسباً مع القسم عليه ، واتسقت الصورة المختارة فيه للقسم به مع الموقع الخاص للقسم ، ومع سياقه العام ، وظهر أن العلاقة بين القسم به والقسم عليه تقوم على التمثيل والتبيه . كما ظهر أن النظر إلى الفاظ القسم به أقرب إلى فهم دلالة الأسلوب من النظر إلى شخص الأشياء التي دلت عليها هذه الألفاظ .

وقد لفت البحث إلى ظاهرة هامة في أسلوب القسم في القرآن الكريم وهي اتصال مواضعها بعضها ، وارتباطها فيما بينها في المضمون والصياغة على تباعد مواقعها في النص القرآني ، وهذا يدفع إلى القول : إن للقسم القرآني سياقاً عاماً متصلةً في القرآن الكريم ، وقد حاولت هذه الدراسة الإشارة إلى ملامح هذا السياق ودلائل وجوده .

ومن النتائج الهامة التي وصل إليها البحث الوقوف على الخصائص الأسلوبية للتوكيد القسمي في القرآن الكريم ، ومنها :

- ١ - التكرار : فإن الحقيقة المؤكدة بهذا الأسلوب تذكر مرتين ، مرة بأسلوب التعريض في الجملة المقسم بها ، ومرة بالتصريح المؤكد في المقسم عليه .
- ٢ - التمثيل والتصوير : وهو ما يزيد تأكيد الحقائق المقسم عليه ، فكثيراً ما كان المقسم به صورة تمثيلية أو تشبيهية للمقسم عليه أو لأمور ذات صلة بالمقسم عليه ، ومعلوم أن التمثيل مما يرسخ المعنى، بما فيه من إخراج مالا يدرك بالحسنة إلى ما يدرك بها .
- ٣ - اللفت والتبيه : وذلك أن القسم يلفت المخاطب إلى أهمية الكلام المساقي و يجعله أكثر إقبالاً عليه .

٤ - مؤكّدات الجواب : فقد ثبت أن جواب القسم لا يكاد يخلو من عناصر لغوية مؤكّدة ، وتکاد تطرد هذه الظاهرة في جميع مواضع القسم في القرآن الكريم ، ولعل ذلك إنما كان كذلك لأن المراد من التركيب القسمي تأكيد المقسم عليه بالقسم به، فجاء المقسم عليه على الصورة التي يراد له أن يكون عليها ، وكأن ذلك يشير إلى أنه قد أصبح بما قرن معه من الصورة المقسم بها في غاية التأكيد ، وأن هذا المقسم به مؤكّد له لامحالة ، وهو أسلوب يعتمد طريق الإيماء ، وفيه من البلاغة ما فيه .

٥ - جميع الخصائص السابقة مضادة للدلالة اللغوية للقسم وهي التوكيد ، ولهذا فإن هذا الأسلوب - فيما ثبت عندي - أقوى أساليب التوكيد على الإطلاق .

٦ - يقوم التوكيد القسمي على نوع العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، فالقسم به يذكر لما فيه من خصوصيات تعين على تحقيق المقسم عليه ، ويتعدد النظر في هذا الجانب بتعدد العلاقات ، التي تتعدد هي أيضاً بتتنوع المقسم به والمقسم عليه ، وعلى هذا ففي كل موضع من مواضع القسم وجوه من التوكيد ذات صلة بعناصره المقسم بها والمقسم عليها .

٧ - جاء القسم في القرآن الكريم مؤكّداً للمقسم عليه في كثير من مواضعه ، بل إن هذا الغرض لا يكاد يتخلّف في كل موضع ، ولكنه قد يصبح في بعض الموضع بمعانٍ أخرى سياقية ، فقد يراد به التسلية ، أو الاحتفاء والاهتمام بالقضية المقسم عليها ، أو الاهتمام بالمخاطب ، أو لفته وتنبيهه ، أو التعبير عن معانٍ نفسية وانفعالية ، كالتحسر ، والغضب ، والفرح ... الخ ، ولا يوصف الأسلوب المعتبر عن هذه المعاني بالخروج عن غرضه الأصلي وهو التوكيد ، لأن هذه المعاني تتعدد وتتنوع بتعدد السياقات وتنوعها ، وهي مما لا يمكن حصره .

وبعد ، فهذا ما أungan الله عليه من دراسة أسلوب القسم في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية ، أسأل الله العلي القدير أن ينفع بها و يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، والحمد لله رب العالمين .

ملحق البحث

**جدول إحصائي لمواقع القسم في القرآن الكريم
ومواقعها في أهم كتب معانوي القرآن وإعرابه
وتفسيره**

(ملحق البحث)

**جدول إحصائي لموضع القسم في القرآن الكريم
ومواقعها في أهم كتب معاني القرآن الكريم وإعرابه وتفسيره**

تعريف بالملحق ودرازي إلخاقه :

في هذا الملحق إحصاء - أحسبه دقيقا - لجميع الموضع التي ورد القسم فيها في القرآن الكريم ، وقد رتبت هذه الموضع حسب ترتيبها في المصحف ، ورقمتها وفق هذا الترتيب أيضا ، وهي ثلاثة وخمسون موضعا . ووضعت أمام رقم الموضع اسم السورة التي ورد فيها ، ورقم الآية أو الآيات التي تشير إلى بداية موضع القسم . وأمام كل رقم من أرقام الموضع القسمية أنهراً يمثل كل منها مصدراً من مصادر معاني القرآن وإعرابه أو تفسيره ، وقد أثبتت في كل نهر رقم الجزء والصفحة التي تحدث فيها المؤلف عن القسم ، أو التي كان يفترض أن يتحدث فيها عنه ، لأن الباحث قد يحتاج إلى ما قبل القسم وما بعده لدراسة صلته بالسياق ، وقد اعتمدت في ذلك على الطبعات نفسها التي أثبتتها في قائمة المصادر العامة لهذا البحث .

ويمكن بوساطة هذا الجدول الإحصائي الوقوف على موضع القسم القرآني بوجه عام ومواقعها في النص القرآني ، فهو يتبع رؤية شاملة لهذه الموضع . ويمكن كذلك الوقوف من خلاله على كلام العلماء عن أي موضع يريد إذ يمكنه أن يراجعه في نحو ثلاثين مصدراً من أهم مصادر معاني القرآن وإعرابه وتفسيره .

وقد دفعني إلى عمل هذا الملحق وإلخاقه بالبحث ما يلي :

١ - حاجة الباحث إلى الرجوع إلى هذه الموضع ، مع أهم مصادرها ، فتقديم الجزء الأعظم من مادة كل موضع لمزيدتها في شكل منظم وموثق ، ييسر عليه الاستزادة من المصادر ، ويشجع على مواصلة البحث في هذا الموضوع لمن أراد أن

يردَّه بعد هذا البحث .

٢ - كان من الصعوبات التي واجهت هذا البحث عسر الرجوع إلى أكثر مصادر التفسير ؛ لرداة طباعتها وإخراجها ، وعدم فهرستها فهرسة واضحة ، إذ يحتاج الباحث إلى وقت ليس باليسير في سبيل العثور على موقع الآية من أحد كتب التفسير التي لم تعنون سور القرآن فيها ولم ترقم آياتها .

٣ - تمكين الباحث أو القارئ المستزيد من متابعة موقع الأسلوب في تلك المصادر ، فقد يجد مالم نجد ، أو ينبه إلى خطأ ، أو يؤيد صواباً ، أو يوازن بين ما يجده في تلك المصادر مما يعين على إثراء هذا الموضوع وتحقيق الفائدة المرجوة من بحثه .

| الرقم ومني ترتيب المصحف | السمة الإيجية | رقم الملحق | بيانى القرآن والزبور للمصحف |
|----------------------------------|------------------|---------------|--------------------------------------|--------------------------------------|--------------------------------------|--------------------------------------|--------------------------------------|--------------------------------------|--------------------------------------|
| ٢٨ | الدبرات | ٧ | ٣٣٥/٢ | ٨٧٣ | ٣٣٥/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٦/٢ | ٣٣٦/٢ | ٣٣٦/٢ |
| ٢٩ | الدبرات | ٣ | ٣٣٣/٢ | ٣٣٧/٢ | ٣٣٣/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٧/٢ | ٣٣٧/٢ | ٣٣٧/٢ |
| ٣٠ | البلد | ١ | ٥٣/٥ | ٣٣٧/٢ | ٥٣/٥ | ٤٨٦/٢ | ٥٣/٥ | ٥٣/٥ | ٥٣/٥ |
| ٣١ | النهر | ١ | ٥٣/٥ | ٣٣٧/٢ | ٥٣/٥ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٧/٢ | ٣٣٧/٢ | ٣٣٧/٢ |
| ٣٢ | الراحلة | ٧٠ | ٣٣٧/٢ | ٣٣٥/٢ | ٣٣٧/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٦/٢ | ٣٣٦/٢ | ٣٣٦/٢ |
| ٣٣ | السنان | ٧ | ٣٣٧/٢ | ٣٣٥/٢ | ٣٣٧/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٦/٢ | ٣٣٦/٢ | ٣٣٦/٢ |
| ٣٤ | السلم | ١ | ٣٣٦/٢ | ٣٣٥/٢ | ٣٣٦/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٥/٢ | ٣٣٥/٢ | ٣٣٥/٢ |
| ٣٥ | العاد | ٣٨ | ٣٣٥/٢ | ٣٣٤/٢ | ٣٣٥/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٤/٢ | ٣٣٤/٢ | ٣٣٤/٢ |
| ٣٦ | الساج | ٦ | ٣٣٤/٢ | ٣٣٣/٢ | ٣٣٤/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٣/٢ | ٣٣٣/٢ | ٣٣٣/٢ |
| ٣٧ | الذر | ٣٣ | ٣٣٣/٢ | ٣٣٢/٢ | ٣٣٣/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٢/٢ | ٣٣٢/٢ | ٣٣٢/٢ |
| ٣٨ | البلدة | ١ | ٣٣٢/٢ | ٣٣١/٢ | ٣٣٢/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣١/٢ | ٣٣١/٢ | ٣٣١/٢ |
| ٣٩ | الرسلات | ١ | ٣٣١/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣١/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٠ | الذاريات | ٦ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤١ | العجمان | ١٦ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٢ | المرج | ٤٣ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٣ | الطلاق | ٦ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٤ | البلد | ٤٣ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٥ | العنبر | ٦٤ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٦ | البلد | ٤٣ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٧ | النفس | ٥٠ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٨ | العنبر | ٥١ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٤٩ | العنبر | ٦١ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٥٠ | العنبر | ٦٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٥١ | العنبر | ٦٣ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٥٢ | العاديات | ٥٠ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |
| ٥٣ | النصر | ١ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٤٨٦/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ | ٣٣٠/٢ |

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المطبوعات :

- * الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطى . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م .
- * أحكام القرآن ، لابن العربي . تحقيق : علي محمد البحاوى . بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .
- * ارتشاف الضرب من لسان العرب ، لأبي حيان الأندلسى ، تحقيق : مصطفى النماض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ .
- * أساس البلاغة ، للزمخشري ، تحقيق : عبد الرحيم محمود . بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٣٩٩ هـ .
- * أساليب القسم في اللغة العربية ، لكاظام فتحي الراوى . بغداد - الجامعة المستنصرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ .
- * أسباب النزول ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدى النيسابورى . تحقيق : السيد أحمد صقر . دار القبلة الإسلامية - جدة ، ومؤسسة علوم القرآن بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ هـ .
- * أسرار البلاغة في علم البيان ، للإمام عبد القاهر الجرجاني . تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا . بيروت ، دار المعرفة - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- * الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام دمشق - مطبع دار الفكر ، الناشر : المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، بدون تاريخ .

- * الأصول في النحو ، لابن السراج ، تحقيق الدكتور عبد المحسن الفتلي . بيروت - مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى - ١٤٠٥ هـ .
- * أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، للشنقطي . الطبعة الثانية - ١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م .
- * الإعجاز البصري للقرآن ومسائل ابن الأزرق - للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، القاهرة - دار المعارف ، بدون تاريخ .
- * إعجاز القرآن ، للباقلاني . تحقيق : السيد أحمد صقر . دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ .
- * إعجاز القرآن البصري ، د. حفيظ شرف .
- * إعجاز القرآن (في دراسة كاشفة خصائص البلاغة العربية ومعاييرها) ، لعبد الكريم الخطيب . بيروت - دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ - ١٣٩٥ هـ .
- * إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي . دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- * إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه . بيروت ، مؤسسة الإيمان .
(نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) بدون تاريخ .
- * إعراب القرآن ، لأبي جعفر النحاس ، تحقيق : زهير غازي زاهد . عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .
- * إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ، تحقيق إبراهيم الأبياري . دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري بالقاهرة ، ودار الكتاب اللبناني بيروت ، الطبعة الثانية - ١٤٠٢ هـ .

- * أمالی السهیلی فی النحو واللغة والحدیث والفقہ . تحقیق : الدکتور محمد إبراهیم البنا ، القاهرۃ - مطبعة السعادۃ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ .
- * الأمالی الشجریة ، لابن الشجیری . لبنان - دار المعرفة للطباعة والنشر ، بدون تاریخ .
- * إمعان فی أقسام القرآن ، للفراهی . القاهرۃ - المطبعة السلفیة ومکتبتها ، ١٣٤٩ هـ . وطبعه آخری (١٤٠٠ هـ) عن دار القرآن الکریم بالکویت بعنوان (رسالة الإمعان فی أقسام القرآن) .
- * الإنصال فی مسائل الخلاف بین النحويین البصريین والکوفيين ، لكمال الدین أبي البرکات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعید الأنباري ، (نسخة مصورة عن طبعة المکتبة التجارية بمصر) ، بدون تاریخ .
- * الإنصال فیما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنیر (بهامش الكشاف للزمخشري) . بيروت - دار الفکر ، الطبعة الأولى - ١٣٩٧ هـ .
- * الإيضاح العضدي ، لأبی علی الفارسي . تحقیق : الدکتور حسن شاذلي فرهود ، القاهرۃ - دار التأليف ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩ هـ .
- * الإيضاح فی شرح المفصل ، لابن الحاجب ، تحقیق موسی بنای العلیلی - مطبعة العانی - بغداد - بدون تاریخ .
- * الإيضاح فی علوم البلاغة ، للتزوینی . شرح وتعليق : الدکتور محمد عبد المنعم خفاجی ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- * أیان العرب فی الجاهلیة ، للنجیرمی . حققه وعلق حواشیه : محب الدين الخطیب ، المطبعة السلفیة ، الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ .

- * البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ .
- * بداع الفوائد ، لابن القيم . بيروت ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ .
- * بدیع القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري . تحقيق : الدكتور حفني محمد شرف ، القاهرة - دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- * البرهان في توجيه متشابه القرآن ، للكرماني . تحقيق عبد القادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .
- * البرهان في علوم القرآن ، للزركشي . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية - بدون تاريخ .
- * البسيط في شرح جمل الزجاجي ، لابن أبي الربيع ، تحقيق : الدكتور عياد الثبتي ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ .
- * بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي . تحقيق الأستاذ محمد علي النجار . بيروت - المكتبة العلمية ، بدون تاريخ .
- * البيان في غريب إعراب القرآن ، لأبي البركات بن الأنباري . تحقيق : الدكتور طه عبد الحميد طه ومراجعة مصطفى السقا ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٤٠٠ هـ .
- * تاج العروس من جواهر القاموس ، للزيدي ، المطبعة الخيرية ببصر ، الطبعة الأولى ١٣٠٦ هـ .
- * تأملات في سورة يس ، للدكتور حسن محمد باجودة ، القاهرة - دار الاعتصام ، ١٣٩٤ هـ .

- * تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر . المدينة المنورة - المكتبة العلمية ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠١ هـ .
- * التبصرة والتذكرة ، للصيمرى ، تحقيق : الدكتور فتحى مصطفى على الدين . مكة المكرمة - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ .
- * التبيان في إعراب القرآن ، لأبي البقاء العكبرى . تحقيق : علي محمد البحاوى . القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ .
- * التبيان في أقسام القرآن ، لابن قيم الجوزية . بيروت - دار الكتب العلمية ، ١٩٨٢ م .
- * تحرير التحبير في صناعة الشعر والنشر وبيان إعجاز القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري . تحقيق : الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٣٨٣ هـ .
- * التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، تونس - الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م .
- * التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جزي الكلبى . دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ هـ .
- * تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، لابن مالك . تحقيق : الدكتور كامل برکات . بيروت - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٧ هـ .
- * التعبير القرآني ، للدكتور فاضل صالح السامرائي . بغداد - جامعة بغداد ، بدون تاريخ .

- * تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ،
لأبي السعود العمادي . بيروت - دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .
- * تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) ، للبغوي . تحقيق : خالد عبد الرحمن
العك وموان سوار . بيروت - دار المعرفة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ .
- * التفسير البياني للقرآن الكريم ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) .
القاهرة - دار المعارف ، الطبعة السادسة ، بدون تاريخ .
- * تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، للإمام البيضاوي . بيروت
- دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ .
- * تفسير جزء تبارك ، للشيخ عبد القادر المغربي . تصحيح وتعليق علي محمد
حسب الله . القاهرة - المطبعة الأميرية ، ١٣٦٨ هـ .
- * تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) ، لعلاء الدين الخازن :
(ضمن مجمع التفاسير ، دار الدعوة - استانبول ، الطبعة الثانية ،
١٩٨٤ م) .
- * تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، لابن جرير الطبرى : حققه
وعلق على حواشيه محمود محمد شاكر . وراجعه أحمد محمد شاكر ، القاهرة
- دار المعارف ، بدون تاريخ .
وطبعة أخرى بيروت - دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ .
- * تفسير القاسمي (محسن التأويل) ، لمحمد جمال الدين القاسمي . تحقيق :
محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت - دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- * تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير . بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر ،
١٣٨٨ هـ .

* التفسير القرآني للقرآن ، للأستاذ عبد الكريم الخطيب . القاهرة - دار الفكر ، ١٣٩٠ هـ .

* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، للقرطبي . القاهرة - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، (مصورة عن دار الكتب) ١٣٨٧ هـ .

* التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازى . بيروت - دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ .

* تفسير النسفي (ضمن مجمع التفاسير ، دار الدعوة - استانبول ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م) .

* التلخيص في علوم البلاغة ، للقزويني . ضبطه وشرحه : عبد الرحمن البرقوقى ، بيروت - دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ .

* تنزيه القرآن عن المطاعن ، للقاضي عبد الجبار ، الشركة الشرقية ودار النهضة الحديثة - بيروت ، بدون تاريخ .

* تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، للفيروز آبادي . (ضمن مجمع التفاسير ، دار الدعوة - استانبول ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م) .

* تهذيب اللغة ، للأزهرى . تحقيق : عبد السلام هارون ، الهيئة العامة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

* التوطئة ، لأبي علي الشلوبيين . تحقيق : يوسف أحمد المطوع ، دار التراث العربي - القاهرة .

* الجمل في النحو ، لأبي القاسم الزجاجي . تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد . بيروت - مؤسسة الرسالة ودار الأمل ، الطبعة الأولى - ١٤٠٥ هـ .

- * الجمل في النحو ، للخليل أحمد الفراهيدي . تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة .
بيروت - مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .
- * الجنى الداني في حروف المعاني ، للمرادي ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة
والأستاذ محمد نديم فاضل ، بيروت - دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثانية ،
١٤٠٣ هـ .
- * حاشية السيلكوتى على المطول ، طبعة الحاج محرم أفندي في إسطانبول -
١٣٠١ هـ .
- * الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر المحاظ . تحقيق وشرح : عبد السلام
هارون . بيروت - دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .
- * خزانة الأدب وغاية الأرب ، لأبن حجة الحموي . شرح عصام شعيبتو . بيروت
- دار الهلال ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .
- * خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق
وشرح : عبد السلام محمد هارون ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
١٩٧٩ م .
- * الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني . تحقيق : الأستاذ محمد علي النجار .
بيروت - دار الكتاب العربي (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) ،
 بدون تاريخ .
- * دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة . القاهرة -
مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ .
- * درة التنزيل وغرة التأويل ، للخطيب الإسکافي . برواية ابن أبي الفرج
الأردستاني . دار الآفاق الجديدة - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ م .

- * دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، للشنقطي . (ملحق بكتابه أضواء البيان - الجزء التاسع) . الطبعة الثانية ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- * دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني . قرأه وعلق عليه الشيخ محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- * ديوان أبي قحافة بشرح الخطيب التبريزى ، تحقيق : محمد عبد عزام ، القاهرة - دار المعارف ، ١٩٦٤ م .
- * ديوان امرىء القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف - الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ .
- * ديوان زهير ، الدار القومية - القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤ هـ .
- * ديوان الشماخ ، تحقيق صلاح الدين الهادى ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- * الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية ، لعباس بن علي الصناعي . تحقيق : عبد المجيد الشرفي . ليبيا ، ١٣٩٦ هـ .
- * رصف المباني في شرح حروف المعاني ، للمالقي . تحقيق أحمد محمد الخراط - دمشق - دار القلم ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ .
- * روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لمحمود الألوسي . دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- * زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي - بيروت - المكتب الإسلامي - الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤ هـ .
- * السبعة في القراءات ، لابن مجاهد . تحقيق الدكتور شوقي ضيف . القاهرة - دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠ هـ .

- * السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، للخطيب الشريبي ، بولاق ، ١٢٨٥ هـ .
- * سر صناعة الإعراب ، لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : حسن هنداوي . دمشق - دار القلم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .
- * سنن ابن ماجه . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢ م .
- * سنن أبي داود ، لسليمان السجستاني . مراجعة : محمد محى الدين عبد الحميد ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .
- * سنن الدارمي . مطبعة الاعتدال ، دمشق ، ١٣٤٩ هـ .
- * شرح جمل الزجاجي ، لابن عصفور الإشبيلي ، تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح ، بغداد - وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، ١٤٠٠ هـ .
- * شرح السعد المسمى (مختصر المعاني في علوم البلاغة) . تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- * شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ، للسيوطى . القاهرة - مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٥٨ هـ .
- * شرح الكافية الشافية ، لابن مالك - تحقيق : الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي . مكة المكرمة - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى . الطبعة الأولى - بدون تاريخ .

- * شرح كلا ويلى ونعم ، لمكي بن أبي طالب ، تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحت .
دمشق . دار المأمون للتراث ، الطبعة الأولى - ١٤٠٤ هـ .
- * شرح المفصل ، لابن يعيش . القاهرة - مكتبة المثنى وبيروت - عالم الكتب ،
بدون تاريخ .
- * شروح التلخيص :
- مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح .
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي .
- وعروض الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي .
- وكتاب الإيضاح على تلخيص المفتاح للقزويني .
- وحاشية الدسوقي على شرح السعد .
- القاهرة - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، بدون تاريخ .
- * شعر زهير بن أبي سلمى . صنعة الأعلم الشنتمري . تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوة . بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- * الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس . تحقيق : أحمد صقر ، القاهرة - مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧ م .
- * صبح الأعشى ، للقلقشندى . القاهرة - المطبعة الأميرية ، ١٣١٩ هـ .
- * الصلاح ، تاج اللغة وصحاح العربية . لإسماعيل بن حماد الجوهري . تحقيق :
أحمد عبد الغفور عطار . الطبعة الثانية - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

- * صحيح البخاري (الجامع الصحيح) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري .
شرح وتصحيح وتحقيق : محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ومكتبتها ،
الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ .
- * صحيح الترمذى ، شرح الإمام ابن العربي . دار الكتاب العربي - بيروت ،
الطبعة الأولى ، ١٩٣١ م .
- * صحيح مسلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية بالأزهر . الطبعة الأولى ،
١٣٤٧ هـ - ١٩١٩ م .
- * الطراز ، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، للعلوي . بيروت -
دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .
- * علوم القرآن (مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه) للدكتور عدنان محمد
زرزور . بيروت ، المكتب الإسلامي - الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ .
- * العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده ، لابن رشيق . الطبعة الرابعة ، دار
الجبل - بيروت ، ١٩٧٢ م .
- * غرائب القرآن وعجائب الفرقان . للنيسابوري . (بهامش تفسير الطبرى ،
بيروت - دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ) .
- * فتح الباري (شرح صحيح البخاري) ، لابن حجر . مكتبة ومطبعة مصطفى
البابى الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .
- * فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدرایة من علم التفسير ، للشوکانى .
بيروت - دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .
- * فوائد في مشكل القرآن ، لعز الدين بن عبد السلام . حققه : سيد الندوى ،
جدة - دار الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ .

- * الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، لابن القيم ، بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .
- * في ظلال القرآن ،سيد قطب . دار الشروق - بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٣٩٩هـ .
- * قانون البلاغة في نقد النثر والشعر ، لابن حيدر البغدادي . تحقيق : الدكتور محسن غياض عجیل ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- * الكافية في النحو ، لابن الحاجب ، بشرح رضي الدين الاسترابادي . بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .
- * كتاب سيبويه ، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر . تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧م .
- * الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقوال في وجوه التأويل ، لحمدود بن عمر الزمخشري . بيروت - دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧هـ .
- * اللامات ، لأبي الحسن الهروي . تحقيق : يحيى علوان البلاوي . الكويت - مكتبة الفلاح ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ .
- * اللامات ، لأبي القاسم الزجاجي . تحقيق : الدكتور مازن المبارك . دمشق - دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ .
- * لباب النقول في أسباب النزول ، لجلال الدين السيوطي . بيروت - دار إحياء العلوم ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ .
- * لسان العرب ، لابن منظور ، القاهرة - دار المعارف ، بدون تاريخ .

- * لغات القرآن ، برواية ابن حسنون المسندة إلى ابن عباس . تحقيق : صلاح الدين النجاش ، دار الكتاب الجديد - بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
- * مجاز القرآن ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، عارضه بأصوله وعلق عليه الدكتور فؤاد سزكين . بيروت - مؤسسة الرسالة ، بدون تاريخ .
- * مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمعه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجاشي الحنبلي وابنه محمد . (الجزء الثالث عشر) ، مصورة الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ .
- * المحتبب في تبيان وجوه شواد القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني . تحقيق: على النجاشي ناصف وأخران ، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٣٨٦ هـ .
- * المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية . تحقيق الرحالي الفاروق وأخرون . مؤسسة دار العلوم ، الدوحة ، قطر - الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٧ م .
- * مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، لسعد الدين التفتازاني . القاهرة - مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ هـ .
- * المخصص ، لابن سيده . بيروت - المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بدون تاريخ .
- * المسائل البصريات ، لأبي علي الفارسي . تحقيق ودراسة الدكتور محمد الشاطر - احمد محمد احمد . القاهرة - مطبعة المدنى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

* المسائل العسكرية ، لأبي علي الفارسي . تحقيق ودراسة : الدكتور محمد الشاطر احمد محمد احمد . القاهرة ، مطبعة المدنى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م .

* المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات ، لأبي علي الفارسي . دراسة وتحقيق صلاح الدين عبد الله السنكاوى - بغداد ، وزارة الأوقاف والشئون الدينية ، إحياء التراث الاسلامي ، بدون تاريخ .

* المساعد على تسهيل الفوائد ، لابن عقيل . تحقيق الدكتور محمد كامل بركات . مكة المكرمة - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى .

* مشاهد القيامة في القرآن ، لسيد قطب . بيروت - دار الشرق ، بدون تاريخ .

* مشكل إعراب القرآن ، لمكي بن أبي طالب القيسي . تحقيق : ياسين محمد السواس . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

* المصباح في المعاني والبيان والبدع ، لبدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم ، حققه وشرحه ووضع فهارسه : الدكتور حسني عبد الجليل يوسف . مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

* المطول على التلخيص ، للفتا扎اني ، مطبعة أحمد كامل - سلطان بايزيدده جادر جيلر قبوسي ، ١٣٣٠ هـ .

* معاني الحروف ، للرماني . تحقيق : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، جدة - دار الشرق - الطبعة الثانية ، ١٤٠١ هـ .

- * معاني القرآن ، لأبي زكريا الفراء . تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ، والدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي . القاهرة - الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ١٩٨٠ م .
- * معاني القرآن ، للأخفش الأوسط . تحقيق الدكتور فائز فارس ، الطبعة الثانية . ١٤٠١ هـ .
- * معاني القرآن وإعرابه ، لأبي إسحاق الزجاج . تحقيق : الدكتور عبد الجليل عبده شلبي . عالم الكتب - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ .
- * معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للعباسي . حققه وعلق عليه : محمد محى الدين عبد الحميد ، عالم الكتب - بيروت .
- * معرك الأقران في إعجاز القرآن ، للسيوطى . تحقيق علي محمد البحاوي ، القاهرة - دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .
- * معجزات قلب القرآن (سورة يس) ، لهاشم دفتردار المدنى . جدة - دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢ - ١٤٠٣ = ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م .
- * المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١ هـ .
- * معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون . القاهرة - شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطبعة الثانية ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- * مغني اللبيب عن كتب الأعارة ، لجمال الدين بن هشام الأنصاري . تحقيق : الدكتور مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، مراجعة : سعيد الأفغاني ، دار الفكر - الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

- * مفتاح العلوم ، للسكاكى . ضبطه وشرحه : الاستاذ نعيم زرزور . بيروت - دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- * المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصبغاني . أعده للنشر الدكتور محمد أحمد خلف الله . القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ .
- * المفصل في علم العربية ، للزمخشري . بيروت - دار الجليل ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .
- * المقتصب ، لأبي العباس المبرد ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة . بيروت - عالم الكتب ، بدون تاريخ .
- * المقتصد في شرح الإيضاح ، لعبد القاهر الجرجاني . تحقيق : الدكتور كاظم بحر المرجان . بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٢ م .
- * المقرب ، لابن عصفر . تحقيق : عبد الستار الجواري وعبد الله الجبورى ، بغداد - مطبعة العانى ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ هـ .
- * النبأ العظيم ، نظرة جديدة في القرآن ، للدكتور محمد عبد الله دراز . الكويت - دار القلم - الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- * النشر في القراءات العشر ، لابن الجوزي . أشرف على تصحيحه ومراجعته الشيخ علي محمد الضباع . بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .
- * نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للبقاعي - الهند - حيدرآباد الدكن . دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة الأولى .
- * نقد الشعر ، لقديمة بن جعفر . تحقيق وتعليق : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت - دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

* نكت الإعراب في غريب الإعراب في القرآن الكريم ، للزمخشري . تقديم وتحقيق : الدكتور محمد أبو الفتوح شريف ، القاهرة ، دار المعارف ، بدون تاريخ .

* النكت في إعجاز القرآن ، للرماني (ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن . تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام . القاهرة - دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧ هـ) .

* نهاية الإعجاز في دراية الإعجاز ، للإمام الفخر الرازى . تحقيق : الدكتور بكري شيخ امين ، بيروت - دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م .

* همع الهوامع في جمع الجوامع ، للسيوطى . تحقيق : عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم . الكويت - دار البحوث العلمية ، ١٣٩٥ هـ .

* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ، للدكتور حسن محمد باجودة . القاهرة - دار الكتب المحدثة ، بدون تاريخ .

* اليمين والآثار المترتبة عليه ، لأبي اليقظان الجبورى ، بيروت - دار الندوة الجديدة ، الطبعة الثانية ، ٦٤٠ هـ .

ثانياً: الرسائل العلمية :

* أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم ، لأحمد بن عبد العزيز اللهيب . (رسالة دكتوراه ، بكلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ) .

* القسم في القرآن الكريم ، خالد سيف الله سيفي . (رسالة ماجستير ، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٣ هـ) .

* * *

ثالثاً : الدوريات :

* صحيفة دار العلوم ، المجلد ٤٩ ، بحث بعنوان : (القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم) للأستاذ عثمان أبو النصر .

* مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤٨ ، الجزء الرابع (كتاب اللامات لابن فارس) . ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

* مجلة المنهل ، العدد ٤٨٨ ، ذو الحجة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، مقال بعنوان : (القسم بين القرآن والسنة) للدكتور إبراهيم عوض .



فهرس محتويات البحث

فهرس محتويات البحث

| الصفحة | الموضع | وع |
|--|--|------------------|
| | | إهداء .. |
| | | شكر وتقدير |
| * المقدمة أ - و | | * |
| * الباب الأول ، دراسة نظرية ١ - ١ | | * |
| ٢ | - الفصل الأول : مفهوم القسم وعناصره في اللغة والقرآن | |
| ٨١ | - الفصل الثاني : القيمة البلاغية في دراسة العلماء لآيات القسم .. | |
| ٣٧٨ - ١٥٢ | * الباب الثاني ، القسم بأسماء الله تعالى وصفاته .. | |
| ١٥٤ | - الفصل الأول : القسم باسم الرب تعالى | |
| ١٦١ | أولاً - القسم باسم الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب | |
| ١٧٩ | ثانياً - القسم باسم الرب مضافاً إلى أسماء بعض مخلوقاته .. | |
| ٢٠٣ | ثالثاً - القسم باسم الرب مضافاً إلى ضمير المتكلم | |
| ٢٢٢ | رابعاً - القسم باسم الرب مضافاً إلى ضمير التكلمين | |
| ٢٤٤ | - الفصل الثاني : القسم باسم الجلالة | |
| ٢٤٩ | # القسم باسم الجلالة مع الواو | |
| ٢٥٨ | # القسم باسم الجلالة مع التاء | |
| ٢٦١ | أولاً - قسم الله تعالى بـ (تالله) في سياق سورة النحل | |
| ٢٧٩ | ثانياً - القسم بـ (تالله) في سياق سورة يوسف | |
| ٣٢٠ | ثالثاً - القسم بـ (تا الله) في سياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه .. | |
| ٣٥٠ | رابعاً - القسم بـ (تالله) في سياق حكاية أحوال القيامة | |
| ٣٦٨ | - الفصل الثالث : القسم بعزة الله تعالى | |

تابع فهرس محتويات البحث

| الصفحة | الموضوع |
|--|---------|
| * الباب الثالث ، القسم بأسماء القرآن الكريم ٤٦١ - ٣٧٩ | |
| - الفصل الأول : القسم بلفظ القرآن ٣٨٤ | |
| الموضع الأول : القسم بـ (القرآن الحكيم) ٣٨٧ | |
| الموضع الثاني : القسم بـ (القرآن ذي الذكر) ٤٠١ | |
| الموضع الثالث : القسم بـ (القرآن المجيد) ٤١٥ | |
| - الفصل الثاني : القسم بلفظ الكتاب ٤٣٢ | |
| الموضع الأول : القسم بـ (الكتاب المبين) في صدر سورة الزخرف ٤٣٥ | ... |
| الموضع الثاني : القسم بـ (الكتاب المبين) في صدر سورة الدخان ٤٤٩ | ... |
| * الباب الرابع ، القسم بأسماء المخلوقات ٥٢٨ - ٤٦٢ | |
| - الفصل الأول : قسم الله تعالى بأسماء المخلوقات ٤٦٤ | |
| الموضع الأول : القسم بعمر الرسول ﷺ (لعمرك) ٤٦٥ | |
| الموضع الثاني : القسم بـ (السماء ذات الحبك) ٤٨٠ | |
| الموضع الثالث : القسم بـ (النجم إذا هوى) ٤٩٠ | |
| الموضع الرابع : القسم (مواقع النجوم) ٥٠٤ | |
| - الفصل الثاني : قسم المخلوقين بالمخلوقات ٥١٥ | |
| قسم السحرة بعزة فرعون ٥١٦ | |
| * الفاتمة ٥٢٩ | |
| * ملحق البحث : جدول إحصائي لمواقع القسم في القرآن الكريم ٥٣٥ | |
| ومواقعها في أهم كتب معاني القرآن وإعرابه وتفسيره ٥٤١ | |
| * فهرس المصادر والمراجع ٥٦١ | |
| * فهرس محتويات البحث | |